

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة عموم الأوقاف
الرباط المغرب الأقصى



العدد الثاني السنة السابعة
نونبر 1963 - جمادى الثانية 1383
ثمن العدد 1,50 درهم

مجلة تصدرها
وزارة
عموم الأوقاف

دعوة الحق

العدد الثاني
السنة السابعة
نونبر 1963
جمادى الثانية 1383
ثمن العدد 1,50 درهم

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة عموم الأوقاف . الرباط - المغرب

صورة الغلاف



منظر من حدائق مراكش

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :
مجلة ((دعوة الحق)) ـ قسم التحرير ـ وزارة عموم الاوقاف
الرباط ـ المغرب . الهاتف 10 ـ 308

الاشتراك العادي عن سنة 15 درهما ، والشرفي 30 درهما فأكثر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :
مجلة ((دعوة الحق)) رقم الحساب البريدي 55 ـ 485 ـ الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

او تبعث راسا في حوالة بالعنوان التالي :
مجلة ((دعوة الحق)) ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط ـ المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
في كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :

((دعوة الحق)) ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط
تليفون 308.10 ـ 327.03 ـ الرباط

عود إلى موضوع تحديد النسل

للدكتور : تقي الدين الهلالي

جاءني استفتاء من احد تلامذتي ، وهو السيد حازم طه الطالب في كلية اللغة العربية بالجامعة الازهرية يلتمس مني ان اكتب مقالا مفصلا في هذه المسألة . فكتبت مقالا مطولا في تسع عشرة صفحة من الصفحات العادية لآلة الكتابة، وبعثت بذلك المقال الى مجلة دعوة الحق الغراء ، ووسمته ، بتحديد الذرية ، واتقاء الامراض المعدية ، فرأت رئاسة تحرير المجلة ان تغير هذا الاسم وتبدله بقولها (رأي في تحديد النسل) . ونشرته في جزءيها السادس والسابع من سنتها السادسة . وقد افتيت في هذه المسألة بما اراني الله واعتقد انه الحق ولم اقل فيه برأيي ، بل اقمت البراهين النقلية والعقلية والصحية والاجتماعية والاقتصادية وبذلت في تحريره جهدي ، ولا ادعي العصمة من الخطأ والخطل ، فان العصمة للانبياء ، والكمال المطلق لله عز وجل . فما راعني الا ان اخبرني احد الاصدقاء ، وهو السيد احمد الخريصي الاستاذ في المعهد الديني الثانوي في مكناس ، ان صحيفة النضال نشرت مقالا في جزئها رقم 92 بتاريخ 3 غشت 1963 من سنتها الرابعة انتقادا لمقالي المتقدم الذكر . فلما قرأت النقد وجدته ناقصا ، لانه لم يستعرض الادلة النقلية والعقلية التي ذكرتها واطلت في تحقيقها ، ثم يردها بأدلة مكافئة لها، بل اجمل الكلام وحصره في نقطة واحدة او نقطتين . ومن عادتي اذا كتبت مقالا اعتقد انه الحق وبذلت فيه جهدي ، ثم جاء معترض ينتقده ان انظر في اعتراضه ، فان رأيته سائرا على اصول النقد ، وافيا بالمرام اعترفت بما يظهر لي انه حق وشكرت المعترض على تعاونه معي على الوصول الى الغاية المنشودة ، وهي معرفة الحق بدليله ، وان رأيته اعتراضا ساقطا غير جار على الاصول اعتصمت بالسكوت واهملت جوابه، لان المفكرين من القراء عند ما يقرأون ذلك الاعتراض يرجعون الى مقالي فيجدون جوابه فيه ويقتنعون بفساد الاعتراض . واما غير المفكرين فلا ابالي بهم . ومقال النضال لم يجر على اصول النقد ولم يسم صاحبه نفسه ، فكان حقه ان يسكت عنه ، لولا ما جاء فيه من نسبتي الى التشبع بالافكار الالمانية والى انني لم اطلع على احوال الشرق الاقصى . وما اشار اليه من الاحصائيات التي لم تزد على سكان اليابان ، كأن اليابان هم معيار سكان الكرة الارضية . اما وصفي بالعبقرية فظاهره انه من التهكم المقصود به الاذى ، فلا اجيب عنه . واما تعبيري باني اومن بآيات القرآن فانشد فيه :

وعيرني الواشون اني احبها   وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

فان كان الايمان بآيات القرآن عيبا فليشهد الثقلان اني مؤمن به ، ارجو ان احيا على ذلك واموت عليه .

1) قال المنتقد : ونرى كذلك خلال تلك السطور ان الدكتور متفائل الى ابعد حد . فهو لا يبدي ادنى تخوف من تزايد عدد السكان في العالم ، مؤمنا بقول الله تعالى (قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم) (وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها، كل في كتاب مبين) (ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان خطئا كبيرا) .

2) ويظهر ان الكاتب متشبع بافكار المانية . ونحن نعلم ان هذا الشعب قد فقد اكثر من نصف ابنائه اثناء الحرب العالمية الاخيرة . فمن الطبيعي اذن ان يستعمل الآن جميع الوسائل لاسترجاع نشاطه وحيويته التي عهدها قبل الحرب ، وذلك بانماء عدد سكان البلاد .

3) وقد يغير الكاتب رأيه لو قام بزيارة بلدان الشرق الاقصى ، ورأى كيف يعيش نصف سكان الكرة الارضية . فلا شك انه سيتخذ موقفا آخر ازاء هذا المشكل ، اذا شاهد عربة الموتى تمر كل صباح لتلتقط ضحايا الجوع والبؤس ، خصوصا في الهند والصين .

1) — قوله : ونرى كذلك خلال تلك السطور ان الدكتور متفائل الى ابعد حد الخ . اقول : وبالله استعين ، ليست القضية ، قضية تفاؤل او تشاؤم ، ولكنها بيان حكم الله ورسوله في هذه المسالة مع الاعلام بان المفتي غير معصوم من الخطأ ، الا انه بذل اقصى جهده في تحري الصواب . ومن بذل جهده واحتج بكتاب الله وسنة رسوله وبالواقع المشاهد فلا لوم عليه . ولماذا الخوف من تزايد السكان . وانا لا اخلقهم ولا ارزقهم ، وايماني راسخ بان لهم خالقا رزاقا ضامنا لمعيشتهم .

2) — قوله : ويظهر ان الكاتب متشبع بافكار المانية الخ . اعلم يا اخي المنتقد ويا اخي القارئ اني لم اسافر الى المانيا الا بعد ما تجاوزت الثلاثين من عمري وقرأت كتاب الله وسنة رسوله وعقيدة السلف الصالح ، فانا لا آخذ افكار الالمانيين على علاتها تقليدا بلا تمحيص ولا تمييز ، والالمانيون انفسهم ، اعني احرار الفكر لا يأخذون الاراء تقليدا ، بل يزنونها بميزان العلم والعقل . وكيف يسوغ لي ان يسألني طالب يدرس في الجامعة الازهرية عن حكم الله ثم افتيه برأيي او براي الالمانيين ، وقد قال الله تعالى في سورة الاعراف (33 — قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون) وقال تعالى في سورة النحل (116 ، 117 — ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب ، هذا حلال وهذا حرام ، لتفتروا على الله الكذب ، ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب اليم) وفي صحيح البخاري ان رجلا اصابته شجة في رأسه ، فسأل اصحابه حين اجنب ، هل ترون لي من رخصة التيمم ؟ فقالوا ، لا ، فاغتسل فمات ، فبلغ خبره النبي صلى الله عليه وسلم فقال : قتلوه قتلهم الله ، الا سألوا اذ لم يعلموا ، انما شفاء العي السؤال .

فليطمئن الاخ المنتقد والاخ القارئ اني لم اكتب في ذلك المقال الا ما اعتقد غير متأثر الا بكتاب الله وسنة رسوله والمصلحة العامة التي لا تخرج عنهما ابدا . اما قوله ان الشعب الالماني قد فقد اكثر من نصف ابنائه ، فلا اظنه صحيحا ، لان الاحصاء المشهور في المانيا ان عدد القتلى خمسة ملايين ، وهذا العدد موزع على الجيش الالماني وحلفائه . اما عدد المفقودين والذين ماتوا تحت الانقاض فلا يكاد يبلغ نصف هذا العدد ، اقول هذا على سبيل التخمين . واذا علمنا ان الشعب الالماني كان يبلغ ثمانين مليونا باستثناء الالمانيين المضمومين لبلونيا وتشكوسلوفاكيا ، وعلمنا ان عدد سكان المانيا الغربية اليوم اربعة وخمسون مليونا ، وعدد سكان المانيا الشرقية سبعة عشر مليونا ، المجموع واحد وسبعون مليونا ، علمنا ان الخبر غير صحيح . والظن القائل بان المانيا تعارض تحديد النسل بسبب ما فقدته من القتلى في الحرب لا نصيب له من الصحة ، ولو كان ذلك صحيحا لسنت الحكومة الالمانية قانونا يبيح تعدد الزوجات ولاعادت القانون الذي كان في زمان هتلر يقضي بان تقرض الحكومة كل متزوجين صالحين للتناسل من حيث السن والخلو من العوائق خمسة آلاف من الماركات . وكلما ولد لهما ولد سقط خمس القرض ، فان بلغ عدد اولادهما خمسة سقط القرض كله واعفيا من الضرائب الا شيئا قليلا جدا . واشتركت ام الاولاد الخمسة في عيد الامهات بافتخار عظيم وقدمت لها هدايا خاصة بها وبامثالها . وانا بنفسي استفدت من هذا القانون ، فاني كنت مدرسا في جامعة بون ، ثم طلبتني وزارة الدعاية من وزارة التعليم الالمانية لاكون مصححا لغة الاذاعة العربية فأتيت بشهادات تثبت بان لي خمسة اولاد فسقطت عني الضرائب الا شيئا قليلا جدا . ومن خالط الشعب الالماني يعلم يقينا ان تحديد النسل عادة متأصلة فيه قبل الحرب وبعدها . ولا يستطيع اي تشريع ان يزيلها منه . واذا علمت ان ذلك القانون الذي كان يعمل به في زمان هتلر للتشجيع على الزواج لم يؤثر كثيرا في عزوف رجال المدن عن التزوج واختيارهم العزبة . فلم يتزوج مع ذلك كله الا اربعون في المائة . اما نسبة المتزوجين في القرى والفلاحين فكانت اعلى من ذلك ، لا لاجل ذلك القرض ولكن من اجل التعاون على العمل الشاق الذي يقوم به الفلاح ، نعم ان التزوج في المانيا وفي سائر انحاء اوربة كثر بعد الحرب وتغيرت الافكار بدوافع اجتماعية . فبعدما كان المتزوجون في المدن لا يزيدون على اربعين في المائة صار عددهم بعد الحرب سبعين في المائة . اما في الفلاحين فهو اعلى من ذلك . وعلة ذلك حسبما قرأته وسمعته تتلخص فيما يلي : كان الشاب قبل الحرب اذا كان من ابناء الطبقة الموسرة او كان له ذكاء ممتاز يؤهله لمنحة الدراسة العليا لا يفكر في الزواج الا بعد ان يتم تعلمه ويجد عملا ويجمع مالا يستطيع ان يعيش به مع اهل بيته معيشة الترف والبذخ ، ومع ذلك كان اكثر الشبان يمتنعون من الزواج اصلا ، لانهم يرون فيه قيدا ثقيلا يقيد حريتهم ويحملهم هموما كثيرة . واما اذا كان من الطبقة العاملة فان دخله يكون قليلا فيحتاج الى زمان اطول . والمرأة العاملة تحتاج الى زمان طويل تجمع فيه (الفوطة) اي الصداق الذي تقدمه للزوج فتقضي معظم شبابها في العمل لاجل ذلك . اما بعد الحرب فقد رأى الشبان والشابات حاجتهم الى التعاون في وقت التعلم اشد منها فيما بعده ، الا انهم يمتنعون من التناسل الا بعد ان يعدوا لولد او ولدين بالاكثر عدتهما . ونادر جدا ان تجد في مدن المانيا رجلا وزوجته لا يجدان نسلهما اذا لم ينتفعا بالمرة .

3) ـ قوله ، وقد يغير الكاتب رأيه الخ. اقول : وكيف علمت انني لم ازر الشرق الاقصى ؟ لقد قضيت جل عمري في الشرق الادنى والاقصى ، فزرت الهند التي هي اكثر البلاد فقراء معدمين هائمين على وجوههم لا يملكون شيئا اصلا . واقمت فيها خمسة عشر شهرا وطفت جميع انحائها . ولم يكن عندي الا قليل من المال ، فكنت اسافر مع الفقراء في الدرجة الثالثة في القطار واركب اقبح العربات وارخصها اجرة وهي التي تسمى (يكا) يجرها حصان واحد صغير الجسم متولد بين الاتان وهي انثى الحمير ، والحصان ، فهو ضد البغل ، وشكله اقرب الى الخيل منه الى الحمير ، وهذه العربة لوح من خشب على عجلتين قد ركز فوقه اربعة اعمدة وغطي اعلاها بثوب فيركب السائق في مقدم اللوح والى جانبه راكب . والراكبان الآخران يجلسان كل منهما في جانب يولي كل منهما الآخر ظهره ، ووجوههما الى الجانبين . فهذه اقبح العربات . وهناك نوعان آخران ، يصح ان يكون احدهما الدرجة الاولى والثاني الدرجة الثانية . وتجولت في القرى في جميع انحاء الهند ، وسكنت في الهند ، فما رأيت ولا سمعت ان احدا مات من الجوع . ثم دعاني المرحوم علامة الهند السيد سليمان الندوي بعد ذلك بزمان الى ان اتولى منصب رئاسة قسم الادب بكلية ندوة العلماء . فأقمت فيها اكثر من ثلاث سنين ، وتخرج على يدي تلاميذ ، هم نخبة رجال الادب العربي في بلاد الهند وباكستان في هذا الزمان . ولم ازل متصلا ببلاد الهند وباكستان بالمراسلة . وفي بلاد الهند تعلمت اللغة الانكليزية . وهي اول لغة اوربية تعلمتها .

ورأيت في الهند قوما لا يملكون شيئا عراة الاجسام ، الا العورة المغلظة . وسمعت انهم اذا كانوا في الفلاة لا يسترون شيئا من اجسامهم ، وانما يسترون العورة المغلظة في المدن لان الحكومة لا تسمح لهم بدخول المدينة عراة . وكل واحد منهم يحمل ابريقا في يده ليستقي به الماء للغسل وللشرب وليس له مأوى ولا وطن ، بل يهيمون على وجوههم . وسمعت ان عددهم في ذلك الزمن خمسة ملايين . ولكن غربة الاموات التي تخيلها المنتقد لا وجود لها في بلاد الهند ، وانما هي من اختراع الخيال .

هب ان الجوع القاتل موجود في الهند على سبيل الفرض ، فذلك لا يدل على ان الاغذية لا تفي بحاجة اهل الهند لو اتبعوا الصراط المستقيم . ودونك البيان . في بلاد الهند رؤساء اقطاع كل منهم يلقب (براجا) وكل راجا يملك ما بين عشرين الى ثلاثين فيلا . غذاء كل فيل منها في اليوم والليلة يشبع خلقا كبيرا من بني آدم . وهذه الفيلة لا يستعملها في فلاحة ولا في غيرها ، وانما يتخذها تعاظما وافتخارا . حتى اذا كان عنده احتفال بعرس او غيره ينصب عليها قبابا من خشب الساج مكسوة بالحرير المذهب على ظهور تلك الفيلة ويركب فيها العروسان واقرباؤهما فيسير قطارها في المدينة في شكل موكب عظيم . فلو وزع ما تنتجه الارض في الهند توزيعا عادلا لما بقي هنالك معوز .

وهب ان ما تنتجه بلاد الهند من الاغذية لا يقوت اهلها ، فلا ينهض ذلك حجة على ان ما تخرجه الارض الصالحة للزراعة في القسم المعمور من الارض وما تخرجه البحور من الاغذية في القسم المعمور لا يكفي سكان الارض . اذن فلم خلقت الجواري في البحر كالاعلام التي تمخر المحيطات شرقا وغربا وجنوبا وشمالا حتى القطبين المكسوة مياههما بجبال الجماد . ولم خلقت القطر التي تشبه مدنا متحركة تقطع المسافات البعيدة بمعدل مائة وخمسين ميلا واقل واكثر في الساعة ، اضف اليها سيارات النقل والطائرات ، زيادة على البهائم ، اذا كانت لا تنقل الاغذية من صقع الى صقع ومن قطر الى قطر ، حتى يتوزع غذاء الارض كلها على سكان الارض كلها ، خصوصا في هذا الزمان الذي اظهر الله فيه الآيات ، واستطاع الانسان ان يبلغ قمة السيادة ويذلل جميع العقبات . ومنذ قديم الزمان اهتدى الناس الى تبادل البضائع من الاقوات وغيرها ، ولم يستغن قطر عن قطر ، ولا اقليم عن اقليم ، مع ما كان يلزمهم من المشاق والاهوال لصعوبة الاسفار والعوائق الجوية ، ولم يحدثنا التاريخ بان اقوات اهل الارض عجزت عن تغذيتهم ، فماتوا جوعا .

فان لم يقتنع بما تقدم اجمالا ولا بما يأتي تفصيلا فهلم نقصد السفارة الهندية والسفارة الصينية ونسألهما عن عدد الاموات جوعا وعدد الغربات التي تلتقطهم في مخيلة المنتقد ، عفا الله عنه .

4) ـ ثم قال : وقد القيت محاضرة اسيوية كبرى سنة 1955 تدعو سكان تلك البلاد الى تحديد النسل للتخفيف من ذلك المشكل ، فكانت النتيجة ان اصبح تزايد عدد سكان اليابان اثنين في المائة بدلا من عشرة في المائة في السنة .

اقول ، هنا اسئلة تحتاج الى جواب .

1) متى القيت هذه المحاضرة . 2) اين القيت . 3) من القاها . 4) اين نشرت . 5) ما هي البراهين التي تضمنتها لاثبات هذه الدعوى ؟ . وبدون الاجابة عن هذه الاسئلة يكون هذا الخبر صفرا على اليسار عند من يدري ما يقول ويزنه بقسطاس مستقيم .

5) ـ ثم قال ، هذا ويغلب على الظن ان سبب الخلاف الحالي بين الصين وروسيا راجع الى كثرة عدد سكان الصين . فقد اصبح هذا القطر يحب الحرب لنشر دعوته الاشتراكية . وحب الحرب هذا يؤدي بطبيعة الحال الى هلاك بعض الناس

ليقضي الآخرون عيشهم في رغد وطمأنينة . اقول ، في الحديث الصحيح ، اياكم والظن ، فان الظن اكذب الحديث . وقال تعالى ، ان الظن لا يغني من الحق شيئا) والذي نعرفه ويعرفه غيرنا ، ان الخلاف الواقع بين صفوف الشيوعيين له سبب آخر . وذلك انه بعد وفاة استالين انكر عليه خلفه خروتشوف امورا ، منها الاستبداد وكثرة سفك الدماء والانحراف عن مذهب ماركس ، فانقسم الشيوعيون في شرقي اوربا نفسها على قسمين ، قسم قبل هذا الرأي وتشيع له ، وقسم انكره ، وكان الصينيون من هذا القسم . وكلا الفريقين يفسر مذهب ماركس ولينين ويرده الى مذهبه . ومن الواضح ان الحزب الشيوعي الالباني من القسم الثاني المحافظ على مذهب ستالين . وقد كنت في برلين الشرقية في شهر يوليو المنصرم فعلمت ان كثيرا من الشباب من الحزب الشيوعي الالماني الشرقي يتعصبون لستالين . وملخص الخلاف ان شيعة ستالين يقولون : يجب على الشيوعية العالمية ان تحارب الرأسمالية بدون هوادة ولا توان الى ان تقضي عليها ويصير العالم كله شيوعيا . ولا تجوز المهادنة ولا المسالمة الا في حالة العجز الى وقت محدود . اما اتباع الرأي الجديد ، ومنهم السابق الى هذه الفكرة واحد ائمة الشيوعية الكبار الماريشال تيتو رئيس الدولة اليوغوسلافية ، فيقولون ان مذهب ماركس ولينين ليس جامدا ، بل هو قابل للتطور . وعلى الرجال القائمين به ان يوجهوه في كل زمان ومكان بما يناسب ذلك المكان وذلك الزمان . ولو عاش لينين الى هذا الزمان ما سلك غير هذا المسلك . ونحن على يقين ان الشيوعية العالمية تربح من السلم والتعايش السلمي ما لا تربحه من الحرب ، بل خسارتها في ايقاد نار الحرب في هذا الزمان محققة ، وربحها مشكوك فيه ، ولا يبيع المحقق بالمظنون الا ناقص العقل سيء التفكير . اضف الى ذلك ان الصين دولة عظيمة ، لها شعب يعد بما يزيد على ستمائة مليون ، ثم هي مقصاة من الامم المتحدة محكوم عليها بالنفي ، فترى انه يجب على الشيوعية العالمية ، وعلى رأسها خروتشوف ان تناصرها حتى تنال حقها من خصومها ، وعلى رأسهم الولايات المتحدة . فميل خروشوف الى مسالمة الولايات المتحدة وعقده لمعاهدة الحظر الجزئي للتجارب النووية ، تعده الصين خذلانا مبينا وتواطؤا مع الاعداء . وهناك امر آخر يزيد في حنق الصين ، وهو ان اختها الروسية ضنت عليها بكشف اسرار التجارب النووية ولم تشركها معها في ذلك ، وذلك ينافي صدق الاخوة والاتحاد في جهاد الرأسمالية العالمية . هذه بعض اسباب الخلاف والشقاق الواقع بين الشيوعيين مصحوبة بأدلتها والله اعلم .

6) ـ ثم قال ، لكن انماء عدد السكان يؤدي الى ضيق البلاد بأهلها وعدم وجود اماكن مناسبة وكافية للقاطنين بها ، فيضطرون الى غزو البلدان الضعيفة لجلب الموارد التي يحتاجون اليها .

اقول تكرارا لما تقدم ، اننا نؤمن بقول الله سبحانه (وما من دابة في الارض الا على الله رزقها) ويستحيل اعتقادا وعقلا وعادة ان يخلق الله خلقا ولم يعد لهم رزقهم . . وما احسن ما قال ابن زريق :

والله قسم بين الناس رزقهم
لم يخلق الله من خلق يضيعه

فمن آمن بذلك لم يكن عنده اشكال . والى من كفر به نسوق البراهين العلمية المادية الاحصائية التالية :

جاء في مجلة الازهر الغراء ، في جزئها الثاني ـ من السنة الخامسة والثلاثين ، صفر سنة 1383 هـ ـ يوليه 1963 م بقلم الاستاذ فتحي عثمان ما نصه .

بمناسبة الحملة ضد الجوع الذي نظمته هيئة الاغذية والزراعة بالامم المتحدة .

القول بان الجوع نتيجة نوع من القوانين الطبيعية ، قول لا يسنده راي علمي ، ومجرد تحليل بعض الارقام يبين لنا ان هذا رأي غير حقيقي . فالمحيطات تغطي 71 في المائة من مساحة سطح الارض ، 29 في المائة هي الجزء اليابس من مساحة السطح ، وهي تبلغ 50 مليون ميل مربع .

منها 30 في المائة تغطيه الغابات .

20 في المائة تغطيه السهول العشبية .

18 في المائة جبلي .

32 في المائة صحراوات حارة او قطبية .

ويقدر روبرت سولتر وهومر شانتز من خبراء وزارة الزراعة في الولايات المتحدة : ان 25 مليونا من الاميال المربعة ، اي نصف مساحة اليابس فقط ـ يمكن استغلاله في الزراعة بالطرق المتبعة حاليا في استغلال التربة ، اما الجبال والصحاري فلا تعتبر صالحة للزراعة ، ولو ان السنوات الاخيرة قد شهدت انتصارات ملحوظة حققتها طرق الزراعة الفنية في هذه البقاع .

ومع ذلك فان هذا الرقم يضع تحت تصرف البشر 16 بليونا من الافدنة يزرعونها ، اي بمعدل ثمانية افدنة لكل فرد من السكان على اساس تعداد العالم الحاضر .

وقد قدر علماء الزراعة والتغذية الذين يدرسون العلاقة بين المساحة المزروعة وانتاج الطعام في ضوء علم التغذية

الحديثة ، ان نحو فدانين لكل فرد يكفيان لتوفير العناصر الضرورية لغذاء معقول . وعلى اساس هذه النسبة تستطيع الزراعة ان تستغل ربع المساحة الصالحة للزراعة في العالم .

والى اليوم تبلغ المساحة المزروعة في العالم اكثر من بليونين من الافدنة ، اي بنسبة الثمن من المساحة الممكن زراعتها .. وقد اسقطنا من حسابنا نصف مساحة اليابس . فالجبال والصحاري لم تحسب ضمن الارض الصالحة للزراعة مع ان مائات الالاف من الافدنة في الصحراوات المدارية قد تحولت اخيرا الى الزراعة بفضل الاساليب الحديثة ، وان الروس يكسبون بطرقهم الزراعية المدهشة اراضي جديدة واسعة من الصحاري القطبية يحولونها الى الزراعة .

ومن النظريات الاخرى التي تثير الفزع ، القول بان انتاج الطعام لا يمكن زيادته ، لاننا بلغنا الحد الاقصى لطاقة التربة ، وكذلك حدود التشبع البشري .

ولكن الحقائق هي :

اولا — من الخمسين في المائة من اراضي العالم التي يمكن زراعتها ، لا يزرع الآن سوى عشرة في المائة .

ثانيا — ان غلة الفدان في اكثر جهات العالم يمكن زيادتها زيادة كبيرة باستعمال طرق زراعية معقولة .

وقد انتهت لجنة منظمة التغذية والزراعة التي طبعت التقرير الخاص بالتغذية في العالم الى ان انتاج القمح في الهند يمكن زيادته 30 في المائة في عشر سنوات منها :

20 في المائة بواسطة استخدام المخصبات .

5 في المائة بواسطة استعمال اصناف جديدة .

5 في المائة بواسطة حماية المحصول من الآفات والحشرات .

ويستطرد التقرير فيقول : انه بعد انقضاء هذه الفترة قد تستخدم وسائل جديدة تؤدي الى رفع هذه الزيادة الى 50 في المائة . ويمكن ان يحدث نفس الشيء في جهات كثيرة من العالم .

ويقدر ريموند كريستنس ان نصف الزيادة في الانتاج الزراعي بالولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية كان يرجع الى ادخال طرق فنية جديدة .

ان امكانيات علاج الحيوان المستأنس والنبات بوصفها وسائل انتاج غذائي ، تستطيع زيادة حصيلتها كما وكيفا (؟)

ولدينا امثلة كثيرة على ذلك ، بين الحربين العالميتين الاولى والثانية ، استطاعت تربية الحيوان على اسس علمية ان تزيد من معدل انتاج اللبن في الدانمرك من 2.000 الى 3200 رطل لكل رأس ، وفي انجلترا من 2700 الى 3200 رطل ، وفي نيوزيلندا من 2000 الى 3100 رطل . وهناك طريقة التوسع الزراعي بزراعة اراضي جديدة وانواع جديدة من التربات . وادخال نباتات وحيوانات جديدة للاغراض الغذائية ، كذلك نستطيع استغلال موارد غذائية لم تطرق بعد ، كالثروة الهائلة التي تزخر بها البحار ، كما انه من الممكن تربية الاحياء في مياه المحيطات لتزيد من موارد الانسان الغذائية . ان اول نصر كبير على الجوع سوف يأتي في شكل زيادة اساسية في الانتاج العالمي للغذاء . وتقف الطبيعة والعلم كلاهما على استعداد للمعاونة في هذا السبيل .

وهناك مساحة شاسعة من الاراضي غير المستعملة تنتظر الاستغلال — وتستطيع الفنون الزراعية ان توضح لنا احسن طرق استغلالها ، كما تستطيع ان تبين لنا كيف نزيد استفادتنا من الارض التي تزرع فعلا ، وكذلك من البحر او حتى من مركبات المواد غير العضوية ..

هكذا يبسط لنا خبير معهد التغذية بجامعة البرازيل (جوزويه دي كاسترو — آمال العلم)

اظن ان هذه الارقام الناطقة تقيم البرهان الحسي لمن لا يؤمن بكلام الله ووعده الذي لا يخلف . وهي غنية عن التعليق .

7) — قوله ، والله سبحانه يقول (ان ارضي واسعة واياي فارهبون) اقول ، في اي كتاب قال ذلك ؟ افي القرآن ام في التوراة ام في الانجيل ؟ اما في هذه الكتب الثلاثة فلا يوجد هذا التعبير . وان كان فيما نزل على آدم وشيت وادريس وابراهيم الخليل فلم نطلع على كتبهم . والعجب ممن يريد ان ينصب نفسه منتقدا ثم لا يحفظ القرآن ولا يكلف نفسه مراجعة المصحف او يسأل اي حافظ للقرآن ، وحفاظه كثير . والذي في القرآن ، هو قوله تعالى في سورة العنكبوت (56 ، يا عبادي الذين آمنوا ان ارضي واسعة فاياي فاعبدون) وهذه الآية نزلت في المستضعفين من المؤمنين بمكة الذين كانوا يخافون من كفار مكة ان يظهروا ايمانهم ، فحثهم الله على الهجرة الى الارض التي يكونون فيها احرارا قادرين على اظهار دينهم . فان الرزق مضمون لهم اينما ذهبوا في ارض الله ، وليس مقصورا على وطنهم واما قوله ، واياي فارهبون ،

فانها في سورة البقرة ، قال تعالى (40 ، يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم واوفوا بعهدي اوف بعهدكم واياي فارهبون) .

8) ـ ثم قال ، لكنه يقول في مناسبة اخرى (ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة) لقد مضى على نزول هذه الآية الف وثلاثمائة وبضع وثمانون سنة ، ولم يفهم منها احد الدلالة على منع الحمل خوفا من ضيق الرزق ، مع ان آلافا من العلماء فسروها من عهد الصحابة الى يومنا هذا .

روى ابو داود في سننه عن اسلم ابي عمران قال : كنا بالقسطنطينية ، وعلى اهل مصر عقبة بن نافع وعلى اهل الشام يزيد بن فضالة بن عبيد ، فخرج من المدينة صف عظيم من الروم فصففنا لهم ، فحمل رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم ثم خرج الينا ، فصاح الناس اليه ، فقالوا سبحان الله ، القى بيده الى التهلكة ، فقال ابو ايوب ، يا ايها الناس انكم لتتأولون هذه الآية على غير التأويل ، وانما نزلت فينا معشر الانصار ، انا لما اعز الله دينه وكثر ناصروه ، قلنا فيما بيننا ، لو اقبلنا على اموالنا فاصلحناها ، فانزل الله هذه الآية . اذن معنى الآية ، النهي عن ترك النفقة في الجهاد في سبيل الله ، فان ذلك يفضي بهم الى غلبة العدو ، وهو التهلكة .

واكتفي بهذا القدر ولا ارى حاجة للرد على بقية كلامه، لان من قرأ مقالي المنشور في مجلة دعوة الحق في جزءيها السادس والسابع من سنتها السادسة يجد الجواب عنه مفصلا ، فلا حاجة الى تكراره . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

مكناس : الدكتور تقي الدين الهلالي



الحياة الدينية في عهد بني مرين

للأستاذ : إبراهيم حركات

تطور الحركة الصوفية :

اكتست الحياة الدينية في عهد بني مرين مظاهر جديدة بسبب نشاط الحركة الصوفية من جهة ودخول العناصر اليهودية في الميدان السياسي الى جانب الاحتكاك بالمسيحيين المتوافدين على المغرب كغزاة او تجار .

وقد لوحظ ان الحركة الصوفية قد اتسع نطاقها على الخصوص شمالا حيث كان لزعمائها دور في التوجيه الروحي لسكان هذه الناحية التي تسلط عليها التدخل الاجنبي .

لم تكن الحركة الصوفية في عهد بني مرين تكتسي صبغة التمرد المسلح على الدولة او التكتل ضدها ، بل كانت في الواقع ثورة سلبية على الوضع الديني والاجتماعي والسياسي الذي صار اليه الشعب والدولة . وظلت هذه الثورة مكبوتة لتنطلق في صراع مسلح ضد التدخل الاجنبي منذ اواخر ايام الدولة ثم تشتد ابتداء من عهد الوطاسيين .

ونستطيع ان نقسم رجال الحركة الصوفية في هذا العهد الى قسمين رئيسيين ، قسم انقطع لعبادة الله وتجرد عن الخوض في شؤون الدنيا ، ومن بين رجال هذه الطائفة افراد زهدوا لمجرد الزهد ولم يؤسسوا طريقة معينة ، واشهرهم الامام ابن عاشر ، والباقون فيهم من تزعم حركة صوفية معينة وكون لنفسه طريقة كالامام الجزولي . ثم هناك طبعا مريدون واصحاب لكل من الطائفتين . اما القسم الثاني فهو الذي كون نواة لحركة الجهاد التي سيتسع مداها في عهد الوطاسيين .

اما تعظيم الشرفاء فلئن تحددت معالمه في عهد المرينيين فسيتسع مداه ايضا في عهد الوطاسيين ثم يمتد اكثر فاكثر ايام السعديين والعلويين . ولقد كان تنصيب الشرفاء الجوطيين بفاس محاولة لارجاع دولة الادارسة الى الملك بعد غيبة دامت عدة قرون . بيد ان قلب دولة وتأسيس اخرى لم يكن امرا هينا ، فقد كان على الادارسة الجدد ان يمهدوا لدولتهم بدعاية واسعة النطاق داخل المغرب ويعدوا الاموال اللازمة لضمان نجاح دولتهم . وفقدانهم لهذه الوسائل الى جانب السند العسكري اللازم جعل دولتهم تموت في مهدها .

ولقد اصبح المذهب المالكي في عهد المرينيين يسيطر وحده في ميدان التشريع والعبادات مثلما كان الامر في عهد المرابطين . ولم يفقد الفقهاء نفوذهم السياسي بالمرة في بلاط المرينيين ، بل كان لقليل منهم تأثير بالغ في توجيه السياسة الملكية ، مثلما كان الامر بالنسبة لابن مرزوق ، وقضية قتل ابن الخطيب .

نشاة الزوايا :

لم يعرف المغرب الزوايا قبل عهد ابي يوسف ، ثم لم يكن دور هذه الزوايافي عهد المرينين بوجه عام مثلما صار عليه في عهد الوطاسيين المتأخرين . فقد كان قصد ابي يوسف من بنائها ان تكون بمثابة دور لاستقبال الغرباء والوافدين من الخارج من كبار رجال الدول واعيانها (*) والغرض الاول من بنائها كان كما نرى ابعد ما يكون عن الهدف الصوفي الذي اتجهت اليه فيما بعد والظاهر انها اصبحت مع الايام المكان المفضل لرجال التصوف الذين كانوا ينقطعون فيها للعبادة ثم تحولت لاستقبال المريدين والاتباع الذين ينقادون لحركة طرقية معينة وصارت لا تبنى لا لهذا الغرض. وكان ابو عنان قد خصص للمساكين الوافدين على الزوايا طعاما يوميا ، فهيأ بذلك الجو عن غير قصد لجعل هذه الزوايا تستقبل المريدين وخصوصا الفقراء فيما بعد .

وكان بالمغرب منذ عهد المرابطين بل قبلهم ربط كانت عبارة عن محتشدات للجهاد ونشر الاسلام بين ربوع المغرب ، بيد ان هذه الربط قد ضعف شأنها ايام المرينين وبدأت تترك مكانها للزوايا التي انقطع اغلبها للجهاد الروحي . على ان

(*) المسند (منتخبات ص 36 والاتحاف الوجيز ورقة 26 والذخيرة ص 100

اهم الزوايا التي ترجع الى العهد المريني هي زاوية السلا، وهي من بناء ابي عنان سنة 757 ، وقد بقي من بنائهما بابان موقعهما قرب ضريح (سيدي بلعباس) ، وترجع معظم الطرق الصوفية بالمغرب الى اصول محلية حيث انتشرت بواسطة الامام الشاذلي الذي استقى اهم اصول طريقته عن الامام عبد السلام بن مشيش .

حياة بعض كبار المتصوفة

1 ـ ابو الحسن الشاذلي : (2)

علي تقي الدين ابو الحسن الشاذلي من قبيلة غمارة التي ولد فيها سنة 593 . ومع ان نشأته ووفاته ايضا كانت في عهد الموحدين (قبل سقوط دولتهم ببعض سنوات) فان طريقته لم تنتشر بالمغرب الا في عهد متأخر من حكم بني مرين

وكان ابو الحسن الشاذلي نحيف الجسم خفيف العارضين طويل اصابع اليدين ، فصيح اللسان والنطق ، وكان يلبس الفاخر من الثياب ويستنكف من لبس المرقعات ولو انه قد البسه الشيخ حرازم مرقعه ليعتنق بذلك مذهب المتصوفة ، وكان يركب الدواب ويتخذ الخيل الجياد ويقول : لو اتخذ اصحاب المهن لباسا يتميزون به والعلماء لباسا خاصا يفرض على الناس احترامهم ، واتخذ الحكام مثل ذلك اظهارا لهيبتهم ، فلا يجوز للصوفي وهو السهل السلس ، ان يتخذ لباسا لانه ذلك العابد الزاهد الذي اذا تميز بالزي افتضح حاله وسره ، والواقع ان هذه كانت نظرية عدد آخرين من متصوفة المغرب كابن عباد وغيره .

وقد تلقى الشاذلي دراسته ومعارفه في ظل دولة الموحدين بالمغرب وتونس ، ومن اشهر شيوخه بالمغرب ابو الحسن بن حرازم الذي تلقى عنه الشاذلي طريق القوم كما لبس خرقة التصوف ، كما اخذ عن عبد السلام بن مشيش الذي اوصاه بالدعاية لحركته في تونس بعد ان يتزيد من معارفه بها ، وفي تونس تلقى الشاذلي علوم الحديث والكلام والفقه وغيرها على عدة علماء كابي سعيد الباجي وابي محمد المهدوي شيخ صوفية تونس الذي تلقى هو نفسه عن ابي مدين وعبد السلام بن مشيش .

وقد هاجر الشاذلي الى تونس وهو بعد حدث ، ثم هاجرها الى مصر سنة 642 . وكان توجهه الى افريقيا بامر من عبد السلام بن مشيش الذي اوصاه ان يبدأ دعوته بشاذلة من اعمال تونس . لذلك اشتهر بالشاذلي مع انه من غمارة .

وفي تونس اقبل عليه المريدون واتخذ له دارا بمسجد البلاط، وتردد بينها وبين زاويته بجبل زغوان طبقا للخطة التي رسمها له استاذه ابن مشيش وتألب عليه بتونس جماعة من الفقهاء الذين حسدوه على ما ناله من صيت بافريقية وتزعم معارضته والكيد له ابن البراء قاضي الجماعة بتونس ، مما اضطره الى الهجرة الى مصر سنة 642 حيث مكث بقية ايامه تحت ظل الايوبيين الى ان لحق بربه سنة 656 هـ . وذلك بعد ان كف بصره ، وصادفته المنية وهو في الطريق الى الحج فدفن بقرية حميثرا بصحراء عيذاب بصعيد مصر بين قناة والقصيرة وتولى تجهيزه ودفنه ابو العباس المرسي الذي كان على راس اصحابه، وضمنهم الشيخ بدر الدين بن جماعة الذي تولى منصب قاضي قضاة مصر ، وكان يفتخر بحضور جنازة الشاذلي ويقول : ان بركة الشيخ قد حلت بالديار المصرية منذ اقام فيها .

ومن وصايا ابن مشيش للشاذلي :

1) الله الله والناس نزه لسانك عن ذكرهم ، وتنزه قلبك عن التمايل من قبلهم ، وعليك بحفظ الجوارح على الله واداء الفرائض لله ، وقد تمت ولاية الله عليك ، ولا تذكرهم الا بواجب حق الله عليك وقد تم ورعك ، وقل اللهم ارحمني من ذكرهم ، ومن العوارض من قبلهم ، ونجني من شرهم واغنني عن خيرهم ، وتولني بالخصوصية انك على كل شيء قدير .

2) افضل الاعمال اربعة بعد اربعة : المحبة لله ، والرضى بقضاء الله ، والزهد في الدنيا ، والتوكل على الله . واما القيام بالاربعة الاخرى فالقيام بفرائض الله ، والاجتناب لمحارم الله ، والصبر على ما لا يعني ، والورع من كل شيء يلهي .

3) الزم بابا واحدا تفتح لك الابواب ، واخضع لسيد واحد تخضع لك الارقاب ، قال الله وان من شيء الا عندنا خزائنه ، فاين تذهبون .

وقد عرف الشاذلي التصوف بانه تدريب النفس على العبودية وردها لاحكام الربوبية . وقال : للصوفي اربع صفات : التخلق باخلاق الله ، وحسن المجاورة لاوامر الله ، وترك الانتصار للنفس حياء من الله ، وملازمة البساط بصدق الفناء مع الله .

وتنبني طريقة الشاذلي بعد تبلورها ، على عدم التجرد كلية من الدنيا والمزاوجة بين العمل لها وللدين ، وفي ذلك

★ انظر كتاب (ابو الحسن الشاذلي) لعلي سالم عمار الذي استعرض ترجمته وطريقته بتفصيل ، وعنه اخذت هذه المعلومات .

قال الشاذلي : ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا باكل الشعير والنخالة ، ولا بقبقبة الصناعة ، وانما هو بالصبر على الاوامر واليقين في الهداية ٠

وقال : من اراد عز الدارين ، فليدخل في مذهبنا يومين ٠ فقال له القائل : كيف لي بذلك ؟ فقال : فرق الاصنام عن قلبك ، وارح من الدنيا بدنك ، ثم كن كيف شئت ، فان الله تعالى لا يعذب العبد على مد رجليه في استصحاب التواضع للاستراحة من التعب ، وانما يعذبه على تعب يصحبه التكبر ٠

2 ـ ابو عبد الله الجزولي :

ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الجزولي نسبة الى قبيلة جزولة الشهيرة التي ينتمي اليها عدة علماء وشخصيات دينية ، وعلى رأسهم عبد الله بن ياسين ، ونسب الجزولي الى سلالة النبي عليه السلام شأن كثير من الصوفية غيره وسواء اثبت هذا النسب ام لم يثبت ، فقد كان الغرض منه استمالة الشعب المغربي الذي يعترف بفضل الاشراف الادارسة في نشر الاسلام ببلاده ، ولم يكن الجزولي ولا الشاذلي ولا كثير من الصوفية الاولين يهتمون بادعاء الشرف وانما كان العامة يرون من البركة في شرفاء الصوفية ما لا يرونه في غيرهم ٠

وتلقى الامام الجزولي دراسته بفاس والشرق ، واخذ طريقة الشاذلي عن شيوخها بمصر ٠ وقيل انه توفي بجزولة ونقله ابو العباس احمد الاعرج من مدفنه فوجده بحاله لم يتغير من جسمه شيء مع بعد العهد (1) ٠ على ان الامام الجزولي قد اتيح له ان ياخذ مبادىء الطريقة الشاذلية بالمغرب قبل ان يستكملها بمصر ٠ وهكذا درس على شيوخ الصوفية بتيط قرب الجديدة وقد دفن الامام الجزولي بمراكش بعد ان نقل جثمانه في عهد الملك السعدي المذكور ، من افوغال وقد وضع هذا الصوفي الشهير دلائل الخيرات الذي ردد اوراده وادعيته ملايين المريدين منذ وضع ٠ وقيل ان مريديه بلغوا في عهده اثنى عشر الفا (2) وكانت وفاته سنة 869 هـ اي في نفس السنة التي سقطت فيها الدولة المرينية ٠

3 ـ ابو العباس احمد بن عاشر :

ابو العباس احمد بن محمد بن عمرو بن عاشر الاندلسي الجزيري ، اصله من شمنية ، وبها ولد ونشأ الى ان حفظ القرآن وقرأ العلم واجتهدفي العبادات، ثم انقطع الى الجزيرة الخضراء يقيم ببيت في احدى صوامعها ويقوم بتحفيظ القرآن الكريم ٠ وفي الجزيرة اتصل باولياء عديدين من بينهم مسعود بن مرحان الذي وصف بانه كان (ماخوذا عن نفسه، مصروفا لحبه تعالى الى ما يجده بعد الحلول في رمسه (3) ٠

ثم قدم ابن عاشر الى المغرب فنزل بفاس ، ثم رحل الى مكناس وكانت تعيش بها اخت له (4) ، وعندما اشتهر امره اصبحت تعيش تحت كفالة ابي عنان حيث هي ٠ ثم انتقل الى سلا برباط الفتح حيث نزل على الولي الحاج عبد الله اليبوري الذي كان يسميه بالشاب الصالح ، وبدأ يشتغل بتعليم الصبيان القرآن ثم تحول الى سلا حيث نزل بزاوية ابي زكرياء قرب الجامع الاعظم ، وحينئذ بدأ يتكسب من نسخ (العمدة) في الحديث ، وكان يدرسه لطلبته وينسخ منه ثلاث نسخ سنويا ويبيع كلا منها بدينار ذهبي بعد تفسيرها ، وبذلك تمكن من جمع مال لشراء دار بازاء باب معلقة ، حيث توافد عليه المريدون واعتزل الناس بعد ذلك فلا يظهر الا نادرا ٠

وكان يطالع كتاب الاحياء للغزالي ، والنصائح للمحاسبي ويوصي بقراءتهما ٠ وكان يهتم الى ذلك بكتب الفقه التي كثيرا ما يأمر باستنساخها وقراءتها حتى انتشرت بين الطلبة وتعيشت جماعة بنسخها وتصحيحها ، وكان مع ذلك (من اعلم الناس بالحلال والحرام ، وبه نجح الفقه في هذا الباب بالمغرب (✶)

وكان يلبس اللباس الخشن الا في صلاة الجمعة حيث يلبس جبة صوف خضراء ، وحزام صوف وكان كثير التواضع لاصحابه اذ كان يخاطبهم : انما انا واحد منكم ولست بشيخكم ولا معلمكم فعليكم بكتب العلماء ، ولا يقتدين احد بي فيما لا يجد له اصلا في كتب العلماء ، ولست بقدوة ولا امام متبع ٠

---

1) التشوف الى رجال سادات التصوف ص 71
2) المصدر المذكور ص 73
3) تحفة الزائر ورقة 2
4) الاتحاف الوجيز ص 41 وتحفة الزائر ورقة 2
✶ تحفة الزائر ورقة (3)

وقد لخص العلامة احمد بابا طريقة ابن عاشر في عبارة موجزة شيقة اذ قال : (جعل احياء علوم الدين بين عينيه واتبع فيه بجدواجتهاد وصدقوانقيادوكان الحجةفي ذلك الطريق (✱)

وقد اتيح لابن الخطيب ان يلتقي بابن عاشر فوجده كما قال « قاعدا بين القبور في الخلاء ، رث الهيئة مطرق اللحظ كثير الصمت ، مفرط الانقباض والعزلة ، قد فرنه اهل الدنيا وتطارحهم فهو شديد الاشمئزاز من قاصده (✱) .

ومن كراماته ما حدث به بعض اصحابه حيث قال : لما كان الشيخ برباط الفتح في زيارة الشيخ اليبوري رحمه الله ، كنا نتردد لزيارته والتبرك به ، فكلفني يوما ان اسوق له « رعاية المحاسبي » فلما كان بعد ذلك جئته فطلبته في خلوته فلم اجده وطلبته في سائر الزاوية فلم اجده . وكان وقت الصلاة ، واردت الوضوء فتحيرت ان اباشر الوضوء والكتاب عندي او اتركه واتصرف لشأني فاخاف عليه الضياع ، ولا في الزاوية اذ ذاك احد غيري ، فاذا بي اسمع حسا من خلفي ، فالتفت فاذا انا بالشيخ رضي الله عنه مبادرا يقول : هات ، هات : فتعجبت من اين اقبل بسرعة ولم اره ومن اين عرف ما عندي فلما رأى تعجبي وما اصابني من امره ، واشار لي بيده الى ناحية الساحل من وراء الزاوية (✱)

وسأله بعض اصحابه عن الفرق بين مكاشفة المسلم ومكاشفة النصراني لوجود ذلك من بعضهم ، فقال : المسلم الذي له هذه الدرجة ، يبرىء من العاهة ، والنصراني لا يبرىء . ثم سأله نصراني في زي مسلم عن نفس المسألة ، فقال له : الفرق بينهما سقوط الزنار من وسطك . قال : فسقط ، واسلم بسبب ذلك (✱) .

وفي سنة 757 حاول ابو عنان ان يتصل بابن عاشر فوقف ببابه مرارا فلم يسمح بمقابلته ثم وجه اليه احد اولاده مصحوبا بكتاب يطلب فيه زيارته فلم يقبل ، واجابه برسالة تتضمن حوالي اربع صفحات منها قوله :

« الحمد لله . من العبد الفقير الى الله تعالى احمد بن عمرو بن محمد بن عاشر وفقه الله تعالى بمنه وكرمه ، الى امير المومنين ابي عنان ايده الله تعالى بتقواه ..

اما بعد ، فقد ورد علي كتابكم المشرف بذكر الله تعالى ، وولدكم المكرم جعله الله تعالى من المتقين ، وانبته نباتا حسنا ، وعلمه علما نافعا ، ولا يجعله من المبعدين من رحمة رب العالمين وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الكريم ، ولتعلم اني ما شككت فيكم ، وقد ايقنت انكم ما ارسلتموه الا من اجل الله عز وجل وطلب مرضاته ..

وبعد ، فاني لم اكن للزيارة اهلا ولا للغربة محلا ، وانما سترني الكريم بفضله ولطف بي بحلمه ، ولله الحمد على نعمته الظاهرة والباطنة .

ثم يورد بعد هذا نصائح لابي عنان ويتمثل بآيات واحاديث . ومن نصائحه :

« وليعلم امير المؤمنين انه لا يخلصه احد من خدامه ولا من حشمه ، بل يفرون منه يوم القيامة ويفر منهم ، ولا عليك في هذا الامر الا ان تراقب الله تعالى وانت مقبل على الله عز وجل .

وقد عبر ابو عنان عن اسفه لعدم قبول ابن عاشر لزيارته حيث قال : هذا ولي من اولياء الله تعالى حجبه الله عنا .

وقد رد عليه ابو عنان بخطاب ثان كان مما جاء فيه قوله :

« وصلني كتابكم الذي ذكرتني بموعظته ، وعرفتني مصالح نفسي بنصيحته . اعرب بلسان الصدق ، ودعا الى سبيل الحق وايقظ من النومة ، ونبه من الغفلة ، فجزاك الله خيرا يا ايها القاصد وجه الله تعالى العظيم في سره وجهره ، الواقف عند حدود الله عز وجل في نهيه وامره . لقد نصحتني وما غششتني وندبتني لسعادتي وما كذبتني فالله اسأل ان ينور بصيرتي وياخذ للخير بناصيتي ، ويسلك بي فيما قلدني سبيل اوليائه المتقين ، ويعينني على القيام بامور عباده المسلمين الخ ... »

ويقول ابو عنان بعد كلام طويل :

« وانا قد انتفعت بكتابك ، وانتفع ان شاء الله تعالى بنصيحتك واجد بركة موعظتك التي اردت بها وجه الله العظيم علام الغيب ، فلا تخلني بعد من اشاراتك ، ولا من

✱ نيل الابتهاج ص 43 ونفح الطيب 9 ص 197 والعبارة في الاصل لابن قنفذ .

✱ نفح الطيب 9 ص 196 .

✱ تحفة الزائر ورقة (6) .

✱ نفح الطيب 9 ص 197 ونيل الابتهاج ص (43) .

صالح دعواتك ولا توحشنا من انس جوارك ولا تفقدنا من صالح ايثارك ، وان كنت قد استغنيت عنا ، فاني لا استغني عن مشاورتك الصالحة ، وكتابتك الرابحة ان شاء الله تعالى . . »

وقد توفي ابن عاشر سنة 765 هـ ودفن بسلا قرب شاطئها وقد بنى السلطان مولاي عبد الرحمن العلوي قبة على ضريحه وتوالى الاعتناء به بعده .

4 — ابو عبد الله محمد بن عباد :

ابو عبد الله محمد بن عباد ولد ونشأ برندة حيث درس القرآن عن والده ، والعربية عن خاله عبد الله الفريسي ، وقراءة نافع عن ابي الحسن الرندي ، كما تابع دراسته بكل من فاس وتلمسان على عدة علماء كالفشتالي قاضي الجماعة .

وكان ابن عباد حسن السمت ، شديد الحياء والوقار ، ملازما للصمت ، حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ثم تشاغل بالنحو والادب والاصول حتى برز فيها . ولقي بسلا احمد بن عاشر واقام معه سنين عديدة ، وكان ممن يحضر السماع عند السلطان ليلة عيد المولد ، وكان يكره ذلك .

ويحكي ابن عباد في بعض رسائله انه خرج في يوم ذكرى مولد الرسول (ص) صائما الى ساحل البحر فوجد هناك الحاج احمد بن عاشر ، وجماعة من اصحابه معهم طعام ياكلونه . قال ابن عباد : فارادوا مني الاكل فقلت اني صائم ، فنظر الي سيدي الحاج نظرة منكرة ، وقال لي : هذا يوم فرح وسرور يستقبح في مثله الصوم كالعيد ، فتأملت قوله فوجدته حقا ، وكأنه ايقظني من النوم . وقد اشتغل ابن عباد مدة بتدريس عدة كتب كمختصر ابن الحاجب وتسهيل ابن مالك ، ومقامات الحريري وفصيح ثعلب ، كما اقام خطيبا بالقرويين مدة 15 سنة ، وله شرح على حكم ابن عطاء الله . وقال عنه الشيخ القسطنطيني : هو عند اهل فاس بمثابة الشافعي عند اهل مصر .

وكان ابن عباد يلبس الثياب الرفيعة ويستعمل الطيب ، ووصفه صاحب افادة المرتاد بانه كان آية في التحقق بالعبودية والبراءة من الحول والقوة ، وقد شهد له بالولاية والتقدم عدد من الصوفية كسليمان اليازغي ومحمد المصمودي .

وقد دفن ابن عباد بفاس سنة 792 هـ وبها قبره .

اليهود والنصارى

هاجرت عناصر كثيرة من يهود الاندلس الى المغرب في عهد المرينيين ، فقدروا فيهم نشاطهم ومقدرتهم في شؤون التجارة والاقتصاد ، وخولوهم من الامتيازات ما لم يسبق لليهود ان نالوا مثله بالمغرب من قبل . وبرهن المرينيون عن تسامح ديني عظيم نحوهم فسمحوا لهم بفتح المتاجر والمصانع ومعايشة المسلمين ، كما سمحوا لهم بمباشرة طقوسهم الدينية فسمحوا لهم بفتح المتاجر والمصانع ومعايشة المسلمين ، كما سمحوا لهم بمباشرة طقوسهم الدينية واظلوهم بحمايتهم وكان لكبار موظفيهم مقام سام لدى ملوك الدولة حتى قيل ان ابي خزر بن ابراهيم بن وقاصة « بلغ في الحضرة عند ابي الربيع المنزلة التي لم يبلغها عنده احد » (✶)

اما النصارى الذين استفاد المرينيون من خبرتهم الحربية رغم تدخلهم المتوالي في شؤون الدولة ، فقد سمح لهم الموحدون من قبل ببناء كنيسة بمراكش ، وكانت الكنيسة تحمل اسم (NOTRE-DAME) (نوتردام) ، ولما كان عهد البابا انوصان الرابع INNOCENT ارسل الى ملك المغرب سنتي 1246م و 1251م رسالتين يطلب منه فيهما ان يمنح المسيحيين اماكن يحتمون بها عند الخطر الذي يتهددهم من الاهالي « اذا اساؤوا استعمال الحقوق المخولة لهم » ومن الملاحظ ان الملوك الموحدين بعد المامون قد تركوا المسيحيين في خدمتهم حتى ان البابا جرجير التاسع شكر الرشيد سنة 1233 على العناية التي يبديها نحو النصارى .

وفي مطلع سنة 1308 م علم ابو ثابت المريني قائد حامية مراكش ان يوسف بن محمد بن ابي عباد قد اتى قتلا على نصارى مراكش واستولى على اموالهم وفر الى اغمات ، وقد تمكن ابو ثابت من قتله كما قتل مئات من اتباعه الذين علقت رؤوسهم على ابواب مراكش، انتقاما من قتلهم للنصارى (✶)

وكلما تفاقم خطر النصارى على المسلمين بسبب تدخلهم السافر في الشؤون السياسية عمد هؤلاء الى الانتقام منهم فيضطر القادة او الملوك المرينيون الى حمايتهم .

واذا كان المرينيون قد صحبوا معهم معظم القوة النصرانية من مراكش الموحدية الى فاس فقد تركوا عددا منها بمراكش حتى اذا كانت سنة 1390م طلبت الحامية النصرانية المؤلفة من 50 فارسا الدخول الى اسبانيا .

وكانت الكنيسة المسيحية بمراكش توجد جنوب مسجد المنصور بالقصبة التي كان بها ايضا السجن المخصص للمسيحيين .

وكان عددهم في عهد المنصور المريني يبلغ بمراكش حوالي خمسمائة ، وقد ظلوا يؤدون طقوسهم الى جانب اولادهم ونسائهم حتى استقدمهم جان الاول ملك قشتالة .

فاس — ابراهيم حركات

✶ مشاهير اعيان فاس قديما ورقة 30

✶ PIERRE DE GENIVAL في هسبيريس 1 — 1927 ص 81

المرأة الجديدة وعقيدتنا

بقلم : الأستاذ عبد السلام الهراس

ان اية عقيدة لا يمكن ان تضمن لنفسها النجاح اذا هي اهملت نشاط المراة ، لان المراة عنصر اساسي وفعال في كل دعوة وفكرة ، فهي عند ما تؤمن بعقيدة او فكرة ، تخلص لها اخلاصا صوفيا ، ومجردا عن النظرة الانتفاعية ، وتبذل في سبيلها كل طاقاتها وممتلكاتها ، وتتحمس لها تحمسا عظيما ، والمراة ايضا هي المسؤولة عن الاجيال ، فهي التي تحمل ، وترضع ، وتربي ، وتمرض ، وتواسي ، وفي كل تلك الاطوار والاحوال تبث عقيدتها وافكارها في اولادها من خلال البسمات ، والدموع ، فهي خير داعية للفكرة ومبشر بها .

وقد كانت المراة اول من آمن بعقيدة الاسلام ، وكان لايمانها وثباتها ، وتشجيعها ونفوذها ومالها خير معوان لرسول الله (ص) في دعوته ، ولحكمة اراد الله ان تكون المراة اول المؤمنين بهذه الفكرة التي غيرت تاريخ الحضارة الانسانية وفي القرآن تصريح بمسؤولية المراة عن « الفكرة » :

(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله) فكل فرد مسلم رجلا كان او امراة امين على فكرة الاسلام ومدعو لنشرها ، وقد بايعت النساء رسول الله على مبادىء الاسلام واحدا واحدا ، ولم يكتف رسول الله بمبايعة الرجال وجعلهم نوابا عن النساء ، اذ ان النيابة هنا لا تصح ، لان الامر يتعلق بالايمان وبالضمير ، وقد اعطين المواثيق على خدمة « الفكرة » وبالفعل ادت المراة المسلمة ، خدمات عظمى في بث العقيدة ونشرها وثباتها ، وللمراة المسلمة مواقف مشرفة لا تقل عن مواقف الرجل .

ولكن عند ما انحط المجتمع كانت حتمية الظواهر الاجتماعية والتاريخية ان تنال المراة نصيبها من هذا التدهور الذي اصاب العالم الاسلامي ، فالمجتمع كل لا يتجزا ، وسنة التاريخ ان الانحطاط عند ما يحل ، يطارد الحضارة ، ويشمل المجتمع كله ، وفي جميع مرافقه ، وقد احيطت المراة في هذا العهد بسياج من الاحتياطات ، فاصبحت داخل « البيت » بالمعنى الضيق ، وهناك زاولت رسالتها ، وان كان المجتمع غير قادر على تزويدها بما يلزمها للقيام بالرسالة التمدينية ، وان المراة — في نظري — ليست مسؤولة في الماضي مسؤولية الرجل عما اصاب المسلمين من التدهور ، لان الرجل تحمل المسؤولية كاملة في عصور التخلف .

واليوم وقد ارغمتنا الحياة الجديدة على التعايش مع عالم جديد ، متجاور اشد ما يكون التجاور ، عالم اعطى « للفكرة » مكانها الاول في قيادة الانسانية — في هذا اليوم ينبغي الا نهمل المراة فيما تريده من نهضة ، ولا اعني بالاهمال تركها جاهلة فقط ، بل عدم تثقيفها على اساس « الفكرة » ، فنحن لا ننكر ان المراة صادفت عناية من جانب « الرجل العصري » عندنا في بداية ما نسميه نهضة ، وقد استطاع هذا الرجل ان يحمل المراة العصرية على تمزيق الحجاب ، وغداة استقلالنا قامت مظاهرة في احدى المدن للاعلان عن خرق الحجاب واعلان السفور ، كما عقدت ندوات ومحاضرات لمناقشة موضوع الحجاب والسفور ، ولعل معارك دونكخوطية مرت حامية الوطيس حول هذا الموضوع التافه ، وانتهى الامر عند هذا الحد ، ولكن تلك العناية كانت سطحية ومؤسفة ، كانت سطحية لانها كانت تتناول مشاكل تافهة لا تمس جوهر مشكلة المراة ، وكانت مؤسفة لانها ضللت المراة ولقنتها عن النهضة معاني تتعلق بقشور وشكليات ، وفي الواقع ان نصيب كثير من « الرجال العصريين » لم يكن ليختلف عن نصيب « المراة » لان « الفرد » عندنا لم يفكر له ، لحد الآن ، في محاولة توجيهه في اطار ثقافي ايديولوجي ،وتحديد رسالته ، وتربيته على تلك الرسالة

وانما ترك الامر للطبيعة والزمن وهما الكفيلان ــ فى رأي بعض مفكرينا ــ بحل المشكلة ، ولكن لو كان للزمن هذه العصا السحرية وهذه القدرة الجبارة لاقامت له الامم الحية ، التي تعتمد على نفسها ، تماثيل من ذهب . .

ومهما يكن من شيء فاننا نعيش واقعا يجب ان نعترف به وهو ان المرأة عنصر مهمل لم يخطط له ، ونصيب تلك التي تحت ابطها حقيبة المدرسة لا يختلف ــ فى رأيي ــ عن تلك التي حرمتها ، لان هذه وتلك يتفقان ــ رغم اختلافهما بالنسبة للامية ــ فى اللاثقافة، ذلك ان الثقافة اوسع من المعرفة ، وهي عند ما تشيع فى امة لا تكون وقفا على فرد دون آخر ، فهي تتصل بالاخلاق ، والذوق ، والتقنية والمنطق العملي ، وتلك امور لا تضمنها الشهادات المدرسية .

وان الفتاة المتعلمة فقدت ذلك النوع من التوازن الذي يوجد لدى الامية ، عند ما تحررت من التقاليد وانطلقت تزاحم الرجل معلنة شخصيتها بمظاهر مختلفة ، غير انها لم تستطع ان تحظى بتوازن ايجابي، بل ظلت حائرة مضطربة ،وعند ما عجزت عن الاستقرار الثقافي ، حاولت ان تتناسى ــ كالرجل ــ الشعور بضرورة ايجاد توازن خلاق ، وبدافع النزعة الى السهولة التي تتمثل فى الشعوب « اللاثقافية » او التي تعاني ما يسميه استاذنا الفيلسوف مالك بن نبي مرض القابلية للاستعمار ــ بذلك الدافع فضلت المرأة ــ كالرجل عندنا ــ الاستمرار فى هذا الغموض الذي نسميه نهضة ، وقد نشأ هذا الموقف المضطرب نتيجة تحريفنا لمعنى الثقافة « والحقيقة اننا منذ خمسين سنة نعرف مرضا واحدا يمكن علاجه هو الجهل والامية ، ولكننا اليوم اصبحنا نرى مرضا جديدا مستعصيا هو التعالم وان شئت فقل الحرفية فى التعلم ، والصعوبة كل الصعوبة فى مداواته » (※) وهكذا اصبحنا نعاني مشكلة حامل المرقعات البالية وحامل اللافتات العلمية ، واذا كان من الممكن علاج الفقر فان من الصعوبة علاج الجهل المركب .

ولا لوم عندي على المرأة فى فهمها ان تقليد الغربيات فى الاشكال الخارجية من حياتهن هو الحضارة لان المحيط الخاص الذي كان بيده توجيهها كان حرفيا فى الثقافة .

وبينما كان قادة الامم المتحضرة حديثا ــ كالصين واليابان ــ يقومون بتجربة ثقافية حضارية تبعث على الاعجاب كنا نحن نعتمد على العموميات والثرثرة والبيان وتشجيع النزعة الى السهولة وفى لحظة وجيزة كانت تتم عملية « تعميد » الافراد لكي ينتقلوا من التاخر الى الحضارة وهكذا صرنا نكون او « نفبرك » المتحضرين على الطريقة الشائعة بالتكوين السريع الذي هو فى الواقع التهديم السريع والعرقلة للنمو والتطور نحو الغاية المنشودة .

ولكي تتم عملية تربية الفرد ثقافيا ، بالمعنى السابق ، يجب ان تزود المرأة بالفكرة الاسلامية البناءة لان فى اهمال صياغة المرأة ايدلوجيا تعريض الاجيال المقبلة للخطر ، لاننا نعتقد ان البيت هو المدرسة الاولى والاساسية لتكوين المواطن الصالح ، الذي ينبغي ان لا نعتمد على الصدف لتكوينه ، لان المرأة هي القادرة وحدها على هذا التكوين ، وكل محاولة تجهل هذه الحقيقة البديهية او تتجاهلها فهي فاشلة البداية والمصير .

ويجب ان يتم التكوين الثقافي للمرأة على اساس الفكرة الاسلامية ، تلك الفكرة التي ستجد فيها «امرأتنا الجديدة» من الحقوق والمكاسب ، والاستقرار النفسي والاجتماعي ما لا تظفر به فى أي فكرة اخرى .

وان الامل وطيد فى « المرأة الجديدة » اذا هي انطلقت على هدى من الفكرة الاسلامية ، لانها اخذت نصيبا من التعلم ، وتستطيع ان تقوم بدور عظيم في بناء الحضارة الاسلامية التي هي المخلص الوحيد لمشاكلنا التي نعانيها .

واذا كان الرجال المسؤولون ايضا عن الفكرة الاسلامية قد قصروا كثيرا فى خدمة الفكرة فى حياتنا الجديدة فان ذلك لن يكون مدعاة للمرأة كي تسلك سبيل اللامسؤولية ، بل ينبغي ان تدرك ، بوعي ، دورها فى نشر الوعي الاسلامي وصياغة الاجيال على اساس ذلك الوعي .

※) من كلام مالك بن نبي فى كتابه ، شروط النهضة ومشكلات الحضارة .

واظن ان لنا نخبة متعلمة تستطيع ان تقود نفسها بنفسها ، وان تضطلع بمهمة تفهم الرسالة الاسلامية ، وتجديد الميثاق والمبايعة للفكرة الاسلامية والانطلاق بمشعل الحضارة الاسلامية لانارة طريق اجيالنا .

وقد آن للمراة ان تبرز شخصيتها الاسلامية بعد ما اصبحت هذه الشخصية مهددة بتيار « التغريب » الذي يدفع بالمراة دفعا نحو مشاكل معقدة اخطر بكثير من تلك التي كانت تعانيها امها وجدتها ، وبالفعل فان بعض اللواتي « تغربن » اصبحن يعرفن ويعانين هذه المشاكل ، ولذلك ينبغي على المسؤولة عن اجيالنا ان تتراجع عن هذا الاستسلام لبعض مظاهر الحضارة الغربية التي تسوقنا جميعا ، سوقا نحو مصير لا اختيار لنا فيه .

ولن تكون المراة عندنا باقل وعيا من بعض الاوربيات اللواتي ادركن خطورة الهوة السحيقة التي تدفع اليها سيآت الحضارة الجديدة فقمن بعملية انقاذ عن طريق تكوين جمعيات ثقافية واخلاقية ، وقد زرت بعض تلك الجمعيات ووقفت على اهمية العمل الخلاق الذي يتمثل في هذا الاتجاه .

ان الظروف الاجتماعية والاخلاقية التي نحياها ، ونلمس جميعا خطورتها تتطلب ، بالحاح ، تدخل « الام » لانقاذ الامة من الداخل ؛ من البيت ، وان ما تقدمه عاطفة المراة المؤمنة ، وحنانها ، ورقتها ، واخلاصها ودموعها ، وصوفيتها ، من خدمة للمجتمع ليفوق بكثير خدمات المفكرين والفلاسفة .

ولسنا من القائلين :

كتب القتل والقتال علينا

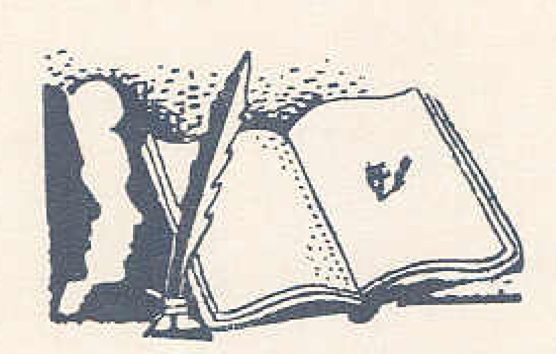
وعلى الغانيات جر الذيول

وانما نقول ما قاله خالق المراة ومكرمها : الله تعالى :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله » .

فهل ستلعب « المراة الجديدة » دورها التاريخي الطبيعي في بناء الحضارة الاسلامية في هذا العالم المتعطش للاستقرار والسلام ؟ .

تطوان ـ عبد السلام الهراس



قبس فولتير من القرآن

زاديك وسورة الكهف

للدكتور : زكي المحاسني

الدكتور زكي المحاسني ، حاصل على دكتوراه الدولة فى الآداب بدرجة التفوق من الجامعة المصرية عام 1947 .

كان استاذا لكرسي الادب العربي فى كلية الآداب بجامعة دمشق .

تم مستشارا ثقافيا للسفارة السورية بالقاهرة .

فوكيلا للجنة التربية والتعليم بوزارة التربية والتعليم السورية .

ثم مديرا لتخطيط التعليم العالي بوزارة التربية والتعليم المركزية بالقاهرة ابان الوحدة .

تم مديرا للتراث القديم ودائرة المعارف بوزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق الآن .

له من المؤلفات المطبوعة اربعة عشر كتابا ، وله ستون بحثا فى المجلات العربية الكبرى لم تنشر فى كتب بعد .

رائعة كتبه (شعر الحرب فى ادب العرب فى العصر الاموي والعباسي الى عهد سيف الدولة) وهو مرجع شعر الحماسة والملاحم فى كليات الآداب بالقاهرة وبغداد ودمشق .

آخر كتبه عن (أحمد أمين) وهو محاضرات القاها على طلاب الماجستير والدكتوراه فى معهد الدراسات العربية العليا بالقاهرة فى يناير 1963 .

وله كتاب (أساطير ملهمة) رهن الطبع بدار المعارف ببيروت ، كتب فيه بشعره اروع أساطير الحب والحرب عند الاغريق واضفى عليها تاملاته النفسية .

ما كنت احسبني افرغ من العجب العجاب ، كلما مر بخاطري الكلام على قصة (زاديك) التي كتبها فولتير سنة 1748 ، وقد اختلب بها دنيا القصص الغربي حين طبعها بمياسم المشرق ، وخلع عليها تحاسين الآفاق القديمة التي جللت عصور بلادنا فيما انسرح من الدهر .

لكأني ارى الساعة من خلال تلك الرواية الفولتيرية الوزير « زاديك » وقد هام على وجهه تحت كل نجم ، خارجا من نينوا وبابل ، بعد ان اتهم بعشق الملكة ، وكان بريء الفؤاد من سوء القصد ، ومغسول النفس من الغش والكذب . لكن الوشاة هم الذين عكروا على عمره الصفو ، واجلوه عن بلده الطيب ، وفرقوا شمله وكان جميعا باهليه وعمله العظيم .

ولقد نجمت في حياته كوارث واهوال شداد ، كان لا يكاد يثبت لاحدها الجبل ، لكن عقله الرشيد وقلبه الطاهر ، وثباته على قوارع الحدثان ، مكنه من الفوز في مغامراته التي تضؤل دونها التهاويل ، وتصغر الصروف ، مهما تكن عسيرة وحادة ، وذات مراس .

وقد قلب « فولتير » نظره في خوارق العالم ، فالبس « زاديك » اثقلها واعظمها . وجعله يفوز بالنجاة منها ، مقرون السعد بالنجح والاقبال .

كان اذا خرج من مازق تلقفته فتنة . رأى رجلا يهم بذبح امراة وهي تستغيث ، ولما اقبل عليهما استنجدت به معولة ، فخف اليها ، واذا الجاني ينهض عنها ليغرز خنجره في صدره ، فيدفع الحكيم الصابر الجاني ، والجاني يتواقع بالفتك عليه ، حتى يقتله زاديك ناجيا بنفسه ، وقد خلص المراة المستغيثة ، التي هبت تتشبث به صارخة مولولة :

— قتل عاشقي ، امسكوا به فاقتلوه .

فيفر وقد ضمته الفلوات وملت منه الدروب ، حتى يحل بلد الثري « اوغل » ذلك السمين الحبين البطن ، الذي كان يقتله كل يوم شحمه ولحمه ، الا الدماء تصاعد في لهيث انفاسه ، وقد وصف له أحد المشعوذين « الحرذون الطائر » لشفائه ، فساق سكان البلد بماله للبحث عن الحرذون ، في كل سهل وحزن ، وكل بقعة ودارة ، وحين جاز بهم « زاديك » وجدهم ركوعا يبحثون في الثرى ، فسالهم خبرهم فقالوا :

— نريد الحرذون الطائر ، لشفاء حاكمنا ..

وكان هذا الحيوان خرافيا اسطوريا ، فادرك فيلسوف المغامرات ما يخلص الناس في تلك المدينة ، فانحنى يبحث معهم ، وبغتة صرخ :

— وجدته ، وجدته ! .

وجعل يطلب ان يحضروا له كيسا من جلد ، وقد خبأ ما وجده بين يديه ، وحين وضعه في الكيس احكم سده ، وطار الخبر في الارض ، حتى مثل بين يدي الرجل الضخم المنفوخ ، فقال له :

— سيدي ، وجدت شفاءك ، عليك ان تمخض هذا الكيس ثلاث مرات كل يوم ، وكل مرة ساعتين ، حتى يطير الحيوان من جوف الكيس وهو مغلق .

وكانت الحقيقة ان زاديك التقط حجرا كلسيا من الارض ، ووضعه في كيس الجلد ، فاخذ ذلك السمين الكبير يمخض الحجر كل يوم ، فيتعرق ويتفصد ماء جسمه فيذوب لحمه وشحمه ، على مسيرة الايام والشهور ، حتى ذاب الحجر من احتكاكه بالجلد ، واصبح وقد طار من الكيس ، وطار معه كرش صاحبه ، وعاد الى خفة جسمه ، ورهافة لحمه .

في هذه القصة الكبيرة التي تعددت مشاهدها ، يعرض علينا فولتيير عجيبة من ضرب آخر ، وتلك امراة شاهدها زاديك جالسة عند قبر جديد ، وبيدها مروحة ، فهي تكب بهوائها على القبر ، فسالها السائح المشرد :

— ما ذا تصنعين . ؟

— اجفف تراب القبر .

— وفيم تصنعين ؟

— لقد شرط علي زوجي صاحبه ان لا اتزوج من بعده أحدا حتى يجف تراب قبره ! . .

اما العجيبة الكبرى التي اردتها لهذا المقال ، فهي التقاء زاديك بناسك متبتل يعرض عليه صحبته فيشترط الناسك عليه ان لا يساله عن امر تفسيرا مهما يشاهد منه من الغرائب ، فيحلف زاديك يمين الصمت بحق « اوروزماد » .

كان الناسك ذا لحية تصل الى زناره ، وبيده « كتاب القضاء » يديم النظر اليه ، فسار معا حتى ادركهما الجوع ، فطرقا قصر رجل من الأثرياء ، ففتح لهما الخدم الباب على مصراعيه ، وادخلوهما بترحاب كبير ، واطعمهما صاحب القصر ما يشتهيان ، ثم وقف الخدام يصبون على ايديهما الماء ، في طست من الذهب مرصع بالاحجار السابية .

وبعد انصرافهما تبين لزاديك ان الناسك سرق الطست ، وها هو ذا يظهر طرفه في جيبه الوسيع ، فلم يجرؤ على سؤاله ، لكنه حار في امره .

وفي مساء اليوم الثاني ، اجهدهما الجوع ، فطرقا باب تاجر كز بخيل ، فطردهما خادمه ، وبعد لأي ادخلهما الى الاصطبل ، وقدم اليهما زيتونا فاسدا وخبزا جافا عفنا ، ولما انصرفا ، دفع الناسك للرجل البخيل المقيت ذلك الطست الذهبي كفاء ضيافته الخبيثة ، فطار عقل زاديك ، ولم يستطع كلاما بعد قسمه .

ثم بلغا دارا حسنة السمت ، وقد انس بهما صاحبها ايما انس مع التكريم ، ولما ارادا الخروج منها صب الناسك على اثاثها النفط واشعلها ، وانطلق بصاحبه فثار زاديك وصرخ به :

ــ ايها المرهق الجاحد ، بل ايها الظالم النكد ! .

ثم اطبق فمه ، منطويا على صبره .

وباتا عند امراة ايم تعيش مع ابن اخيها الشاب ، فلم يكن من الناسك الا ان رمى ذلك الفتى في النهر ، بعد ان سحبه من شعره ، وتركه يغوص .

فصرخ زاديك برفيقه الجبار :

ــ بالك وحشا ، وبالك مجرما ذميما .

فقال له الناسك :

ــ انما وعدتني الصمت والصبر ، فاعلم ان تحت الدار التي اشعلتها كنزا عظيما ظفر به صاحبها ، وان القدرة الالهية الهمتني اغراق الفتى لانه لو عاش لقتل عمته ، بعد عام ، شر قتلة .

فصاح به زاديك :

ــ ايها الهمجي المتوحش ...

وفيما كان يصرخ به تناثرت لحيته ، وذابت ، واستحال رداؤه السابغ الى اجنحة اربعة ، فطار بها واخذ يعلو في الجو . وكان زاديك ينظر اليه ، فاغرا فاه من الدهش ، وصوت الملاك يترامى اليه ، ناغما حنونا ، يقول له :

ــ امض في طريقك ، نحو بابل .

كذلك اخذني العجب العجاب ، اذ اكتشفت اقتباس فولتير من القرآن ، من سورة (الكهف) ، اروع فصل في قصته « زاديك » حين التقى موسى بالخضر بعد ان جاع وفتاه ، وقد اتخذا سبيلهما في البحر سربا ، (فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما ; قال له موسى هل اتبعك على ان تعلمني مما علمت رشدا ; قال انك لن تستطيع معي صبرا ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ، قال ستجدني ان شاء الله صابرا ولا اعصي لك امرا . قال فان اتبعتني فلا تسئلني عن شيء حتى احدث لك منه ذكرا) ...

(فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله قال اقتلت نفسا زكية بغير نفس . لقد جئت شيئا نكرا) ..

(قال الم اقل لك انك لن تستطيع معي صبرا) ..

(فانطلقا حتى اذا اتيا اهل قرية استطعما اهلها فابوا ان يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد ان ينقض فاقامه ، قال لو شئت لتخذت عليه أجرا) (قال هذا فراق بيني وبينك سانبئك بتاويل ما لم تستطع عليه صبرا) (اما الغلام فكان ابواه مؤمنين فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا فاردنا ان يبدلهما ربهما خيرا منه زكوة واقرب رحما)

(واما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان ابوهما صالحا فاراد ربك ان يبلغا اشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن امري ذلك تاويل ما لم تستطع عليه صبرا) .

ولست اشك ان فولتير حصل على ترجمة للقرآن الكريم في عصره ، اذ كان القساوس اللاتين قد قاموا بترجمته في اواسط اوربا وايطاليا ، فوجد فولتير هذه الرائعة الشرقية ، زينة للفصل العاشر من قصته الغريبة .

وكذلك كانت آثارنا الاسلامية والعربية بمثابة التفتح الغربي ، كما اقتبس دانتي الليغري شاعر الطليان الكوميديا الالهية من رسالة الغفران لابي العلاء المعري .

ولقد كنت اذكر هذا ، وادبره في خاطري ، وانا اجوز بلاد الطليان عام 1961 ، وبخاصة في فلورانسا ، حين كانت صور الاملاك منشورة الاجنحة تزين جدران المتاحف ، بصناعة المبدع العظيم ميخائيل آنجيلو ، بمنقاشه الساحر ، وريشته الرائعة .

وحين كنت بباريس ، ذلك العام ، زرت جامعة السوربون ، ووقفت في باحة من باحاتها انظر بشوق وانفرس في وجه فولتير بتمثاله الجاثم هناك سجين

الايام والليالي ، السادر بابتسامته الهازلة التي يمر الزمان حولها ، وهي لا تتبدل بافترارها ، فذكرت امامه ، كيف تناول اجمل سانحة من سوانح القصص في سورة الكهف من القرآن الكريم ، ووضعها في قصته « زاديك » .

وكنت انتوي كتابة هذا الفصل ، منذ ذلك اليوم لاقول لفولتير :

— ويحك ايها الحكيم الكاتب ، لقد قبست من القرآن اجمل قصة عند اروع بيان .

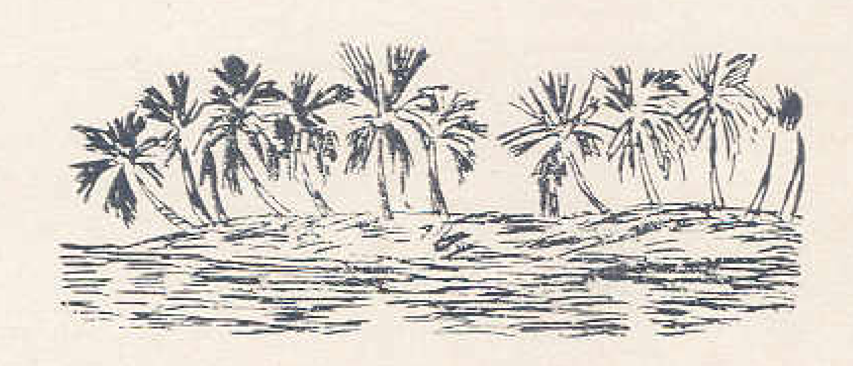
ساذكر « زاديك » وانا افكر في الحياة والحب ، والاسفار والاشعار ، وفي اخلاق المراة ايضا ، واعجب لدولاب الحظوظ كيف يدور في نصيب الانسان ، مثلما دار في حظ زاديك ، فقلبه بين الشقاء والهناءة ، وارى الى صراع القلب مع العقل ، فاجد هذا الواعي الحصيف الذي استقر على رؤوسنا كيف يفكر ويبحث ويتامل ثم اهبط الى قفص الصدر ، فاحس بخفقات الفؤاد ، وهو يبث الحب والبغضاء ، والشجاعة والخوف ، وتنتابني الذكريات ، ثم احبو نحو الشطآن العربية البعيدة من دارات عبد شمس في المغرب وانا اردد فيها ابياتا بالشوق اليها :

من شعري على شطوط المغارب

فؤادي فيها لدى الف صاحب

وكذلك اجدني متحدثا عن فولتير وقصته الخالبة من اجل مجلة (دعوة الحق) المراكشية ، وكان فولتير لبقا في ادبه ، ورائعا في فنه ، وكان منسرحا في خياله ومقالـــه .

دمشـق : الدكتور زكي المحاسني





بقلم : الدكتور جمال الرمادي

يعتبر ابن جرير الطبري من اشهر المؤرخين العرب الذين كتبوا تاريخ العرب منذ العصور الاولى حتى قبيل وفاته في القرن الرابع الهجري، كما يعتبر من عمالقة المفسرين لآيات القرآن الكريم واصحاب التفاسير المشهورة في عالم التفسير ، واخذ عنه كثير من المفسرين ، واستشهدوا بآرائه. وكان ابن جرير الطبري اماما في فنون كثيرة منها التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغير ذلك وله مصنفات نفيسة في علوم عديدة تدل على سعة علمه وغزارة فضله وكان من الائمة المجتهدين وله شعر حسن جاء فيه :

اذا عسرت لم يعلم شقيقي ... واستغني فيستغني صديقي
حيائي حافظ لي ماء وجهي ... ورفقي في مطالبتي رفيقي
ولو اني سمحت ببذل وجهي ... لكنت الى الغنى سهل الطريق

وقد عكف الطبري منذ نعومة اظفاره على تلقي العلم من العلماء والفقهاء ، وطالع الوانا مختلفة من كتب الادب والفقه واللغة ، ولد في طبرستان عام 224هـ ، وقد وقع الشك في تاريخ ولادته غير ان هذا التاريخ هو المذكور في اغلب المراجع وتحدث ابو جعفر الطبري عن حداثته فقال : « حفظت القرآن ولي سبع سنين وصليت بالناس وانا ابن ثمان سنين ، وكتبت الحديث وانا ابن تسع ، كما قال ورأى لي ابي في النوم انني بين يدي رسول الله (ص) ، وكانت معي مخلاة مملوءة حجارة وانا ارمي بين يديه ، فقال له المعبر « انه ان كبر نصح في دينه ، وذب عن شريعته ، فحرص ابي على معونتي في طلب العلم وانا حينذاك صبي صغير » وصدقت الرؤيا ، وغدا ابن جرير الطبري اماما من ائمة التفسير والتاريخ ، وقد طوف الطبري في شتى الاقطار والامصار ، فرحل الى الري وما جاورها من الاصقاع ، واخذ عن اقطابها وفقهائها ، ودرس فقه العراق على ابي مقاتل وكتب عن احمد بن حماد الدولابي كتاب المبتدأ ، واخذ مغازي ابن اسحاق بن سلمة بن الفضل ، وعليه بنى تاريخه فيما بعد ، ثم اختص بابن حميد الرازي ، وقال الطبري : كنا نكتب عن محمد بن حميد الرازي فيخرج الينا في الليل مرات ويسألنا عما كتبناه ويقرؤه علينا ، قال : وكنا نمضي الى احمد بن حماد الدولابي وكان في قرية من قرى الري بينها وبين الري قطعة ثم نعدو كالمجانين حتى نصير الى محمد بن حميد فنلحق مجلسه » .

ورحل الى بغداد حيث كان في نيته التتلمذ على الامام احمد بن حنبل ، غير ان انباء وفاة ابن حنبل وصلته قبل مقدمه الى بغداد فحزن حزنا شديدا على وفاته ، واتجه صوب البصرة حيث اتصل بمحمد بن موسى الحرشي وعماد بن موسى القزاز ، ومحمد بن عبد الاعلى الصنعاني ، وبشر بن معاذ وغيرهم من العلماء وذوي الرأي ، واتجه صوب الكوفة حيث اتصل بهناد بن السري ، واسماعيل بن موسى واخذ عنهما الحديث كما اتصل بسليمان بن خلاد الطلحي واخذ عنه القراءات وقابل ابا كريب محمد بن العلاء الهمداني ، وكان من ائمة العلماء في هذه الفترة وذهب الى بيروت حيث اتصل بالعباس بن الوليد البيروتي المقري ، والى الفسطاط حيث التقى بابي الحسن السراج المصري وكان اديبا ملما بفنون الكلام ، وكان الناس يأتون الى الطبري يسألونه عن فنون الفقه والحديث واللغة والنحو والشعر فيجيبهم اجابة وافية شافية ، وسئل عن شعر الطرماح فاذا هو يحفظه ، فسئل ان يمليه ويشرح غريبه فاملاه عند بيت المال الجامع ، والم ابن جرير الطبري بعلم العروض بعد ما كان لا يتقنه ، ويروي الخطيب البغدادي قصة طريفة وقعت لابن جرير في مصر جاء فيها : جمعت الرحلة بين محمد بن جرير ومحمد بن اسحاق بن خزيمة ومحمد بن نصر المروزي ومحمد بن هارون الروياني بمصر فارملوا ولم يبق عندهم ما يقوتهم واضر بهم الجوع ، فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون اليه ، فاتفق رأيهم على ان يضربوا القرعة ، فمن خرجت عليه سأل لاصحابه الكلام فخرجت القرعة على محمد بن اسحاق بن خزيمة، فقال لاصحابه : امهلوني حتى اتوضأ واصلي صلاة الخيرة ، قال فاندفع في الصلاة فاذا هم بالشموع وخصي من قبل والي مصر يدق الباب ، ففتحوا الباب فنزل عن دابته فقال : ايكم محمد بن نصر ، فقيل هو ذا ، فاخرج صرة فيها خمسون دينارا

فدفعها اليه ثم قال : ايكم محمد بن جرير ، فقالوا هو ذا ، فاخرج صرة فيها خمسون دينارا فدفعها اليه ، ثم قال ايكم محمد بن اسحاق بن خزيمة ، فقالوا هو ذا يصلي ، فلما فرغ دفع اليه الصرة وفيها خمسون دينارا ، ثم قال ان الامير كان قائلا بالامس فرأى في المنام خيالا قال ان المحامد طووا كشحهم جياعا فانفذ اليكم هذه الصرار واقسم عليكم اذا نفدت فابعثوا الى احدكم ، وذكر ابن عساكر انه لما تقلد الخاقاني الوزارة وجه الى ابي جعفر الطبري بمال كثير فامتنع عن قبوله وعرض عليه القضاء فابى ، وعرض عليه المظالم فامتنع ، فعاتبه اصحابه وقالوا له ، لك في هذا ثواب ، وتحيي سنة قد درست وطمعوا في قبوله المظالم ، وباكروه ليركب معهم لقبول ذلك فانتهرهم ، وقال لقد كنت اظن لو رغبت ذلك لنهيتموني عنه ولا مهم • ويروى عن الطبري انه كان يكتب من الظهر الى العصر ، وكان يجلس للناس يقرىء ويقرأ عليه الى المغرب ، ثم يجلس للفقه والدرس بين يديه الى عشاء الآخرة ، ثم يدخل منزله ، كما كان الطبري شديد العناية بمظهره ، ويروى انه كان يكره تفضيل احد تلاميذه على سائرهم ، فلو لم يستطع طالب الحضور ذات يوم اجل الطبري مجلسه الى ان يتاح له الحضور في ميعاده ، وكان مغرما باقتناء الكتب النادرة والذخائر النفيسة ، ويروي وراق ان الطبري التمس منه اذا عزم على تأليف رسالة من القياس ان يجمع له ما امكنه من الكتب فجمع له الوراق نيفا وثلاثين كتابا فاقامت عنده مدة مديدة ثم ردها وفيها علامات بحمرة ، ويذكر القاضي ابوجعفر التنوخي المعروف بابن بهلول المتوفى عام 318 ﻫ ان الطبري لم يكن يستحق الشهرة وذيوع الذكر الذي ظفر به اذ حدث ان التقى به في جنازة واشتبكا في حوار ، وكشف كلاهما عن معرفة في الادب ، بيد انه عندما التقى به مرة اخرى انتهز التنوخي الفرصة لاختبار الطبري ، فكلما ذكر قصيدة وطلب اليه ان ينشدها كاملة حذف منها ابياتا كثيرة وتلعثم كثيرا ، ويبدو ان هذه القصة لا تنقص من قدر الطبري المؤرخ ، وقد انتقل الطبري الى جوار ربه عام 310 ﻫ ، فحزن عليه تلاميذه حزنا شديدا وشيعه اناس كثيرون وذكر ياقوت في معجمه انه قيل في شأنه ، كان كالقارىء الذي لا يعرف الا القرآن ، وكالمحدث الذي لا يعرف الا الحديث ، وكالفقيه الذي لا يعرف الا الفقه ، وكالنحوي الذي لا يعرف الا النحو ، وكالحاسب الذي لا يعرف الا الحساب ، وكان عالما بالعبادات جامعا للعلوم ، واذا جمعت بين كتبه وكتب غيره وجدت لكتبه فضلا على غيرها ، وروي عن ابن حامد الاسفراني الفقيه انه قال لو سافر رجل الى الصين حتى يحصل على كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيرا ..

اما في علم الحديث فقد صنف الطبري كتاب (تهذيب الاثار) ووصفه ابن عساكر بانه من عجائب كتبه وذكر النووي في كتاب تهذيب الاسماء واللغات انه في طبقة الترمذي والنسائي ، وقد الف الطبري كتاب آداب المناسك ويتناول الاعمال التي يقوم بها الحاج منذ خروجه حتى انقضاء حجه ، وكتاب آداب النفوس ، وكتاب بسيط القول في احكام شرائع الاسلام ، وكتاب اختلاف علماء الامصار ، وكتاب الخفيف في الفقه ، وكتاب التبصير في معالم الدين ، وكتاب حديث الطيري ، وغير ذلك من الكتب ، اما كتاب تاريخ الرسل والملوك فيعد من اشهر مؤلفات الطبري بعد تفسيره ، ويظهر انه الفه بعد التفسير ، وقد بدأه بتاريخ آدم ومن جاء بعده من الانبياء والرسل على ترتيب ذكرهم في التوراة مع تعرض للاحداث التي جرت في هذه الايام ، وانتهى من تاريخه في يوم الاربعاء لثلاث بقين من شهر ربيع الاول عام ثلاث وثلثمائة ، وجرى الطبري في تاريخه على النهج الذي اتخذه المحدثون ، وذلك بان يذكر الحوادث بمقدار ما عنده من الطرق ، ويذكر السند حتى يصل بصاحبه ، وقال في صدر تاريخه موضحا منهجه ، (وليعلم الناظر في كتابنا ان اعتمادي في كل ما احضرت ذكره منه مما شرطت اني راسمه فيه انما هو على ما رويت من الاخبار التي انا ذاكرها فيه ، والاثار التي انا مسندها الى رواتها دون ما ادرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس الا اليسير القليل منه ، اذا كان العلم باخبار الماضين وما هو كائن من انباء الحادثين غير واصل الى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم الا باخبار المخبرين ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس ، فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه او يستشنعه سامعه من اجل انه لا يعرف له وجها من الصحة ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم انه لم يؤت في ذلك من قبلنا وانما اتى في بعض ناقليه الينا انا وانما ادينا ذلك على نحو ما ادى الينا ، وقبل ان يمضي ابن جرير الطبري في سرد تاريخه تعرض للزمان وابتدائه وانتهائه ، والقول في الابانة عن فناء الزمان ، والليل والنهار ، وان لا شيء يبقى غير وجه الله تعالى ذكره ، والقول في ابتداء الخلق وما كان اوله ، وسرد في هذا احاديث شتى ، ووضح ان القلم اول ما خلق الله تعالى ، ومن الاحاديث التي ذكرها في هذا الصدد قال : حدثنا محمد بن المثنى قال ، حدثنا ابن ابي عدي عن شعبة عن سليمان عن ابي ظبيان عن ابي عباس قال : اول اول ما خلق الله من شيء القلم فجرى بما هو كائن ، ثم قال ان الله جل جلاله خلق بعد القلم وبعد ان امره فكتب ما هو كائن الى قيام الساعة سحابا رقيقا وهو الغمام الذي ذكره جل وعز في محكم كتابه فقال : (هل ينظرون الا ان يأتيهم الله في ظلل من الغمام) وذلك قبل ان يخلق عرشه وبذلك ورد الخبر عن رسول الله (ص) ، وتعرض الطبري في تاريخه الى الوقت الذي خلق فيه آدم عليه السلام ، والوقت الذي اهبط فيه الى الارض ، وذكر بعد ذلك احاديث مختلفة ثم تعرض للموضع الذي اهبط آدم وحواء الى الارض حين اهبطا اليها ، وذكر الاحداث التي كانت في عهد آدم عليه السلام بعد ان اهبط الى الارض وتعرض للانبياء والمرسلين حسب

ظهورهم واداء رسالتهم . وفي القسم الاسلامي ، رتب الحوادث من عام الهجرة حتى عام 302 هـ ، وذكر في كل سنة ما وقع فيها من الاحداث المذكورة والايام المشهورة والوقائع الكبيرة والصغيرة ، وقد وجدت نسخ مخطوطة من تاريخ الطبري في مكتبات الاستانة وباريس وتوتنجيد والمتحف الهندي ومكتبة لندن وجامعة استراسبورج ومكتبة برلين ، ومكتبة الجمعية الاسيوية في مدينة كلكتا ، وغيرها من المكتبات العالمية ، وبعض هذه النسخ كاملة مستوفاة ، والبعض الآخر يضم اقساما من هذا التاريخ ، وقد توفر على دراستها عدد كبير من المستشرقين من مختلف الجنسيات : نذكر منهم بارث ولولوكه ولوث ، وجودي ومولر ، وغيرهم كما ترجمت اجزاء كثيرة من هذا التاريخ الى الانجليزية والفرنسية والالمانية وغيرها من لغات العالم ، وللطبري غير كتابه في التاريخ تفسيره المشهور المسمى (جامع البيان عن وجوه تاويل آي القرآن) ، ويتراءى في هذا الكتاب ولع ابن جرير الطبري بعلم التفسير وتفننه في توضيح مكنونات البلاغة والبيان وروائع الحكم والاسرار في كتاب الله العزيز ، وكان ابن جرير الطبري يقول (اني لاعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تاويله كيف يلتذ بقراءته ، والملاحظ على تفسير الطبري كثرة الفصول في عباراته وتباعد اطراف الجمل فلا يسلم المعنى حتى يعاود القارئ قراءته مرة ومرة ، ومن يرجع الى كتب التفسير يجد ان بعضها ينقل عنه ، وقد ينسب اليه ما يوجد في كتابه ، ولعل ذلك يرجع الى بعض الجمل المبهمة الموجودة في التفسير التي ربما اخطأ المفسرون مراد ابن جرير الطبري ، ويلاحظ ان ما طبع من تفسير الطبري فيه كثير من التصحيف والتحريف وتجد فيه كثيرا من العبارات المصحفة او المحرفة ، ولعل هذا يرجع الى المخطوطات البالية وضخامة الكتاب والحاجة الى مراجعة عشرات الكتب ابتغاء التحقيق والتدقيق وطول الصبر وشدة الروية والاناة ، والنسخ المخطوطة من تفسير الطبري لا تكاد توجد ، والذي يوجد منها في دار الكتب اجزاء مفردة من الجزء الاول والجزء السادس عشر ومنها مخطوطة واحدة كانت في خمسة وعشرين مجلدا ضاع منها الجزء الثاني والثالث وهي قديمة غير معروفة التاريخ ، ونقل عن ابن جرير الطبري السيوطي في الدر المنثور ، والشوكاني في كتابه (فتح القدير)، اما ما جاء في النحو والصرف فقد نقل عنه ابو عبيدة في (مجاز القرآن) والفراء في معاني القرآن ، ويقال ان الطبري كان يقول انه حدث نفسه بهذا التفسير وهو صبي واستخار الله في عمله فاعانه الله سبحانه ، ثم لما اراد الله ان يملي تفسيره قال لاصحابه اتنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا كم يكون قدره ؟ فقال ثلاثون الف ورقة ، فقالوا هذا مما تفنى منه الاعمار قبل تمامه ، فاختصر لهم في ثلاثة آلاف ورقة فكان هذا الاختصار سببا في تركه البيان الكثير ، وهذا الاختصار واضح جدا لمن يتتبع هذا التفسير من اوله الى آخره وهو يدعو الله للتوفيق في اصابة القول في محكم القرآن ومتشابهه وحلاله وحرامه ، وعامه وخاصه ، ومجمله ومفسره ، وناسخه ومنسوخه ، وظاهره وباطنه ، وتاويل آيه ، وتفسير مشكله ودعا الله ان يلهمه التمسك به والاعتصام بمحكمه والثبات على التسليم لمتشابهه واضاف قائلا : (واعلموا عباد الله رحمكم الله ان احق ما صرفت الى علمه العناية ، وبلغت في معرفته الغاية ، ما كان لله في العلم رضى وللعالم به الى سبيل الرشاد هدى ، وان اجمع ذلك لباغي كتاب الله الذي لا ريب فيه) وتنزيله الذي لا مرية فيه – الفائز بجزيل الذكر وسنى الاجر تاليه . الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ونحن في شرح تاويله وبيان ما فيه من معانيه منشئون ان شاء الله ذلك كتابا مستوعبا لكل ما بالناس اليه الحاجة من علمه – جامعا – ومن سائر الكتب في ذلك كافيا ، ومخبرون في كل ذلك بما انتهى الينا من اتفاق الحجة – فيما اتفقت عليه فيه ، واختلافها فيما اختلفت فيه .

وقد اوضح بن جرير الطبري في مطلع تفسيره القول في البيان عن اتفاق معاني آي القرآن ومعاني منطق من نزل بلسانه القرآن من وجه البيان والدلالة على ان ذلك من الله تعالى ذكره هو الحكمة البالغة من الابانة عن فضل المعنى الذي به باين القرآن سائر الكتب .

واوضح ابن جرير الطبري في مقدمة تفسيره منزلة العرب في البلاغة والبيان ، وقدرتهم على الاتيان بروائع البلاغة فقال ان من اعظم نعم الله تعالى على عباده وجسيم منته على خلقه ما منحهم من فضل البيان الذي به عن ضمائر صدورهم يبينون ، وبه على عزائم نفوسهم يدلون ، فذلك منهم الالسن وسهل به عليهم المستصعب فيه اياه يوحدون ، واياه به يسبحون ويقدسون والى حاجتهم به يتوصلون ، وبه بينهم يتحاورون فيتعاونون ويتعاملون ثم وضح ابن جرير الطبري على اثر ذلك ان الله عز وجل جعل الناس طبقات ، ورفع بعضهم فوق بعض ، فبين خطيب مهيب ذلق اللسان مهذب ، ومعجم عن نفسه لا يبين وعيي عن ضمير قلبه لا يعبر ، وجعل اعلاهم فيه رتبة وارفعهم فيه درجة وابلغهم فيما اراد به بلاغا ، ثم عرفهم في تنزيله ومحكم اي كتابه فضل ما حباهم به من البيان على من فضلهم به عليه من ذوي البكم والمستعجمي اللسان ، وفي ذلك يقول الله عز وجل تباركت آلاؤه ، او من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ، بسورة الزخرف آية 18 ففضل بذلك اهل البيان عن اهل البكم والمستعجم اللسان .

وخرج من ذلك ابن جرير الطبري الى قوله انه لا بيان ابين ، ولا حكم ابلغ ، ولا منطق اعلاء ولا كلام اشرف من بيان ومنطق تحدى به امرؤ قوما في زمان هم رؤساء صناعة الخطب

والبلاغة والشعر والفصاحة والسجع والكهانة على كل خطيب منهم وبليغ وشاعر وفصيح ، وكل ذي سجع وكهانة ، فسفه احلامهم وقصر بعقولهم وتبرأ من ربهم ، واخبرهم ان دلالة على صدق فعله ، وحجة على حقيقة نبوته ما اتاهم به من البيان والحكم والفرقان بلسان مثل السنتهم ، ومنطق يوافق معانيه معاني منطقهم ، ثم انبأ جميعهم انهم عن ان ياتوا بمثل بعضه عجزة ، ومن القدرة على تعضيه اثر جميعهم بالعجز ، واعترفوا له بالتصديق ، وشهدوا على انفسهم بالنقص الا من تجاهل منهم وتعامى واستكبر ، فحاول تكلف ما قد علم انه غير عاجز ، ورام ما قد تيقن انه عليه غير قادر ، فابدى من ضعف عقله ما كان مستترا ومن عي لسانه ما كان مصونا فاتي بما لا يعجز عنه الضعيف الاخرق والجاهل الاحمق فقال والطاحنات طحنا والعاجنات عجنا فالخابزات خبزا والثاردات ثردا واللاقمات لقما ونحو ذلك من الحماقات والترهات الكاذبة ، ووضح ابن جرير الطبري ان الله انزل القرآن عربيا لانه جل ثناؤه ارسله بلسان من ارسله اليهم وكل كتاب انزله الله على نبي وكل رسالة ارسلها الله الى امته فانما انزلها بلسان من انزلها او ارسلها اليه ، ولذلك انزل الله تعالى القرآن بلسان محمد (ص) ولما كان لسان محمد (ص) عربيا لذلك جاء القرآن عربيا فقال تعالى (انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) (يوسف) وقال تعالى وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين (الشعراء) 192–195 .

ووضح ابن جرير الطبري ان بعض العلماء يقولون ان في القرآن من كل لسان ولكن ليس معنى هذا ان بعض القرآن عربي والبعض الآخر فارسي او رومي فالقرآن كما قال الله عز وجل عربي نزل بلسان العرب ووضح ابن جرير الطبري ان القرآن نزل على سبعة احرف واستشهد بحديث الربيع قال اسد قال حدثنا ابو الربيع السمان قال حدثني عبيد بن ابي يزيد عن ابيه عن ام ايوب انها سمعت النبي (ص) يقول نزل القرآن على سبعة احرف فما قرأت اصبت وحدثنا اسماعيل بن موسى السدي قال : انبأنا شريك عن ابي اسحاق عن سليمان بن صرد يرفعه قال « اتاني ملكان فقال احدهما : اقرأ قال على كم قال: على حرف قال زده حتى انتهى الى سبعة احرف وحدثنا ابو كريب قال : حدثنا حمد بن فضيل عن اسماعيل بن ابي خالد باسناده عن النبي (ص) بنحوه وقال قال لي اعيذك بالله من الشك والتكذيب وقال ايضا ان الله امرني ان اقرا القرآن على حرف فقلت : اللهم خفف عن امتي قال اقرأه على سبعة احرف من سبعة ابواب الجنة كلها شاف واف كما جاء في حديث آخر ما لم يختم آية عذاب بآية رحمة او آية رحمة بآية عذاب وقد أوضح نص هذا الخبر ان اختلاف الاحرف السبعة انما هو اختلاف الفاظ كقولك علم وتعالى باتفاق المعاني لا باختلاف معان موجبة اختلاف احكام ووضح ابن جرير الطبري في

تفسيره ضرورة الحض على العلم بتفسير القرآن ومن كان يفسره من الصحابة وروى في ذلك جملة من الاحاديث الصحيحة ومثال ذلك حدثنا بن حميد قال حدثنا جرير عن عطاء عن ابي عبد الرحمن قال حدثنا الذين كانوا يقرئوننا انهم كانوا يستقرئون من النبي (ص) فكانوا اذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل فتعلمنا القرآن والعمل جميعا وحدثنا ابو كريب قال حدثنا جابر نوح قال حدثنا الاعمش عن مسلم عن مسروق قال قال عبد الله والذي لا اله غيره ما نزلت آية من كتاب الله الا وانا اعلم فيم نزلت ولو اعلم مكان احد اعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لاتيته . وحدثنا يحيى ابن ابراهيم المسعودي قال حدثنا ابي عن ابيه عن جده عن الاعمش عن مسلم عن مسروق قال كان عبد الله يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار ولذلك كان تفسير القرآن الكريم من اهم الوسائل الى تفهم القرآن عالما وبكلام العرب عارفا اما من كان جاهلا فعليه ان يعلم معاني كلام العرب ثم يتدبره بعد ذلك ويتعظ بحكمه وصنوف عبره ، ووضح ابن جرير الطبري في مقدمة تفسيره الاغلاط التي غلط في تأويلها منكرو القول في تأويل القرآن واستشهد ببعض الاحاديث في ذلك الشأن ومن ذلك حديث محمد بن بشار قال حدثنا بشر بن عمر قال حدثنا مالك ابن انس عن يحيى ابن سعيد قال سمعت رجلا يسأل سعيد ابن المسيب عن آية من القرآن قال : لا اقول في القرآن شيئا ، كما حدثنا يونس قال حدثنا ابن وهب قال اخبرني مالك عن يحيى بن سعيد بن المسيب انه اذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال انا لا اقول في القرآن شيئا وحدثنا ابن المثنى قال حدثنا سعيد ابن عامر عن شعبه عن عبد الله بن ابي السفر قال الشعبي والله ما من آية الا وقد سألت عنها ولكنها الرواية عن الله وحدثني يعقوب بن ابراهيم قال حدثنا ابن عليه عن صالح – يعني ابن مسلم حدثني رجل عن الشعبي قال : ثلاث لا اقول فيهم حتى اموت القرآن والروح والرأي الا ان ابن جرير الطبري وضح ان بعض آيات القرآن الكريم لا يفهم تاويله الا ببيان الرسول (ص) ولا يعلمه رسول الله الا بتعليم الله اياه ذلك بوحيه اليه اما مع جبريل او مع من شاء من رسله فذلك هو الرأي الذي كان رسول الله (ص) يفسرها لاصحابه بتعليم جبريل اياه وهن ولاتك آي ذوات عدد ، ومن آي القرآن ما قد ذكرنا ان الله جل ثناؤه استاثر بعلم تاويله فلم يطلع على علمه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ولكنهم يؤمنون بانه من عنده وانه لا يعلم تاويله الا الله اما ما لابد للعباد من علم تاويله فقد وضح ابن جرير الطبري ان النبي بين ذلك بوحيه من جبريل وذلك هو المعنى الذي امره الله ببيانه لهم فقال جل ذكره (وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم

ولعلهم يتفكرون) سورة النحل آية 33 وقال الطبري ان كل سورة من سور القرآن تجمع على سور ، على تقدير خطبة وخطب ، وغرفة وغرف والسورة بغير همز ، المنزلة من منازل الارتفاع، ومن ذلك سور المدينة سمي بذلك الحائط الذي يحويها لارتفاعه على ما يحويه غير ان السورة من سور المدينة لم يسمع في جمعها (سور) كما سمع في جمع سورة من القرآن سور واما الآية من آي القرآن فانها تحتمل وجهين في كلام العرب احدهما ان تكون سميت آية لانها علامة يعرف بها تمام ما قبلها وابتداؤها كالآية التي تكون دلالة على الشيء يستدل بها عليه كقول الشاعر :

الكني اليها عمرك الله يا فتى ‏ ‏ ‏ ‏ بآية ما جاءت الينا تهاديا

يعني علامة ذلك ومنه قوله عز وجل « ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لاولنا وآخرنا وآية منك (سورة المائدة 114) اي علامة منك لاجابتك دعاءنا واعطائك ايانا سؤلنا والاخر منها ، القصة كما قال كعب بن زهير بن ابي سلمى :

الا ابلغا هذا المعرض آية ‏ ‏ ‏ ‏ ايقظان قال القول اذ قال ام حكم

يعني بقوله آية رسالة مني وخبرا عني ، فيكون معنى الايات القصص ، قصة تتلو قصة بفصول ووصول ، واذا ما اردنا ان نعطي للقارىء نموذجا في فنون الكلام والمامه بضروب التفسير اوضحنا قوله في تفسير الاية الكريمة (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) قال الطبري قال ان هذه الآية تنبىء عن ان جميع الخلق غير مؤاخذين الا بما كسبته انفسهم من ذنب ولا مثابين الا بما كسبته من خير وقيل ان ذلك كذلك وغير مؤاخذ لعبد بشيء من ذلك الا بفعل ما نهي عن فعله او ترك ما امر بفعله ، قال فاذا كان ذلك كذلك فما معنى وعيد الله عز وجل ايانا على ما اخفته انفسنا بقوله (ويعذب من يشاء) ان كان لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت وما اضمرته قلوبنا واخفته انفسنا من هم بذنب او ارادة المعصية لم تكتسبه جوارحنا ؟ قيل له ان الله جل ثناؤه وعد المؤمنين ان يعفو لهم عما هو اعظم مما هم به احدهم من المعاصي فلم يفعله وهو ما ذكرنا من وعده اياهم العفو عن صغائر ذنوبهم اذا هم اجتنبوا كبائرها . وانما الوعيد من الله عز وجل بقوله (ويعذب من يشاء) على ما اخفته نفوس الذين كانت انفسهم تخفي الشك من الله ، والمرية في وحدانيته ، او في نبوة نبيه (ص) وما جاء به من عند الله او في المعاد والبعث من المنافقين ، على نحو ما قال ابن عباس ومجاهد ومن قال بمثل قولهما ان تأويل قوله (او تخفوه يحاسبكم به الله) على الشك واليقين ، غير انا نقول ان المتوعد بقوله (ويعذب من يشاء) هو من كان اخفاء نفسه ما تخفيه الشك والمرية في الله وفيما يكون الشك فيه بالله كفرا والموعود بالغفران بقوله (فيغفر لمن يشاء) هو الذي اخفاء ما يخفيه الهمه بالتقدم على بعض ما نهاه الله عنه من الامور التي كان جائزا ابتداء تحليله واباحته فحرمه على خلقه جل ثناؤه . فان الذي يهم بذلك من المؤمنين اذا هو لم يصحح همه بما يهم به ويحقق ما اخفته نفسه من ذلك بالتقدم عليه ، لم يكن ماخوذا به كما روى عن رسول الله (ص) وهكذا نرى الطبري يعمد الى الاسلوب المعقد في التفسير في بعض الاحيان والى التراكيب التي يحتاج فهمها الى كثير من المشقة بيد انه كان يعمد الى الشعر العربي لتفسير بعض الالفاظ ككلمة (الاكمه) في قوله تعالى في سورة آل عمران (وابرىء الاكمه والابرص) فيقول المعروف عند العرب من معنى الكمه العمى يقال منه كمهت عينه فهي تكمه كمها واكمهتها انا اذا اعميتها كما قال سويد بن ابي كاهل اليشكري :

كمهت عينيه حتى ابيضتا ‏ ‏ ‏ ‏ فهو يلحى نفسه لما نزع

ومنه قول رؤبة :

هجرت فارتدا ارتداد الاكمه ‏ ‏ ‏ ‏ فـي غائلات الحائر المتهته

ويفسر كهلا في قوله تعالى (ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين) فيقول وكهلا اي محتنكا فوق الغلومة ودون الشيخوخة يقال منه رجل كهل وامرأة كهلة كما قال الراجز :

ولا اعود بعدها كريا ‏ ‏ ‏ ‏ امارس الكهلة والصبيا

وهكذا مضى الطبري في تفسيره حتى اتمه وغدا كتابا من اوفر المراجع في علم التفسير ومن التفاسير الهامة التي يرجع اليها العلماء والفقهاء ورجال الدين كتفسير القرطبي وتفسير البيضاوي وتفسير النسفي وتفسير الزمخشري وما الى ذلك من تفاسير .

القاهرة ــ الدكتور جمال الدين الرمادي

ضرورة الدين
لإيجاد ذاتية الأخلاق

للأستاذ: محمد سعيد رمضان البوطي

لست اعني بالخلق هنا (النظرية الاخلاقية) فيما يلوكه لسان الفلسفة ، وانما اقصد الاخلاق الاجتماعية القائمة على مسرح المجتمع باسواقه وشوارعه وحوانيته وملاهيه ومعابده ودوائره .

فهذه الاخلاق لا بد لها من سلطان يفرض على الناس ان يصبوا سلوكهم في معاييرها ويجبرهم على ان يدينوا لها بالولاء وان يحملوا انفسهم عنت الطواعية لهـــــا .

فما هو هذا السلطان ؟

لنفرض اولا ان هذا السلطان غير منبعث من الدين ، فما ذا عسى ان يكون اذا في حقيقته ومصدره ؟

انه لابد ان يكون عندئذ مزيجا من ايحاء المفكرين والمصلحين ، وسطوة الحكام والمسيطرين ، ذلك ان هذين العاملين هما اللذان يتضافران معا ــ بعد ان يسخر ثانيهما الاول في غالب الظروف ــ لتكوين القوالب الخلقية وحمل الناس على صب سلوكهم فيها .

وحينئذ لابد ان تتميز هذه المعايير الخلقية بالصفات التالية :

اولا ــ التاثر باعتبارات البيئة وبالقيم الحضارية والمدنية القائمة في ذلك العصر ، الى جانب احتمال كبير بان تتاثر ايضا بالاغراض والميول الخاصة التي التي لابد ان يصادف وجودها لدى واضعي هذه المعايير .

ثانيا ــ لا يمكن لهذه المعايير ان تجد القناعة الفكرية بها لدى جميع الناس ، وذلك بسبب تباين الاغراض الشخصية التي يتسع لها في العادة طريق عريض الى السيطرة على تلك المعايير وتوجيهها .

ثالثا ــ تمتاز هذه المعايير الاخلاقية بتجردها من قدسية الخلود والبقاء عبر الاجيال ، وتصبح اعمارها قصيرة الامد ، فهي لا تكاد في معظم الاحيان تعايش جيلا واحدا حتى يدب اليها الوهن وتتحطم تحت ضربات اهواء واتجاهات واغراض معاكسة لتلك التي كانت تعتمد عليها من قبل ، والتاريخ لا يضن علينا بالامثلة الكثيرة لهذا التناسخ الخلقي المتوارد على على مختلف انواع السلوك ، فمثال واحد من هذه الانواع كالبغاء الذي يعتبر ذا علاقة شديدة بقضية السلوك والاخلاق ، كشف لنا كيف تسلسلت المعايير المتعاكسة له ، اذ حسبك ان تعلم ان كثيرا من الشعوب المتحضرة في العصور القديمة كالعبريين وقدماء الكنعانيين والبابليين كانوا ينظرون الى البغاء نظرة تقديس ، ويعتبرونه في كثير من الحالات عملا مبرورا يدفع اليه الخلق الحميد .

اما جريمة القتل فما كانت تعتبر امرا ذا بال في كثير من الاحيان لدى دولة مثل روما . . . فقد كان يحق للرجل ان يغمس وليده الجديد في دن عظيمة من الخمر لم ينتشله بعد ثوان ، فان كان قد اختنق مات غير ماسوف عليه ، اذ يدل على انه لم يكن ليصلح للحياة العسكرية المثالية في نظر روما ، اما ان خرج من الدن حيا يختلج فقد اثبت بذلك جدارته للحياة والبقـــاء .

وهكذا يبد والمعنى الخلقي امرا لا حقيقة جوهرية له ، فضلا عن ان تتصف تلك الحقيقة بقدسية الخلود والبقاء ، وانما تصبح كلمة (الخلق) وحدها ــ مجردة عن معناها ــ هي الخالدة فحسب ، اذ تغدو ثوبا فضفاضا متنقلا يكتسي به كثير من انواع السلوك التي قد تكون في مجموعها متضاربة متنافرة .

رابعا ــ ومن شان هذه المعايير الخلقية ان تتحطم السدود القائمة ما بينها وبين الشهوات والاهواء ، اذ

كانت المبادىء الخلقية في اصلها سبيلا للصلح العادل ما بين العقل المتزن والشهوة الهوجاء ، غير ان هذه المبادىء حينما تكون من نسج الكتاب والمفكرين او الحكام والمسيطرين ، لابد ان تتسرب اليها خيوط من الاغراض والاهواء والشهوات نفسها كما قلنا . وحينئذ تنقلب الاخلاق شيئا فشيئا الى فريسة شهية ملقاة بين مخالب الشهوات السافلة ، حيث تبدا هذه الاخيرة بتحقيق معظم رغائبها باسم الفضيلة والاخلاق نفسها .. وكلنا يعلم ان الفلسفة الوجودية حينما تعلن عن مبداها التحللي تضع هذا المبدأ ضمن اطار انيق من النظام الاخلاقي .

ثم ان الصورة الكلية التي يتركها مجموع هذه الميزات الاربعة لهذه الاخلاق على لوحة المجتمع : هي اخطر صورة لصر اعين اثنين : الصراع النفسي القائم في داخل الفرد ، والصراع الاجتماعي الناشب ما بين فئات المجتمع واخلاطه ، وهذا الصراع هو الذي يهدد اليوم الكيان الحضاري للغرب من اساسه ، وهو الذي جعل كتابه ومفكريه يدقون اجراس الخطر على آذان المسؤولين بقوة وهلع كيما يتداركوا الخطر قبل فوات الاوان .

* * *

كانت هذه هي صورة (الاخلاق الاجتماعية) حينما فرضنا ان ليس للدين عليها من سلطان وان ليس له من دخل في وضع معاييرها .

والواقع ان هذه المشكلة هي من اهم الحكم الاساسية التي اقتضت ان يتعبد الله عز وجل عباده بالدين ، واقول (الدين) لا (الاديان) ، لان الدين الذي تعبد الله به عباده دين واحد ، ولئن اقتضت طبيعة الازمان ان تتوالى عليه صور تجدده عبر التاريخ فلقد تجمعت اخيرا كل هذه الصور في مظهر واحد اخير وهو الاسلام .

فلقد جاء الدين ليستلم هو زمام قيادة المجتمع ضمن المخطط الخلقي الذي يضعه هو ، اذ كان الله عز وجل ــ وهو الخالق لعباده والفاطر لعقولهم وشهواتهم ــ ادرى بما يصلح للعباد ، واعلم بالصراط السوي الذي يؤلف انسجاما بين مختلف دوافع الانسان واغراضه ، جاء الدين فوضع على بعض انواع السلوك عنوان الخير ، وعلى بعضها الاخر عنوان الشر .

وكان لابد ــ لكي يوقن الناس ان النداء المحذر من الشر والامر بالخير انما هو آت من الله تعالى ــ من ركن العقيدة الاسلامية التي تجعل صاحبها يوقن بوجود الله ووحدانيته وبانه ما خلق هذه الكائنات عبثا لمجرد الافناء ، بل هناك يوم آخر ثقيل في طوله وعرضه يحاسب فيه الناس جميعا على ما قدموه في حياتهم الاولى ، فمجازيهم بالخير مثوبة واجرا وعلى الشر عقوبة وضررا .

وكان لابد ــ لكي يظل غرس العقيدة الاسلامية قويا في النفس ــ من ان يسقى بماء العبادة بمختلف صورها واشكالها ، فبذلك تنمو العقيدة في الفؤاد وتترعرع ، وتثبت امام عواطف الحياة وزعازعها .

وهكذا تتكامل عناصر الدين وشروطه التي يتوقف عليها امكان ايجاد انسجام تام بين المؤمن والاخلاق الفاضلة التي دعا اليها ، ويصبح المعنى الاخلاقي حينئذ حقيقة ذاتية لا تنسخها الاغراض والاعتبارات ، اذ هي تنبع من علياء هي اسمى كثيرا من مذهب الكاتبين ورأي العقلاء والمفكرين ، وما دام انها تفرض نفسها من تلك العلياء فان الجميع يستريحون من عناء التسابق الى فرض اراداتهم المختلفة وتحقيق اغراضهم المتباينة ، ومهما عظمت مسؤولية تحقيق هذه الاخلاق على النفس واشتدت قسوتها على الشهوة والهوى ، فان العقيدة الجاثمة في الفؤاد تمد صاحبها بقوة هائلة تجل عن الوصف من شأنها ان تذيب لواعج النفس والهوى وتحيلها الى هباء .

وان مثالا واحدا على هذا ــ كمثال تجربة تحريم الخمر ــ يكشف بوضوح عن المعجزة الخارقة التي ابدعت اسمى (الاخلاق الاجتماعية) من نفوس طالما تملكتها واسترقتها الاهواء .. فما هي الا آية واحدة تلاها المبلغ على اسماع اولئك الذين نبتت في قلوبهم عقيدة الاسلام ، حتى حطمت الاقداح تحت الاقدام واريقت دنان الخمر المعتقة على الارض ، وارتفعت اصوات الجميع قائلة : لبيك .. لبيك .. لقد انتهينا يا رب ..

هذا ، بينما اقدمت امريكا في عام 1933 على تقليد نفس هذه التجربة ، فاعلنت عن تحريمها الخمر ، ولكنها ما لبثت ان نكصت على اعقابها وارتدت مترنحة من الم الحرمان تعب اقداحها من جديد ، ولا ريب انه كان في مقدمة الرؤوس المترنحة حضرات المفكرين والمقننين .

وينبغي ان نتساءل هنا : ما هو مكان مجتمعاتنا الخلقي من هذا كله ؟ هل هي منقادة للمعايير التي يضعها الدين ام للمعايير الاخرى التي يفرضها الآخرون ؟

والحقيقة ان مجتمعنا اليوم لا يسير وراء واحدة من هاتين القيادتين فحسب بل وانه لا يكتفي بالانقياد لهما وحدهما وانما هو يتبع في سيره عدة جوانب مختلفة متعارضة : اضعفها الدين واشدها تقليد المدنية الغربية ، وانه ليبدو وسط هذه الجواذب متحركا في اضطراب غير سائر في مخطط او اتجاه .

ولقد اورثته هذه الانجذابات المتباينة صراعا نفسيا واجتماعيا اشد عتوا من الصراع القائم في الغرب ، والسبب ان سلطان الدين في المجتمع حينما لا يزيد على كونه جاذبا من جملة الجواذب الكثيرة الاخرى فانه لا يفيد اكثر من ان يزيد الصراع شدة واوارا .. ولا تفهم الاخلاق الاسلامية الا على انها قيود ثقيلة مؤسفة ، وذلك هو شأن الانسان عند ما تكون ارادته نهبا لجملة من الدواعي والمؤثرات المختلفة المتصارعة .

ولقد اعتاد الذين يستثقلون ظل الدين وتبعاته ، ان يتواروا من مواجهة هذا الحق وان يختصروا الطريق قائلين : ان السلوك المستقيم انما ياتي من يقظة الضمير ، فالضمير وحده كاف في حمل صاحبه على اتباع سبيل الحق وردعه عن الانحراف الى الباطل.

ولست اجد كلاما اوضح فيه الفساد واظهر من هذا الكلام .

اذ الجميع يعلم ان الضمير — حتى ولو انتبه واستيقظ — انما هو حاكم ومقرر لا اكثر ، والكل يعلم ان سلوك الانسان في الحياة لا يخضع لمجرد الحكم والتقرير ، وانما هو يخضع في غالب الاحيان للدوافع النفسية القائمة بين جنبيه ، وهي دوافع تستقي قوتها من ظروف المجتمع واحواله ومغرياته .

فكم من كذوب وهو يعلم في كل ساعة ان الكذب امر لا يحمده الناس ، وكم من موظف يرتشي وهو يدري ان الرشوة جريمة ، وكم من سارق للمال او الاعراض وهو غير جاهل انه بعمله ذاك وغد وسافل . بل وكم شاهدنا من اناس يتبجحون بالحديث عن الضمير ويلقون المحاضرات الرنانة في الكشف عن اسرار الخلق والضمير ، ثم ينقلبون الى لصوص يعتدون على اقدس ما يقدسه الخلق والضمير ..

انهم يقولون الضمير ..

وانا اقول : لقد تضافر وتعاون كل من الضمير والقانون وسلطة القضاء لاخضاع الناس لحكم الضمير، فلم يستطع كل ذلك ان يتغلب على دوافع النفس واهوائها ، وظلت الجرائم كلها ترتكب تحت سمع الضمير والسلطة والقانون ، اولئك يتوارون ويرتكبون وهؤلاء يظلون يلاحقون ويعاقبون .

ان الحق الذي لا يمتري فيه عاقل ، هو ان العاصم الوحيد الذي يمكنه ان يحجز الانسان من الانحراف انما هو ان تقوم محكمة تامة برئيسها واعضائها في داخل الفؤاد ، ولن تجد هذه المحكمة — مهما حاولت — الا في العقيدة الاسلامية اذ تغرس بعناية في الفؤاد ، فهي التي تغالب الدوافع النفسية حتى تغلبها ثم تتولى هي القيادة والتسيير .

وان من اعظم ما هو مؤسف ، ان بعض المسلمين لا يريدون ان يسمعوا مثل هذا الكلام فضلا عن ان يتدبروه ويفكروا فيه ، على حين ان المستعمرين يغتبطون لهذا الاغتباط العظيم .

يقول الدكتور عيسى عبده ابراهيم ان اثنين من الجنرالات الفرنسيين كتبا مقالا عام 1946 قالا فيه :

(لا ينبغي ان نستهين بالاسلام اذا استهنا بالمسلمين ، لان الاسلام عقيدة عجيبة ، بقيت الى الآن في الارض .. اننا حاولنا كل النظم الاقتصادية ، حاولنا النظم الراسمالية ، وحاولنا النظم الادارية ، وفشلنا ، ومن اهم ما فشلنا فيه عدالة التوزيع والرقابة .

(.. ان الرقابة لا تاتي في الاسلام من شخص على شخص ، ولا من هيأة على هيأة ، وانما هي رقابة الانسان لربه ونضج الضمير الديني ، وهذا وحده قوة كافية في الاسلام .. **وان من حسن الحظ ان المسلمين لا يفهمون هذا ولا يقدرون دينهم مع انه حفظهم وابقاهم الى الآن** ، وما علينا الآن الا ان نطمس معالم هذا الدين بتجويعهم وابادتهم وبحرمانهم من العلم والثروة) .

وان تعجب لشيء ، فاعجب لاناس يمهدون لهم بيننا هذا السبيل ، ويعينونهم في الباطل الذي يسعون اليه .

دمشق : محمد سعيد رمضان البوطي



أغراض المقامات الهمذانية

للدكتور فيكتور الكك

يذكر المصنفون القدامى ان بديع الزمان املى مقاماتـــه في الكدية (✶) ، والناظر في مجموعة مقاماته التي انتهت الينا يرى معظمها قائما على هذا الموضوع الخطير .. فهو هـدف البديع الرئيـــي والبعيد وان كانت له اغـراض اخرى سخـــر المقامة لها وقصدها لنفسها احيانا : منها تبيان مقدار تبحره في اللغة وعلومها وآدابها ، وشمول معرفتـه للمذاهب الدينيـــة والمسائل الكلامية ، والاقتدار على مختلف ضـروب الكتابـــة الادبية ، كما انه عرض الى حد ما قصدا او عن غير قصد ، الـــى النقد الاجتماعي .. وانتهى من ذلك كله حيث بدأ ، اي الـــى التسول يشرف على طريقه بطله ابو الفتح الاسكندري ، فخـص بعض مقاماته بمدح امير سجستان خلف بـن احمد مستمطـرا سحائب اريحيته .

الكدية :

الكدية هي موضوع المقامات اصلا ، والغاية القصوى مـن تأليفها ، فكيفما قلبت بصرك وبصيرتك في مقامات البديـــع تتمثل لك صورة الاسكندري شيخ المكدين ، واقفا في النـــاس يحتال عليهم فيشحذ هممهم للبذل والعطاء ببيان معم في البلاغة مخول، وهكذا تدور مقامات كثيرة على ضروب النصب والاحتيال وتنتهي مراحلها حتى يرى ابو الفتح بطن كيسه قد نفتق لمـا قد نال من شبع وتخمة ، ويتراءى لك الهمذاني من خلال صورة بطله ، يهوديا تائها ينتجع حضرة فيتركها لاخرى وضالتـــه فاقعه قوراء يدفنهـا ليوم الحشر .

المقدرة اللغوية :

من الظاهر ان الهمذاني يقصد في مقاماته الى اظهار مقدرته في اللغة ، وطول باعه في الالمام بمفرداتها ، ورسوخ قدمـــه في تراكيبها ومذاهب الكلام فيها شعرا ونثرا ، لذلك تراه يعمد الى المفردات الصعبة والحوشية احيانا ، ويغرف مـن بحـــر التراكيب المجازية ، ويبدو ان حب الظهور هذا وافق غايـــة المقامات التعليمية ، فاسترسل في ذكر المفردات الغريبة والتعابير المختلفـة الوجـوه .

فتراه مثلا يعدد في المقامة الحمدانية اوصاف الفـــرس فيبرز بذلك معرفته بالخيل واصنافها واحاطتـه بالمفـــردات الغريبة والوضعية التي تعبر عن تلك الصفات كأن يقول فـــي الفرس (طويل الاذنين) واسع المـراث ، غليـظ الاكرع ، ضيق الثلث ، واسع الشجر ، ياخذ بالسابح ، ويطلق بالرامح) ثم ياخذ في تفسير ذلك تباعا كانه يشرح متنا لغويا ، وكذلـك دأبه في الرصافية والدينارية ، اذ يذكر في الاولـى حيـــل اللصوص فياتي على معظم مصطلحات اهل الصعلكة والسرقة في عبارات لا يفهمها القارئ الا بعد الالمام بشرحها ، ويعرض في الدينارية للغة اهل السوء في تشاتمهم ، وما يجري في معـرض ذلك من اشارات بعيدة وامثال سائرة لا تفهـم الا بعـد النصب والاجهاد ، ولابد من الاشارة هنا الى ان البديع ادخل في هاتين المقامتين خاصة المفردات العامية المستحدثة لعصره بسبب انتشار الفساد وانتظام الصعالكة والمكدين في مجموعـات لهـا حياتهـا الخاصة ولغتها المعروفـة .

✶ لفظة فارسية الاصل معناها التسول ، دخلت في اللغـةالعربية وكثر استعمالها في القرن التاسع ، فاشتقوا منها فعل كدى واسم الفاعل مكدي ، الا ان لفظة (مكدي) لا تعني المتسول ، اطلاقا وانـما رجلا يمتهن التسول متنكرا لابتـــزاز الامـوال .

النقد الادبي :

اذا كان البديع قد بالغ في اظهار مقدرته اللغوية واحاطته بكنوز العربية المدفونة والمباحة فلم يفته بالتالي ان يلجأ الى عرض معلوماته وآرائه في الادب والعلوم العربية ، فتراه في مقاماته العراقية والشعرية يعرض لاحاجي والغاز ترمز الى بعض الابيات السائرة من بعيد او قريب ، بالنظر الى معانيها او بعض الاشارات فيها ، فيسأل عيسى بن هشام مثلا ابا الفتح الاسكندري قائلا : (هل قالت العرب بيتا لا يمكن حله ، وهل نظمت مدحا لم يعرف اهله .. واي بيت يعظم وعيده ويصغر خطبه .. واي بيت لا يمكن لمه .. واي بيت هو مهين بحرف ورهين بحرف ؟؟ .. قال عيسى بن هشام فوالله ما اجلت قدحا في جوابه .. فقلت حياك الله وانعش فرعك ان رايت ان تمن علي بتفسير ما انزلت وتفصيل ما اجملت ، فعلت ، فقال : تفسيره اما البيت الذي لا يمكن حله فكثير ومثاله قول الاعشى :

دراهمنا كلها جيد فلا تحبسنا بتنقادها

واما المدح الذي لم يعرف اهله فكثير ومثاله قول الهذلي :

ولم ادر من القى عليه رداءه على انه قدسل عن ماجدمحض

واما البيت الذي يعظم وعيده ويصغر خطبه فمثاله قول عمرو بن كلثوم :

كأن سيوفنا منا ومنهم مخاريق بايدي لاعبينا

واما البيت الذي لا يمكن لمه فكقول الخبزرزي :

سيم عبير في غلالة ماء وتمثال نور في اديم هواء

واما البيت الذي هو مهين بحرف ورهين بحرف فكقول ابي نواس :

لقد ضاع شعري على بابكم كما ضاع در على خالصه

وهذه المسائل كما رايت هي من باب التعجيز الذي لا طائل تحته فليس يرفدها ذوق مرهف يتتبع صور الجمال فيعرض الاقوال على محك الرأي والوجدان ، (وانما هذه الاوصاف التي يذكرها للابيات ويحاجي بها اعتبارات يصورها الذهن من جوامع البيت والالفاظ التي يؤلف منها والمعاني التي يشير اليها وترد الى المخيلة عند سماعه وذلك يختلف باختلاف اهل الذوق في القريض) (✱) .

والذي يلفت النظر ان بديع الزمان في هذا المنحى من النقد مقلد يجري على سنة الاقدمين البدائية في الاهتمام بالبيت الواحد والنظر في الفذلكات الواردة فيه ، وكذلك شأنه في المقدمة القريضية حيث يعرض لخصائص الشعراء المشهورين كامرىء القيس ، وطرفة والنابغة وزهير والفرزدق وجرير ويحاول ان يوازن بين شعر المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم ليعود فيرجح شعره في الكفة الثانية .

اما الناحية التي تهمنا في هذا الصدد فهي نقد الهمذاني للجاحظ ، فقد خصص لذلك مقامة كاملة (✱) قال فيها على لسان بطله شيخ المكدين : (يا قوم لكل عمل رجال ولكل مقام مقال ، ولكل زمان جاحظ ، ولو انتقدتم ، لبطل ما اعتقدتم .. ان الجاحظ في احد شقي البلاغة يقطف وفي الآخر يقف ، والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره ولم يزر كلامه بشعره ، فهل ترون للجاحظ شعرا رائعا ؟ قلنا : لا . قال فهلموا الى كلامه فهو بعيد الاشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، منقاد لعريان الكلام ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة او كلمة غير مسموعة ؟ ..)

فالهمذاني يحاول ابتداء ان ينصب نفسه جاحظا لزمانه ، فلكل زمان جاحظ ، ثم يردف بمبدأ نقد لم يقصده لذاته وانما ليزري بالجاحظ فيقول : (ولو انتقدتم لبطل ما اعتقدتم) ، وهذه نظرة صائبة في التحرر من الاهواء ، والاستقلال في الرأي والنظر بعين العقل لا بعين التقليد ، ومن ثم ينتقل الى نقد الجاحظ او قل الى الحط من قدرته فيرميه بعيبين : اولهما انه ليس له شعر رائع يزاحم به الشعراء ، وثانيهما ان كلامه سهل عار من المحسنات البيانية والبديعية .

وحجته الاولى واهية رجعية فما من مؤلف اوتي الابداع في الشعر والنثر معا ، وليس هذا من شروط العبقرية .

اما حكمه على نثر الجاحظ فصائب من حيث الوصف متهافت من حيث نفاذ الرأي ، فالوشي والتنميق بالاستعارات والكنايات وما اليها من كماليات النثر لا من جوهر بلاغته ، اما انقياد الجاحظ لعريان الكلام وما تومه فليس منقصة بل سجية صافية كريمة ، فالبلاغة على حد قول ابن المقفع ، هي التي اذا سمعها الجاهل ظن انه يحسن مثلها ، وهذه الاوصاف التي يعدها البديع كأنها من مناقص كلام الجاحظ هي كما يقول الشيخ محمد عبده : اعلى مزايا الكلام عند اهله وهي التي ترفع مقامه على غيره ، وهذا المذهب الذي سلكه الجاحظ

✱ تعليق الشيخ محمد عبده في ذيل الصفحة 223 .

✱ المقامة الجاحظية .

هو مذهب رجال البلاغة الاولين ، ومجال فرسانها السابقين اما المصنوعات فهي من احداث الموضوعات لا ينظر اليها الا صبية هذه الصناعة (★) .

الا ان لحكم البديع على الجاحظ قيمة كبرى ومزية دالة سوى ما اشرنا اليه ، فهو بمثابة دستور لنهج الكتابة في القرن الرابع الهجري ، انه وصف لاسلوب المترسلين بطريقة غير مباشرة تتجلى فيه الخصائص التالية : اولا – انهيار السدود بين النظم والنثر (فالبليغ من لم يقصر نظمه على نثره) . ثانيا – الصنعة في الاسلوب والتزام السجع والبديع والغوص على اللفظ المهجور ومعتاص الكلام . ثالثا – الانصراف عن المعنى الى المبنى وبهرجة الكلام .

النقد الاجتماعي : لابد لمتصفح مقامات البديع بروية وانعام نظر ، ان يفطن لما فيها من اشارات قريبة او بعيدة مقصودة تكشف له جوانب ظليلة من حياة المجتمع في ذلك العصر المليء بالمتناقضات والغرائب . فان في بعض المقامات لوحات موحية تصور مختلف طبقات المجتمع في كثير من الامصار الاسلامية في فارس والعراق والشام وما اليها .

ففي المقامة الرصافية وصف لحيل اللصوص والطرارين ووسائلهم الجهنمية في السرقة والنهب . وقد بلغ بهم عدم التورع مبلغا عظيما فاتخذوا المساجد لهم مأوى ومسرحا للسلب – فكانوا مثلا يقفون في صف المصلين حتى اذا اشتغلوا بركوع او سجود سرقوا ما امكن لهم من اموال ومتاع .

والمقامة البغدادية صورة للحياة في مدينة السلام ولعبث ظرفاء بغداد وطراريها بالساذجين من اهل المزارع . فقد حدث ان عيسى بن هشام اشتهى الازاذ يوما وليس في جيبه ما يسد شهوته . فلقي سواديا يسوق بالجهد حماره فقال: ظفرنا والله بصيد . وتظاهر بانه يعرفه ثم دعاه الى الطعام في احد الاسواق . قطعا من اصناف الشواء والحلوى ما احوجهما الى ما يتعشع بالثلج ليطفئا عطشهما ، وعندها تهيأ عيسى بن هشام للهرب فاحتال على السوادي المسكين مدعيا انه خارج ليأتيه بشربة ماء . وانتحى مكانا يرى منه القروي الغر وهو لا يراه ، فلما ابطأ عليه قام السوادي الى حماره فاخذه الشواء بازاره وقال : اين ثمن ما اكلت فقال : اكلته ضيفا . فلكمه لكمة وثنى عليه بلطمة ، ثم قال الشواء : هاك، ومتى دعوناك ، زن يا اخا القحة عشرين، فجعل السوادي يبكي ويحل عقده باسنانه ..)

وعندها انشد عيسى :

اعمل لرزقك كل آله	لا تقعدن بكل حاله
وانهض بكل عظيمة	فالمرء يعجز لا محاله

ومثال هذا كثير في مقامات الهمذاني فهي شريط سينمائي فوضوي لشتى مظاهر الفساد والافساد ، وسجل حافل للحياة ذات الوجهين في الخبث والرياء والنفاق تحت بردة التقى والزهد والورع ، فقد عرض البديع في كثير من مقاماته – كالمقامة الخمرية مثلا – للمنافقين الذين يظهرون غير ما يبطنون (فيظهرون خارج الكأس والاناء وقلوبهم مملوءة خطفا وشرا) .

وابرز ما تعرض له البديع في هذا المنحى نقمته على القضاء وفساد اهله واستخدامه مطية للاحتيال عن طريق الدين والشرع ، قال عيسى بن هشام في المقامة النيسابورية : (كنت بنيسابور يوم جمعة فحضرت المفروضة ولما قضيتها اجتاز بي رجل قد لبس دنية وتحنك سنية فقلت لمصل بجنبي : من هذا؟ قال : هذا سوس لا يقع الا في صوف الايتام وجراد لا يقع الا على الزرع الحرام ، ولص لا ينقب الا خزانة الاوقاف ، وكردي لا يغير الا على الضعاف ، وذئب لا يفترس عباد الله الا بين الركوع والسجود ، ومحارب لا ينهب مال الله الا بين العهود والشهود ، وقد لبس دنيته وخلع دينيته وسوى طيلسانه وحرف يده ولسانه ، وقصر سباله واطال حباله وابدى شقاشقه وغطى مخارقه وبيض لحيته وسود صحيفته واظهر ورعه وستر طمعه .)

الا ان ثمة آفة اجتماعية عالجها بديع الزمان من غير مرارة او تشف ، وانما بروح فكهة ساخرة في رائعته الخالدة المقامة المضيرية ، فانه عرض فيها لحديث النعمة الذي اثرى بعد عوز ، واترف بعد خشونة وشظف ، فهو لا يفتأ يصف لك كل ما افاء الله عليه من مستحدثات المدنية بعد حرمان جعله في عجب مما بلغ ، فتراه يسأل نفسه بدل ان يسأله ضيفه ويجيب نفسه مسهبا في تبيان فضائل الادوات والاثاث والبيت الذي يسكنه حتى ارهق زائره فسب له شرا لقي فيه من النعال ما طاب وخبث ، وفي ذلك من دقة الملاحة ونفاذ الوصف وبعد الغور في التحليل وخفة الفكاهة ما يركز الهمذاني في مقدمة الادباء الساخرين الانتقاديين في العالم .

وقد يطول بنا البحث لو اردنا تقصي النواحي الاجتماعية التي نستشفها من خلال المقامات ، لكننا اقتصرنا على الامور البارزة ذات القيمة الادبية ايضا ، ولنجترئ اخيرا بان نعرض لناحية اجتماعية تمثل لنا جانبا من حياة العصر ، قد لا يكون

★ المقامات – ص 76 رقم من ذيل الصفحة

البديع قصد اليها ، منها لوحة رائعة موحية في المقامة الساسانية عن قوافل المكدين وتنظيم مواكبهم واحتيالهم لجمع (الصدقة الشريفة) جاء فيها : (حدثنا عيسى بن هشام قال: احلتني دمشق بعض اسفاري، فبينما انا يوما على باب داري اذ طلع علي من بني ساسان كتيبة قد لفوا رؤوسهم وطلوا بالمغرة لبوسهم ، وتأبط كل واحد منهم حجرا يدق به صدره ، وفيهم زعيم يقول وهم يراسلونه ويدعو ويجاوبونه فلما رآني قال :

اريد منك رغيفا   يعلو خوانا نظيفا
اريد ملحا جريشا   اريد بقلا قطيفا
اريد لحما غريضا   اريد خلا ثقيفا
اريد جديا رضيعا   اريد سخلا خروفا
اريد ماء بثلج   يغشى اناء طريفا
اريد دن مدام   اقوم عنه نزيفا
وساقيا مستهشا   على القلوب خفيفا
اريد منك قميصا   وجبة ونصيفا
اريد نعلا كثيفا   بها ازور الكنيفا
اريد مشطا وموسى   اريد سطلا وليفا
يا حبذا انا ضيفا   لكم وانت مضيفا
رضيت منك بهذا   ولم ارد ان احيفا

قال عيسى بن هشام فنلته درهما وقلت له : قد آذنت بالدعوة وسند وسنعد وتجتهد ونجد ، ولك علينا الوعد من بعد وهذا الدرهم تذكرة فك فخذ المنقود وانتظر الموعود ، فاخذه وصار الى رجل آخر ظننت انه يلقاه بمثل ما لقيني فقال:

يا فاضلا قد تبدى   كأنه الغصن قدا
قد اشتهى اللحم ضرسي   فاجلده بالخبز جلدا
وامنن علي بشيء   واجعله للوقت نقدا
اطلق من اليد خصرا   واحلل من الكيس عقدا
واضمم يديك لاجلي   الى جناحك عمدا

قال عيسى بن هشام فلما فتق سمعي منه هذا الكلام تلمت ان وراءه فضلا فتبعته حتى صار الى ام مثواه ووقفت منه بحيث لا يراني واراه، واماط السادة فاذا زعيمهم ابوالفتح الاسكندري فنظرت اليه وقلت : ما هذه الحيلة ويحك فانشأ يقول :

هذا الزمان مشوم   كما تراه غشوم
الحمق فيه مليح   والعقل عيب ولوم
والمال طيف ولكن   حول اللئام يحوم) .

الوصف :

للوصف في مقامات الهمذاني حظ وافر : يأتي تارة اليه انسياقا ..

فثمة مقامات خصصها بديع الزمان للوصف فليس لها من فن المقامة سوى الاطار والاسناد الروائي الى عيسى بن هشام : كالمقامة الخمرية والحمدانية والمغزلية ، والاسدية في سياقها العام ، والى جانبها مقامات اخرى عرض فيها للوصف في اثناء القص بالابليسية والجاحظية والبشرية وسواها .

اما المقامة الخمرية فقد تعرض فيها البديع الى وصف القينة وجمالها ثم سألها عن خمرها فقالت :

خمر كريقي في العذوبة   واللذاذة والحلاوة
تذر الحليم وما عليه   لحلمه ادنى طلاوة

كانما اعتصرها من خدي ، اجداد جدي ، وسربلوها من القار ، بمثل هجري وصدي ، وديعة الدهور ، وخبيئة السرور وما زالت تتوارثها الاخيار ، ويأخذ منها الليل والنهار ، حتى لم يبق الا ارج وشعاع ،ووهج لذاع ، ريحانة النفس ، وضرة الشمس فتاة البرق عجوز الملق كاللهب في العروق وكبرد النسيم في الحلوق مصباح الفكر وترياق سم الدهر ، بمثلها عزز الميت فانتشر وذوي الاكمه فابصر) .

وهكذا وصف الهمذاني من الخمرة قدمها ثم لونها وطعمها ثم تاثيرها على شاربيها ، وليس في ما اورده ابتكار او معنى جديد يداني من قريب او بعيد شعر اصحاب الخمرة الذين تقدموه .. وانما له بعض التعابير الحسنة كقوله في قدمها (وديعة الدهور) وفي وصف صفائها ولطفها (وحتى لم يبق الا ارج وشعاع) فكأني به ينعت خمرة الصوفيين .

وفي المقامة الحمدانية وصف دقيق للخيل ومزايا واندفاعها في الجري وشرح لمعاني هذه الاوصاف ، وقد تعرض الحصري في الجزء الثاني من زهر الاداب لهذه المقامة فشرحها شرحا وافيا .

والمقامة المغزلية كذلك لا غرض لها سوى الوصف غير ان الوصف فيها البس ثوب الرمز والاحجية وهي تجري على موضوعين : وصف المغزل ووصف المشط ، قال فيها البديع: (حدثنا عيسى بن هشام قال : دخلت البصرة وانا متسع الصيت، كثير الذكر ، فدخل الي فتيان ، فقال احدهما : ايد الله الشيخ دخل هذا الفتى دارنا فاخذ قبح سنار برأسه دوار بوسطه زنار وفلك دوار ، رخيم الصوت ان جر ، سريع الكر ان قر ، طويل الذيل ان جر نحيف المنطق ضعيف المنقرطق ، في قدر الحزر ، مقيم بالحضر ، لا يخلو من السفر، ان اودع

شيئا رد وان كلف سيرا جد وان جر حبلا مد ، هناك عظم وخشب وفيه مال ونشب ، وقبل وبعد ، فقال الفتى : انعم ايد الله الشيخ لانه غصبني على

مرهف سنانه	مذلق اسنانه
اولاده اعوانه	تفريق شمل شانه
مواثب لصاحبه	معلق بشاربه
مشتبك الانياب	في الشيب والشباب
حلو مليح الشكل	صاو زهيد الاكل
دام كثير النبل	حوف اللحي والسبل

فقلت للاول : رد علي المشط ، ليرد عليك المغزل) .

وفي المقامة الحمدانية وصف دقيق للخيل ومزاياها واندفاعها وصفية تروي مهاجمة اسد لسفر كان بينهم عيسى بن هشام فما كانوا ينجون منه . وقد مات في ذلك رفيق لهم ، حتى بلاهم الله بفارس احكم فيهم سهامه ، قال في وصف مشقة سفرهم وتصدي الاسد لهم : (واخذنا الطريق ننتهب مسافته ونستأمل شأفته ولم نزل نفري اسنمة النجاد بتلك الجياد حتى صرن كالعصي ورجعن كالقسي ، وتاح لنا واد في سفح جبل ذي الاء واثل كالعذارى يسرحن الضفائر وينشرن الغدائر ، ومالت الهاجرة بنا اليها ونزلنا نغور ونغور ، وربطنا الافراس بالامراس ، وملنا مع النعاس ، فما راعنا الا صهيل الخيل ، ونظرت الى فرسي وقد ارهف اذنيه وطمح بعينيه ، يجذ قوى الحبل بمشافره ، ويخد خد الارض بحوافره ، ثم اضطربت الخيل فارسلت الابوال وقطعت الحبال واخذت نحو الجبال ، وطار كل منا الى سلاحه ، فاذا السبع في فروة الموت قد طلع من غابه منتفخا في اهابه كاشرا عن انيابه ، بطرف قد ملئ صلفا وانف قد حشي انفا وصدر لا يبرحه القلب ولا يسكنه الرعب ، وقلنا خطب ملم وحادث مهم ، وتبادر اليه من سرعان الرفقة فتى :

احضر الجلدة في بيت العرب
يملأ الدلو الى عقد الكرب

بقلب ساقه قدر وسيف كله اثر . وملكته سورة الاسد فخانته ارض قدمه . حتى سقط لیده وفمه . وتجاوز الاسد مصرعه الى من كان معه ودعا الحين اخاه بمثل ما دعاه . فصار اليه . وعقل الرعب يديه فأخذ ارضه وافترش الليث صدره . ولكني رميته بعمامتي وشغلت فمه حتى حقنت دمه . وقام الفتى فوجأ بطنه حتى هلك الفتى من خوفه والاسد للوجأة في جوفه . ونهضنا في اثر الخيل فتألفنا منها ما ثبت وتركنا ما افلت . وعدنا الى الرفيق لتجهزه .

فلما حثونا الترب فوق رفيقنا   جزعنا ولكن اي ساعة مجزع

قال زكي مبارك : (والقصة في جملتها فكاهة . ولكن الوصف ظاهر فيها كل الظهور ، وفيها فقرات تعد من آيات الوصف السابغ ، والحركة قوية في تلك الاقصوصة ، والمناظر تتوارد في حياة وانسجام . وعند تأمل ما انتهت اليه نجد الغرض في غاية التفاهة فكأن بديع الزمان ما كان يقصد غير هذه الاوصاف) .

اما الوصف الذي لم يفرد له الهمذاني في مقامات مستقلة برأسها فقد جاء في المقامة الابليسية مثلا في صورة اللغز والاحجية كما في المقامة المغزلية . فقال في ذلك يصف السراج :

(دلني على حوت مصرور في بعض البحور . مخطف الخصور . يلذع كالزنبور ويعتم بالنور . ابوه حجر وامه ذكر . ورأسه ذهب واسه لهب . وباقيه ذنب . له في الملبوس عمل السوس . وهو في البيت افة الزيت . شريب لا ينقع . اكول لا يشبع . بذول لا يمنع . ينمي الى الصعود ولا ينقص ما له من جود . يسوؤك ما يسره وينفعك ما يضره)

ومما يجري هذا المجرى كذلك وصف شره جاء في سياق المقامة الجاحظية وما كان هذا الشره في حقيقة الامر سوى الاسكندري . فقال عيسى بن هشام في ذلك : (ومعنا على المائدة رجل تسافر يده على الخوان . وتسفر بين الالوان . وتأخذ وجوه الرغفان . وتفقأ عيون الجفان . وترعى ارض الجيران . وتجول في القصعة . كالرخ في الرقعة . يزحم باللقمة اللقمة ويهزم بالمضغة المضغة) .

ويقوم جمال هذا الوصف على ملاحظة تصرفات الشره في الاكل من قريب او بعيد فتسافر يده على الخوان وتجول في القصعة كالرخ في الرقعة .

الدين :

ان الناظر في مقامات بديع الزمان يلاحظ ان النقاش بين مختلف الفرق الدينية من سنة وشيعة ومعتزلة وغيرها ظل ساريا يتجاذب حواشيه العامة بعد اهله . وقد اخذ منه الهمذاني بطرف في مقامته : المارستانية والحلوانية . ففي المارستانية ان عيسى بن هشام دخل مارستان البصرة ومعه ابو داود المتكلم . فالتقيا بمجنون استشاط غيظا حين علم امرهما لان ابا داود كان من اهل الاعتزال وابتدرهما قائلا : (شاهت الوجوه واهلها . ان الخيرة لله لا لعبده . والامور بيد الله لا بيده . وانتم يا مجوس هذه الامة تعيشون جبرا . وتموتون صبرا . وتساقون الى المقدور قهرا . ولو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم . افلا تصدقون ان كان الامر كما تصفون . وتقولون خالق الظلم ظالم . افلا تقولون خالق الهلك هالك . اتعلمون انكم اخبث من ابليس دينا . قال : رب بما اغويتني ، فأقر وانكرتم

وآمن وكفرتم . وتقولون : خير فاختار . وكلا فان المختار لا يبعج بطنه . ولا يفقأ عينه . ولا يرمي من حالق ابنه . فهل الاكراه ما تراه . والاكراه مرة بالمرة ومرة بالدرة . فليخزكم ان القرآن يخيفكم . وان الحديث يغيظكم . اذا سمعتم من يضلل الله فلا هادي له ألحدتم . واذا سمعتم زويت لي الارض فأريت مشارقها ومغاربها جحدتم .. وان قيل عذاب القبر تطيرتم . وان قيل الصراط تغامزتم . وان ذكر الميزان قلتم : من الفرغ كفتاه . وان ذكر الكتاب قلتم : من القد دفتاه . يا اعداء الكتاب والحديث بما تطيرون . ابالله وآياته ورسوله تستهزئون يا مخانيث الخوارج . ترون رأيهم الا القتال ..)

فانت ترى ان كلام المجنون هذا دفاع عن عقيدة اهل السنة بطريقة غير مباشرة ، وتسفيه لآراء المعتزلة باسلوب منطقي ترد فيه الحجج متقطعة الانفاس ، عصبية الوقع ، تهزها النقمة كأنها سيوف في يوم مقارعة . وقد عرض الهمذاني في هذا الصدد لاهم آراء المعتزلة فرد عليها ردا سريعا موجزا . فنفى اولا مبدأ الاختيار المطلق مستندا الى حجة عقلية مؤداها ان دعاة هذا المذهب ولدوا دون ارادتهم وهم مسوقون الى نهاية ليس لهم يد في دفعها . ثم اردف بحجة نقلية تبين تشديد الله للانسان في قوله (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم) جوابا على قول القائلين : (ولو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا ههنا) وذلك بعد ان سقط عدد من صحابة النبي يوم احد . ثم يستمر في نقد الادلة على ان الله لا يخلق افعال العبد : (تقول المعتزلة : لو كان الله خالقا لافعال العبد وفي العبيد من يقع منه الظلم قطعا لكان الله خالقا للظلم ولو كان خالقا للظلم لكان ظالما فلو كان خالقا لافعال العبد لكان ظالما والتالي باطل بالاجماع فالمقدم باطل فليس بخالق لافعال العبد. فهذا المجنون يعارض هذا الدليل بانه خالق للهلك قطعا في قوله لان الاعدام كالايجاد من خصائص القدرة الالاهية خصوصا الهلاك العام عندما يؤذن العالم بالانقضاء فلو صح استدلالكم ذلك للزمكم انه هالك لانه خالق للهلك) .

ثم يعمد الهمذاني الى تكفير المعتزلة والتنديد باقوالهم وافعالهم فيتهمهم في دينهم اذ يقول : (فليخزكم ان القرآن يخيفكم وان الحديث يغيظكم .. يا اعداء الكتاب والحديث بما تطيرون ابالله وآياته ورسوله تستهزئون ؟) مشيرا في اثناء ذلك الى مبدأ تأويل الآيات الذي سار عليه المعتزلة .

اما المقامة الحلوانية فقد وقف فيها الهمذاني بايجاز كلي موقفه من المارستانية . فقد سأله الحجام : (من اي بلد انت ؟) : (من قم) فبادره عندها منشرحا : (حياك الله من ارض النعمة والرفاهة وبلد السنة والجماعة) ثم عرض الحجام في اثناء هذيانه الى مسألة كلامية كانت مثار خلاف بين المعتزلة والاشاعرة وغيرهم فاتخذ فيها جانب السنة اذ قال : (فلو كانت الاستطاعة قبل الفعل لكنت قد حلقت رأسك) وهذا رد على الذين يزعمون ان الاستطاعة هي قوة مستقرة في نفس المستطيع قبل الفعل وليست امرا يقارن الفعل في حال مبادرته ولا يسبقه .

واذا انتقلنا الآن من هذه المشاهدات التي تلقي على العاطفة الدينية سباتا يخدرها ويسمنا مناهل الدين في صفائه وسجية اتباعه وقعنا في مقامات البديع على اثنتين تعنيان بالوعظ الديني والارشاد الى الصراط القويم والتزود للآخرة بالاعمال الصالحة .

ففي المقامة الاهوازية ان رفقة التقوا برجل في طمرين في يمناه عكازة وعلى كتفيه جنازة فتطيروا لما رأوا الجنازة واعرضوا عنه فصاح بهم صيحة كادت لها الارض تنفطر وقال : (لتروننها صفرا ولتركبنها كرها وقسرا . مالكم تطيرون من مطية ركبها اسلافكم وسيركبها اخلافكم ـ اما والله لتحملن على هذه العيدان الى تلك الديدان .. ويحكم تطيرون كأنكم مخيرون وتتكرهون كانكم منزهون . هل تنفع هذه الطيرة يا فجرة .. ان وراءكم موارد انتم واردوها وقد سرتم اليها عشرين حجة .

وان امرءا قد سار عشرين حجة   الى منهل من ورده لقريب

ومن فوقكم من يعلم اسراركم . ولو شاء لهتك استاركم . يعاملكم في الدنيا بحكم . ويقضي عليكم في الآخرة بعلم . فليكن الموت منكم على ذكر . لئلا تأتوا بمنكر . فانكم اذا استشعرتموه لم تجمحوا . ومتى ذكرتموه لم تمرحوا . وان نسيتموه فهو ذاكركم . وان نمتم عنه فهو ثائركم . وان كرهتموه فهو زائركم) .

وموقف الشيخ الواعظ هنا كموقف قس بن ساعدة الايادي اسقف نجران في خطبته السائرة التي مطلعها (ايها الناس اسمعوا وعوا ..) وفيها يبين البديع ان الموت ضربة لازب فالانسان فيه مسير غير مخير . فلا داعي بالتالي للتطير . لان الانسان اذا ذكر الموت استشعر مصيره فبادر الى اعداد الزاد للآخرة .

والمقامة الوعظية تسير على هذا النمط الارشادي . الا ان الترغيب والترهيب فيها اكمل عدة واكثر تفصيلا واجمل تصويرا . وفيها يوالي البديع بين النثر والشعر بغية الالتفات والتأثير . ويدعو الناس الى الاعتبار بالامم الخالية والملوك الفانية . فقد اخذت عليهم الحجة من السماء بالخبر من الارض بالعبر فالى متى يرقعون بالآخرة دنياهم ؟

التكسب :

كان الهمذاني من اصحاب الجمع والمنع ، يرد الحضرات متكسبا ، جشعا كبطله ابي الفتح الاسكندري . فاستخدم فن المقامات الذي ابتدعه لابتزاز الاموال منضويا تحت لواء الشعر المدحي . فألف ست مقامات في مدح امير سجستان خلف بن احمد وهي المقامات : الناجمية والخلفية والنيسابورية والملوكية والسارية والتميمية ، ويزعم مرغوليوث ان الهمذاني اهدى مجموعة مقاماته الى الامير خلف . الا ان ذلك غير ثابت تحقيقا .. ومهما يكن من امر فالواقع ان البديع سخر مقاماته للتكسب . فقد حدث عيسى بن هشام في المقامة الناجمية ان ضيفا نزل بهم في احدى الليالي فاعجبتهم مغامراته وفصاحته فبادروه قائلين : (فمن اين طلعت واين تغرب وما الذي يحدو املك امامك ويسوق غرضك قدامك . قال : اما الوطن فاليمن واما الوطر فالمطر . واما السائق فالضر والعيش المر . قلنا : فلو اقمت في هذا المكان لقاسمناك العمر فما دونه . ولصادفت من الامطار ما يزرع ومن الانواء ما يكرع . قال : ما اختار عليكم صحبا . ولقد وجدت فناءكم رحبا . ولكن امطاركم ماء والماء لا يروي العطاش . قلنا فاي الامطار يرويك . قال : مطر خلفي . وانشأ يقول :

سجستان ايتها الراحلة
وبحرا يوم الندى ساحله

ستقصد ارجاءها وان زرتها
لواجدة مائة كاملة

وفضل الامير على ابن العميد
كفضل قريش على باهلة

قال عيسى بن هشام ، فبينا نحن بيوم غيم في سمط الثريا جلوس اذ المراكب تساق والجنائب تقاد فاذا رجل قد هجم علينا . فقلنا من الهاجم . فاذا شيخنا الناجم . يرفل في نيل المنى وذيل الغنى فقمنا اليه معانقين وقلنا : ما وراءك يا عصام . فقال : جمال موقرة ، وبغال مثقلة ، وحقائب مقفلة وانشأ يقول :

مولاي اي رذيلة لم يأتها
خلف واي فضيلة لم يأتها

ما يسمع العافين الا هاكها
لفظا وليس يجاب الا هاتها

ان المكارم اسفرت عن اوجه
بيض وكان الخال في وجناتها

بابي شمائله التي تجلو العلى
ويدا ترى البركات في حركاتها

من عدها حسنات دهر انني
ممن يعد الدهر من حسناتها

يقول الدكتور شوقي ضيف في هذا الصدد معلقا على المقامة الملوكية : وهذا مدح ظاهر ، فالمقامة لم تتعرض للكدية وانما تعرضت لهذا المدح الذي يدل دلالة بينة على ان النثر اخذ يزاحم الشعر ، فالهمذاني فيها يصوغ المدح نثرا ، وكنا نعرف حتى عصر البديع ان الشعر لسان المديح ، وان المادحين لا يتكلمون بغيره ، واليوم انقلبت الآية ، فقد اصبح المدح يقال نثرا كما يقال شعرا ، وبذلك انهدمت الحواجز التي كانت تفصل بين عالمي النثر والشعر ، فالنثر يطرق موضوعات الشعر ، والشعر يطرق موضوعات النثر على نحو ما هو معروف في الشعر التعليمي) .

الا اننا نزيد على قول الدكتور ضيف ان موضوع المقامات الخلفية لم يزل الكدية لكنها كدية بشرف اغار فيها البديع على بطله الاسكندري فانتزعها منه واحال بها على صاحب المطر الخلفي .

الدكتور فيكتور الكك نزيل طهران





ليس هناك كتاب يتناول تاريخ الاندلس السياسي أو الادبي الا ونجد مؤلفه يثبت نص قصيدة ابي البقاء الرندي الشهيرة في رثاء قواعد الاندلس التي تساقطت في يد الاسبان الواحدة تلو الاخرى ، او يشير الى بعض أجزاء منها ... وهي :

لكل شيء اذا ما تم نقصان
فلا يغر بطيب العيش انسان
هي الامور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته ازمان
وهذه الدار لا تبقي على احد
ولا يدوم على حال لها شان

* * *

فاسال بلنسية ما شان مرسية
واين شاطبة ام اين جيان
واين قرطبة دار العلوم فكم
من عالم قد سما فيها له شان
واين حمص وما تحويه من نزه
ونهرها العذب فياض وملان

* * *

فهذه القصيدة التي خلدها ابو البقاء سند قوي للمؤرخ السياسي الذي يريد ابراز اثر الفواجع الاندلسية في نفوس الشعب الاندلسي وفي نفوس مفكريه ولا سيما حملة الاقلام من كتاب وشعراء .. وهي للمؤرخ الادبي صورة حية للون من الوان الادب الاندلسي في رثاء الامصار الاسلامية التي عصفت بها فواجع الزمان فسقطت صريعة في يد الغزاة الصليبيين .. وهي قبل هذا وذاك مثال لأدب العاطفة المكلومة المصدومة بتيار الاحداث والفواجع .

ولعل ذلك هو السبب الذي يحدو اساتذتنا الى دفعنا لتحفظ نونية ابي البقاء الرندي بتمامها ، واذكر فيما اذكر انني حفظتها اثر درس حضرته في تاريخ الاندلس .. وكان من جملة مواده قطعة من هذه القصيدة .. وما لبثت ان اصبحت اترنم بها .. وكأنني اترنم بانشودة هي انشودة الشعور المتدفق .. والوجدان الكسير .. والتعبير الرقراق ..

ومنذ ذلك الحين وانا اعرف القصيدة جيدا واحفظها جيدا ، ولكنني لا اعرف عن صاحبها شيئا لا قليلا ولا كثيرا ، وكم كنت اشعر بفراغ في ذهني حينما احاول البحث عنه في المعاجم وكتب التاريخ وكأنني أبحث عن مجهول أو نكرة من النكرات .

فالرجل قد خلد المأساة ولكنه لم يخلد ، بل لم تشتهر حتى ترجمته الشخصية ، وما ذلك الا لان تيار الاحداث قد سدل ستارا كثيفا عن الرجال الذين عاشوا في العصر الذي عاش فيه ابو البقاء .. كما ان الكتب التي ذكرتهم أو ترجمتهم نالت هي الاخرى حظها من الفاجعة ، فدخلت في خبر كان ، او رقدت في زاوية من زوايا النسيان ... وكنت في كل مرة اقرا القصيدة ، اسائل نفسي :

- من هو ابو البقاء الرندي .. ؟
- وفي اي عصر ختمت انفاسه .. ؟
- وهل له شعر آخر غير هذه القصيدة .. ؟
- ولماذا يمر عليه جامعو تراث الاندلس مر الكرام .. ؟

ولكن هذه الاسئلة كانت لا تظفر بجواب ، لاسيما وابو العباس المقري في (نفح الطيب) ، و (ازهار الرياض) قد ذكر الشاعر في عبارات غامضة يدل فحواها دلالة واضحة على ان المقري نفسه كان

لايملك شيئا زائدا عما سطره من معلومات حول ابي البقاء .. اذ لو كان يعلم شيئا زائدا لجاد به على عادته وهو الحافظ المتبحر المتضلع من الاخبار والآثار .

ومرت ايام شغلت فيها عن ابي البقاء ونونيته واكتفيت بفتح (ملف) خاص به ادون فيه ما سوف اعثر عليه من معلومات حوله من خلال المطالعات ، او اشعار منسوبة اليه ، وانتظرت حكم الزمان الذي لا يحتفظ بسر ولا يبقي عليه .

وكانت المعلومات الاولى عن صاحبنا هي ما اشار اليه ابن خلدون في الفصل الثالث والاربعين من المقدمة حين كان يتحدث عن شعراء الاندلس فذكره قائلا : (وكان من آخرهم صالح بن شريف ومالك بن مرحل) .

ولم اتردد في ان صالح بن شريف عند ابن خلدون هو ابو البقاء صالح بن شريف المذكور في النفح ، وهو ابو الطيب المذكور في ازهار الرياض ...

فالشاعر له كنيتان : ابو البقاء ، وابو الطيب .. وسنجد له كنية ثالثة فيما بعد ...

وكانت المعلومات الثانية التي رأيتها هي قول الحافظ محمد بن عبد الملك المراكشي في كتابه الذيل والتكملة : (وحدثني صالح بن شريف .. وقال صالح بن شريف ...)

فاستفدت من ذلك ان صاحبنا من اشياخ الحافظ بن عبد الملك ، ومعلوم ان ابن عبد الملك توفي سنة 703 هـ .

وتركت ابا البقاء بعد ان اطمانت الى انه من اشياخ ابن عبد الملك ولهذا فهو لا محالة من الشعراء الذين عاشوا في القرن السابع الهجري وشاهدوا مصرع القواعد الاندلسية الاولى .. كما شاهدوا قيام دولة بني الاحمر الفتية في غرناطة ...

وكم كانت دهشتي عظيمة حينما وجدت اثناء البحث الشهاب الخفاجي في كتابه (الريحانة) يبعد النجعة فينسب قصيدة ابي البقاء الرندي الى من يسميه (يحيى القرطبي) الذي وقع اسيرا في يد النصارى فنظم هذه القصيدة يستنجد بها العثمانيين (ملوك الروم) كما يسميهم الشهاب .

ثم يروي القصيدة وهي عنده 61 بيتا ، بينما يرويها المقري في (نفح الطيب) وهي 42 بيتا ، ويرويها في (ازهار الرياض) وهي 43 بيتا بزيادة بيت واحد وهو البيت رقم 28 :

يا ايها الملك البيضاء رايته
ادرك بخيلك اهل الكفر لا كانوا

اما صاحب (الذخيرة السنية) فانه ينسب القصيدة (للفقيه ابن محمد صالح بن شريف الرندي) وهذه كنية ثالثة .. ثم ذكر القصيدة وهي عنده 43 بيتا ، توافق ما في ازهار الرياض في العدد ولكنها تخالفها في كثير من الابيات مخالفة تامة ..

وقد تفطن ابو العباس الى ما زيد في قصيدة ابي البقاء من ابيات ، فيها ذكر غرناطة وبسطة وغيرهما مع ان مصرعها لم يكن الا بعد موت ابي البقاء بمدة طويلة..

ولا شك ان المقري يعني بذلك الابيات التي رواها كثير من المؤلفين قبل الشهاب الخفاجي ونقلها هو نفسه في (الريحانة) وعددها 18 بيتا .. حشرت حشرا فيها بعد قول صالح بن شريف :

واين حمص وما تحويه من نزل
ونهرها العذب فياض وملآن

وهي ابيات مهلهلة النسج باردة الانفاس ...

كل هذا ونحن نتحدث عن صالح بن شريف من خلال هذه المرثية الخالدة وما جرت من اشارات عند المؤرخين وزيادات وحقائق واوهام ..

اما عن شخصية صاحبها فقد ظل قابعا في زاوية من زوايا الاهمال والنسيان لا تزيده الايام الا امعانا في الخفاء والغموض ولا تزيد الباحثين الا انصرافا عنه بعد يأس من العثور على ترجمة في كتاب ما .

ومن الانصاف ان نعترف ان الاستاذ عبد الله عنان كان اول باحث رفع الاحجار والاشواك عن شخصية صالح بن شريف بما كتبه في مؤلفه (نهاية الاندلس) ، فقد استنتج في الطبعة الاولى من كتابه سنة 1949 م انه عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري .. ولكنه عاد في الطبعة الثانية سنة 1958 فاشار الى الترجمة التي عثر عليها في مخطوط (الاحاطة) المحفوظ بدير الاسكوريال ..

وبسبب ذلك توجهنا الى البحث في مخطوط الاحاطة حيث وجدنا لسان الدين بن الخطيب ترجم شاعرنا ترجمة حافلة شفت بعض الغليل وازالت كثيرا من الفروض والاحتمالات .. وقد نقل ابن الخطيب عن ابن الزبير كثيرا من المعلومات المتعلقة بصالح بن شريف لكون هذا الاخير كان من الذين يلازمون مجلس ابن الزبير في مالقة ويستفيدون منه .

وقد كان الاستاذ عبد الله كنون اول من نشر بعضا من نص الاحاطة فى دراسته القيمة التي نشرها عن كتاب (الوافي فى نظم القوافي) ...

وبذلك يصح لنا ان نقول عن خبرة واقتناع انه لولا مخطوط الاحاطة ما عرفنا صالح بن شريف ... ولا سمعنا عن حياته شيئا .

ومجمل هذه الترجمة انه ولد سنة 601 ه وانه عكف منذ صباه على الدراسة العلمية والادبية واتصل بدولة بني الاحمر فكان حظيا عند ملوكها يتردد عليهم وينال جوائزهم .. وانه الف عدة كتب فى العروض والفرائض والتاريخ بالاضافة الى شعره الذي يظهر انه كان غزير المادة رقراق الديباجة متين الاسلوب .

والباقي من آثار ابي البقاء يحتاج الى مزيد من العناية والدراسة لنعرف الرجل على حقيقته ونخلده كما خلد مأساة الفردوس المفقود ...

فصاحبنا له مقامات ادبية .. وله شعر اودع كتابه الوافي كثيرا من مقطعاته الرقيقة .. كما احتفظت بعض المصادر بقليل منه هنا وهناك .. وقد راينا ابن الزبير فيما نقله عنه ابن الخطيب يروي قصائد لصاحبنا ويقول :

(وانشدني كثيرا من شعره)

كما راينا ابن عبد الملك يقول فيه :

(كان خاتمة الادباء بالاندلس)

وناهيك بهذه القولة من الحافظ ابن عبد الملك فى حق شيخه صالح بن شريف .

وقد ابقت الايام على بعض آثار صالح بن شريف منها :

1) كتاب الفرائض .

2) الوافي فى القوافي يوجد فى عدة خزائن

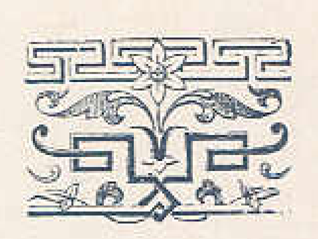
3) روض الانس ونزهة النفس فى الادب والتاريخ يوجد منه جزء فى احدى الخزائن الخاصة .

وقبل ان نودع ابا البقاء فى هذه النظرة السريعة التي القيناها على شخصيته وآثاره واسهمنا فى رفع بعض الاحجار (المتراكمة منذ قرون) عنها نرجو ان نوفق الى نشر معلومات اخرى مقتبسة من بعض المخطوطات مع منتخبات من شعره .. كهذه الابيات التي احتفظ لنا بها ابو العباس ابن القاضي فى (جذوة الاقتباس) :

برزت من الحمام تمسح وجهها
عن مثل ماء الورد بالعناب
والماء يقطر من ذوائب شعرها
كالطل يسقط من جناح غراب
فكأنما الشمس المنيرة بالضحى
طلعت علينا من خلال سحاب

وسنجدد اللقاء ... بابي البقاء ... فى فرصة اخرى بحول الله .

فاس : عبد القادر زمامة



شاعر الإشراقة الإلهية

للأستاذ: محمد المنتصر الريسوني

من هذا الشخص الوقور ..؟ من هذا الرجل السائر في الدروب ، تنبت دوما على ثغره بسمة مشرقة ..؟ متسجم التقاطيع، تتنور اساريره بضياء الفجر يحكي بهاء الصدق والصمود في الحق .. يسير في تؤدة غريبة ، يبدو في مشيته اثر المرح .. كل الناس يتلفتون اليه في استغراب ، يتطلعون اليه فـي استغراب ، يتطلعون اليه في شوق نهم ، يريدون تلمس اذيال ثيابه ، لكنه سائر في دروبه ، ناكس الذقن ، يرتـاد فـي عالم نفسه مجاهل التفوق الانساني حيث الالق الحي والاشراق السرمدي .

من هذا الشخص الوقور الذي لا يستثير نظره شيء في دنياه ، منقطع انقطاعا دائما عن بهرجهـا ، خالعا ثيابها ، كل ثيابها ، راغبا في المجاهدة الصادقة التي يطل من شرفتها على البرزخ المشع ، لا يكترث الا بسبحة تتحرك بين انامله الدقيقة في انفعال تارة وفي هدوء تارات اخرى تعقبه تمتمات ترسل اصداءها الخافتة المتساوقة الى كل نفس طاهرة مـن ادران الرجـس .

تـرى من هذا الشخص المحيـر ؟

تـرى من هـو ؟

ايكون جاهلا من البهل يتخذ لنفسه هـذا المظهر ليكتسب من رائيه الاحترام والتقديس ؟

تـرى مـن هـو .. ؟

ايكون رجلا من اولئك الذين يلبسون لباس الوقـار ليوهموا الناس بالتقوى والورع ليتعلقوا باذيالهم ويتمسحـوا بثيابهم ، ويلثموا راحاتهم ..

كلا .. والف كلا ..

انه ليس من ذلك الصنف الافـاق ..

كلا .. والف كـلا ..

انه ليس من صنف اولئك الذين يشربون من صهبـاء الخلود نخب الشروق الازلي ، انه احمد بن عبد القـادر التاستاوتي المتبتل ، الناشد محراب الله الاقدس ، الهائم فـي ملكوت نوره ، الشاعر الاديب ، العالم التصوفي ذو الموهبـة السخية في قرض الشعر ، ذو البراعة الرقيقة المعطاء الكريمـة الندية بالحرف المشرق الرقراق ، والكلمة المجنحة في النغم الطائر كروح تائهـة في فضاء .

انه التاستاوتي الشاعر الكلاسيكي المنزع ، التقليـدي الطريقة القصيدية ، الاديب الناثر الضارب فـي قالب القاضي الفاضل وغير القاضي من صاغة الكـلام ومجودي النثر العربـي المتنوق الحافل بفسيفساء اللفظ الجميـل .

تندت يراعته بمعطيات مرضية ملذة منها : (نظم ممتـع الاسماع وشرحه) ، و (نظم رجال التشوف وشرحه) و (نظم رجال القشيرية وشرحه) وكتاب (النزهة) الزاخر برسائله فـي جزئين ، وديوان شعر في ثلاثة اجزاء كبار يحوي بين دفتيه الاشعار المستملحة ، والقصائد النبوية ، وغيرها من اعمالـه الفنية المرقصة ، وله امثلة فقهية علمية ، وتقاييد تنبيء عـن علو كعبـه وسمـو مدركاتـه .

تتلمذ فيما تتلمذ على السيد عبد الكريم الجزيري ، اخذ عنه سند المصافحة كما اخذها عن السيد عبد القادر الفاسي الـى ان تصل حلقتها برسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونهل من معينه العذب النمير العالم الطبيب السيد عبد القادر بن العربي بن شقرون واحمد بن ابي عشرية بن احمد ابن يوسف الفاسي .

تلك كلياتنا عن التاستاوتي ..

فما هي عملية خلقه الشعرية .. ؟

قبل ان اجيب ، خليق بنا ان نقول : ان شعر التاستاوتي اذا دب الى رحاب قلبك ، وملك عليك منازع نفسك لا تقل اجاد وايم الله ، قل : تبارك الله احسن الخالقين ..

تلك وصية اولى مني اليك على الرغم من اني اعرف ان طريقة هذا الشاعر للشعرية تضرب في القديم ، وتتخذ القالب الاتباعي ، لكنك ينبغي ان تنظر الى الصدق والعاطفة وما توحيه الالفاظ الشفافة من معان في العمل الفني ، ولا تنزعج اذا ما صادفتك ـ وذلك نادر ـ بعض التعابير الفقهية والكلمات المتعالمة والعبرة بكثرة الجيد ، وتلك وصية ثانية مني اليك .

فشعره تلفه رهافة الاحساس الذي يتقبل التجربة فيعطي ويدخر في قوقعته فيجرد باصوات معبرة حية متحررة من الكذب المغل والادعاء المقيد ، وتنتشر فيه تارة نظرات صائبة مستخلصة من صميم الحياة ، يحفل باللفظ الانيق ، والمعنى الجيد والسبك التعبيري القديم ، يمتاز بوحدة الموضوع عكس ما يتشدق به من ان الشعر العربي عموما يهمل وحدة الموضوع ، ويهتم بوحدة البيت ، ذلك زعم باطل ووهم لا يقره الواقع الشعري التاستاوتي .

اقول : شعره تكتنفه رقة العاطفة السلسة ، وشفافية الشعور الخير المتميز بطابع الادراك ان للحياة منافذ مختلفة يوصل بعضها الى الظلام وبعضها الى النور ، والدقة في الاداء ، والاجادة في التعبير الرصين ، والاتقان في صوغ الكلام حسب المعنى المراد تأديته ، والجودة في الهيكل الهندسي للحرف الشعري الفضفاض الذي يرفده الصدق ، كل الصدق ، فيما يحمل بين تلافيفه من معان وبخاصة اذا كان القلب الذي يصدر عنه هذا قلبا تصوفيا حنظلي العذاب ، ومرارة الاسى ، ينصهر في البوتقة الاليمة فيتميز عقب ذلك بميزة روحية نادرة منحرفة عن الاباطيل منطلقة من شعور عميق بواقع المجاهدة الذاتية في سبيل تحقيق (الانا) الضائعة بين تيارات متضاربة المتأرجحة بين انجذابات المادية والروحية .

وشيء بقي في شعره هو صياغته الشعر في الوزن المغاير لجو المناسبة في بعض الاحايين ، وسترى هذه المغايرة .

ذلك شعره جملة وتفصيلا ..
فاين اذن الدلائل المزكية ..

الدلائل ستلقاك في سرعة الضوء .. تأمل .. ارهف سمعك الى هذا الصوت المصداق ينطلق في نبرات تشي بحب نابض في الذات النبوية الشريفة :

عرج باطلال الاحبة واقصد
آثارهم يوما لعلك تهتدي
واجز اذا جئت الديار بمنزل
قد ضم اجداث العشير الهمد
ولهيب قلبك ان اردت شفاءه
فات الربوع ترح قلب الاكمد

الى قوله :

لولا النوى ما اقبلت من مغرب
فوق المطايا عاشقون لاحمد
صلى عليه الله ما هبت صبا
وبكى لرؤيته وجهه ذو اكمد
بادر لزورته اذا ما اشقته
واذهب على الوجنات غير منكد

ويجعل مسك الختام قوله :

انت المؤمل في الشدائد كلها
انت الجواد الغيث للمسترفد
انت الذي من ام بابك راغبا
ولو اقتضى امرا عظيما يسعد
انت الذي سعدت بك الاشياء قا
طبة ومن يقصد سعيدا يسعد

وهذه القصيدة خطها مرقمة مرقمه المكثار سنة 1125 هـ تنيف على ستمائة بيت ، خطها وهو في اصيل العمر ، قد ناهز الثمانين ، ومن يقرأها من الفها الى يائها يحس ان صاحبها قد اكتملت لديه الاداة الشعرية ، واستتمت عنده الثقافة العربية المحضة المكتسبة من تجارب السنين الطويلة التي سلخها فوق مسرح هذه الحياة ، والقصيدة عارض بها الشاعر العلامة ابا علي الحسن اليوسي في قصيد له مدح به الشيخ ابن ناصر ، ونفحاتها المؤرجة تذكرنا بنفحات القصائد الجاهلية في الشكل والمضمون ، في المبنى والمعنى .

وقصيدة له اخرى دبجتها يراعته بمناسبة قدوم احمد الخليفة من الديار المقدسة ، مستهلها :

سلام واسي بالسلام لمن اذا
يسلم لم يعبأ له بسلامه
وظنوا ظنونا انتجتها اقاول
وليس لها اصل بفحوى كلامه

الى ان يهتف :

وقد كنت قبل الشيخ عبدا مخالفا
كثير الجفا في فعله وكلامه
ولما رأيناه رأينا سعادة
وشمنا بروقا من مقام اغتنامه
فمن شاء فليقبل ومن شاء رده
وذو الجهل مغفور له في اجترامه

امارات الصدق ، وعلامات الاخلاص والمحبة تشع في تضاعيف هذه القصيدة ، ذلك ان الشاعر يرد على من يلفق الاكاذيب ويرسل النمة بعد النمة ، والاخلوقة عقب الاخلوقة ليعكر الجو ويأسن ماء الصفاء بينه وبين ابن الشيخ احمد الخليفة .

واجابه ابن الشيخ على هذا اجابة هدأت من جأشه ، وخففت من روعه ، وكيف ينتصر الاعداء والشاعر كان قبل ان يعرف الشيخ عبدا مخالفا كثير الجفا في فعله وكلامه فاستحال بعد كل هذا سعيدا مطمئنا .

ويعارض مرة ثانية قصيدة اليوسي الدالية سنة 1116 هـ، من غير ان يجاريه في نفس القافية بعد ان اخذت بلبه واعجب بها كما لم يعجب بسواها بقصيدة لامية ضربت بسهم وافر في جودة اللفظ المختار المتاوق ، والتعبير المتناغم وما يتجلجل في نفس محبرها ، وهي لا تقل شأنا عن الاخرى ، وقد قالها في شيخه ابن ناصر الدرعي واستمع اليه بانتباه اذ يقول لك :

قف ساعة بين الغوير فارسل
واعطف بمنعطف الرسوم الهمل
واجتز من الطلل الذي بجواره
آثار قوم في البرية كمل
ان الوقوف بها تعله مكمد
وهي الربيع لقلب كل مبلبل

الى ان يقول :

واعلم بان الحلم اسرى منزل
يدني الفتى من مجده المتاصل
والعنف يكسب للزجاج تصدعا
فاذا حلت زجاجة بتجمل
ان الكريم عن البدا متغافل
لا يكشف العورات عذب المقول

ثم يتعرض لمدح الشيخ هاتفا :

الماجد الشيخ ابن ناصر الذي
ملك القلوب بطوله المتسلسل
احيى السعادة بعدما قد عطلت
واقام رسم الدين بعد تجلجل
وسما به شرع النبي محمد
وازاح ليل الجهل بدر شمردل
بحر تدفق من علوم جمة
يشفي الغليل مقاله ان يسأل
احيى المكارم بعد ما بليت وقد
اطفأ ضرام الغي بعد تشعل

ويسترسل مبينا ما قام به الشيخ لرفع ألوية الدين ، وغرس المحبة في النفوس ومحق ظلام الجهل ، فعم البلاد النفع حتى استقامت السنة المحمدية على نهج قويم وطريق مستقيم رائق متجمل ، وغدت ترابا طيبا ، وفروعا استنبت نضجها قامت تزري بغصن جميل نابت في الربى المزدانة باصناف متعددة من الزهر :

عم البلاد النفع واسدل الغطا
كرما وقد درت ضروع الحفل
بمغرب ، ومشرق ، متيمن
متشئم ، متكون ، متوصل
حتى استقامت سنة الهادي على
نهج قويم رائق متجمل
طابت ترابا واستنمت افراعها
تزري بغصن في الربى متحفل
روض يباكره الندى فتزينت
افنانه ببنفسج وقرنفل

وهكذا يواصل الشاعر كلامه عن الشيخ الصالح ، وانت اذا ما استرسلت في قراءتها ، ووقفت امام بعض ابياتها احست كأن الشاعر متأثر بحكم زهير بن ابي سلمى في معلقته الميمية .

ولقد كان شاعرنا طموحا ، جد طموح ، يريد ان ينال امنيته عن طريق الشيخ ابن ناصر ، الا وهي الوصول الى مقام الاولياء الاسنى ، فلطالما رنت هذه الفكرة في عالم نفسه، ولطالما تمنى من اغوار قلبه ان تتحقق ، لذا كان في بعض الاحايين تهزه هذه من الجذب الروحي فيكتب وهو في ضباب الحيرة رسالة او قصيدة الى الشيخ يخاطبه فيها ويتوسل اليه بسكان الزاوية ان ينال ما يهفو اليه ، يقول متوسلا توسلا يقطر بالتحسي :

يا مربع العباد والزهاد
يا مرتع الابدال والاوتاد
اني بمن ياويك يا فلك البها
متوسل لله في الاسعاد
فعساه يمنحني المنى ويثيلني
ما ارتجي من ماجد الامجاد

هكذا يمضي شاعرنا في التوسل للشيخ وذكر ما يتصف به من المحامد عله ينفحه نفحات الهية قدسية ، والقصيدة في مجموعها لا اعتبرها من روائع شعره رغم ما فيها من التحسر واللوعة الصادقة انما هي الفاظ متراصاة بعضها ازاء بعض من غير ان تلفها ظلال من الفن الجميل بعكس قطعته التي تنتشر بين اطوائها مسحات شعرية رائعة والتي هي آخر ما سمعه منه الشيخ في السفرة التي ما رآه بعدها سنة 1084 هـ، يقول :

واني وان الزمت نفسي تجلدا
على نائبات الدهر ان الحت
وبالغت جهدي في اكتتام تأسفي
واخفيت تبريحي واعلنت سلوتي
فها انا قد مزقت درع تصبري
واصبحت بين انكباب وزفرة
اما انني ودعت من اودع الحشا
لواعج شوق في الفؤاد استقرت
وما كان مني البين طوعا وانما
جرى قدر من فوق حولي وقوتي
احبابنا انتم مرامي وانتم
مناي وسؤلي في ذهاب وجيئتي
وانتم بقلبي ان تنات دياركم
وذكراكم شغلي وترياق مهجتي
عليكم سلام الله ما لاح بارق
فاذكرني اشراقه ثغر عزتي

وما احسن البيت الرابع والخامس المحملين بعاطفة مستقرة ، وشعور قوي مشرق .

واتصل شاعرنا بالشيخ الاكبر عن طريق الرسائل العديدة التي تنبىء عن قوة عارضته وطول باعه في تحرير النثر تحريرا ياخذ باقطار النفوس ، وكان الذي دله عليه العالم الشاعر ابو على الحسن اليوسي .

وكانت وفادته الاولى عليه سنة 1081 هـ فخاطبه بلهفة المشتاق ونبرة اللهفان المستهام :

اتيتك يا بحر المعارف اشتكي
خطوبا اقامت مالها من تنقل
وجئتك يا غوث الزمان مجددا
من الانس مكسوا رداة التابل
ومالي سوى الظن الجميل بباكم
وان تطردوني ليس لي من تحولي
على كل حال ارتجي الفضل منكم
وهل يرتجى في الناس غير المفضل
بمثلك من لو جاءه الفاجر اهتدى
ونال من الرحمن كل مؤمل
انت امام القوم والمهتدي به
وقائد ركب خاف يوم التزلزل
انت الذي احييت لنة احمد
وبينت من احكامها كل مجمل
عليك سلام الله ما دمت ماجدا
تلاقي بني سعد بوجه مهلل

وما ان انهى الشاعر القاءه حتى قال له الشيخ الاكبر مخاطبا اياه وقد هلل البشر قسمات وجهه :

– جعل الله يا تامتاوتي لسانك ينبوعا من الحكمة ينطق كيف شئت .. ثم اخذ يدعو له بكل شيء جميل رائق..

وزاره مرة ثانية في رمضان سنة 1048هـ، ومكث عنده بزاويته عشرة ايام قضاها كلها في النظر الى وجهه المتلألىء، وهناك قرأ عليه قصيدة اولها :

قد سعت ايامنا في بيننا
فتناءينا ولسنا صابرين
لو علمنا البين ياتي بغتة
لتوادعنا وداع البائنين

الى ان يقول موضحا غرضه من الشيخ الاكبر :

كل يوم اترجى نفحة
منه تدنيني مقام الواصلين
واخاف الذنب ان يمنعني
ليت شعري هل لنا من راحمين
ان يكن ذنبي عظيما ربما
يرحم الله العصاة الظالمين
انت انت المجتبى والمعتلى
خير من حاز العلا في الامتين
وانلني منك يا قطب الورى
كاس راح من شراب العاشقين

البيت الاخير رائع يمثل رغبة في ان يصبح من راود محراب الله البهي ، ومن عشاق رحابه المضيئة بعد ان ينهل من راح العاشقين المتيمين التائهين في دروب الحب الالهي ،

وان يضحي من رحال قافلة ابن الفارض والحلاج وابي زيد البسطامي وبشر الحافي واتراب هؤلاء الذين توجوا قمم جبال التصوف المعشوشبة .

وفي هذه الزورة جرى بينهما حديث طويل حول التصوف بعد ان انهى سرد قصيدته ، سأله التاستاوتي قائلا وفي صوته نغمة من الصدق :

— هل يتصرف الشيخ الكامل بجميع تصرفات الصالحين ان شاء لقن الذكر والبس الخرقة وغيرهذا من اشكال التصرفات

فاجابه الشيخ الاكبر محمد ابن ناصر متهلل الوجه باسم الثغر :

— الولي الصالح الذي بلغ حد الكمال يستطيع ان يتصرف في كل ذلك ، بيد انه ينبغي ان يفعل ذلك بما يناسب العصر واهله .

ثم سأله مرة اخرى وقد صارت منافذ جسمه كلها مسامع :

— ما هو الانس والادلال يا سيدي ؟

فقال في صوت جهوري صداح الكلمة وقد نظر اليه نظرة طويلة كما لو كان يستشف سر الجواب من اعاميق عينيه :

— اهل الانس هم اولئك الذين يأنسون بالله ويرضون بقضائه ويصبرون صبر الحلماء الثابتين على بلائه ، واهل الادلال هم اولئك الذين يقولون ما يريدون في جانب الله .

وثالثا ، يسأله :

— لم لم تقل يا سيدي مثل قول الشيخ سيدي عبد القادر الجيلي :

ما في الصبابة منهل مستعذب
الا ولي فيه الالذ الاطيب
او في الكمال مكانة مخصوصة
الا ومنزلتي اعز واقرب
افلت شموس الاولين وشمسنا
ابدا على فلك العلا لا تغرب

او مثل قول الشيخ سيدي محمد بن المبارك :

دعاني الحق لما انا فيه
فصرت انا للحق داعيا
وفتح لي الحق خزائنه
فصرت من خزائنه معطيا

فاجابه الشيخ بعد ان عدل من جلسته :

— الشيخ سيدي عبد القادر الجيلي والشيخ سيدي محمد بن المبارك صالحان من اهل الانس بالله فلا حرج عليهما من ذلك .

وباتصال التاستاوتي الناشد المعرفة الازلية بالشيخ الاكبر وولده ، والحاحه المتواصل المتفض بمعاناة المجاهدة الروحية اخذت تنتابه استغراقات وجدية وسبحات الهامية ، ودوار محير .. على اثر ذلك تتفتح امام عينيه الاسرار وتتكسر الاقفال ليتجلى له النور ، الفيض ، الاشراق ، وبينما هو فيه اذ تنساب في عالمه المتأرجح بالهتافات الخافتة اهازيج توقعها مزاهر خفية ، بهذا يبلغ به الفناء في الحضرة الالهية حالة الري (★) فيعلن كما اعلن من قبل الحلاج ، يعلن على رأس الملأ من غير ما وجل انه صاحب الوقت المتصرف او انه المهدي ، وغير هذه الشطحات ، وبين عشية وضحاها يامر المولى اسماعيل العلوي بزجه في غياهب سجن فاس الجديد .

ويدخل السجن ، يدخله وهو كله ايمان راسخ ثابت لا يعبأ بما اصابه .

وكيف يعبأ ... ؟

كيف يعبأ وقد اصبح يعيش على ثمار التجلي ، ويرى ان ذلك قدر مقدس سبق به القلم منذ ان كان آدم بين الماء والطين ، وانه تجربة من الفرد الصمد .

كيف يعطي ادنى اهتمام ، وقد لفه الاشراق في ثيابه..

هذه جدران السجن تحيط به من كل جانب ، ولكنه في شغله الشاغل عن القيود والسلاسل ، يتلذذ باسم حبيبه ، يأنس بذكر مسيه ، يدفع الوحشة بالابتهالات ، ولكأني به يتغنى :

رباه ، اجعلني نغمة تسبح في ملكوتك ..

رباه ، عبد يتفانى في ذاتك العليا ، هيىء له في مهرجان اقاربك مكانا يتبوأه .

رباه ، اني طائر منتش بخمرتك ، ائذن لي بأن ازقزق في خمائل بساتينك ، اشدو واغرد ، اقفي واهدل ..

يا الله ، ظلام السجن محدق بي من كل جهة ، بيد ان نورك يبدده في سرعة ..

يا الله ، كل شيء لدي هين ما دمت تغمرني برضاك .

وفي هذا السجن الدامس يظل التاستاوتي سنتين كاملتين ، لم يفته ان يعبر عن هذه المحنة التي اعتورته في قصائد ورسائل تجدها مثبتة في كتابيه « النزهة » و « الديوان » .

واعتقد ان من جملة ما كتبه في السجن قصيدته السينية ، البرهان يحرج .

تاريخ القصيدة سنة 1106 يشير الى انها قيلت في الايام الاواخر من سجنه اذ انه سجن سنة 1104 كما رأيت قبلا ، ثم معانيها العامة تدلك على ذلك ، واستمع اليه اذ يقول لسانك وقد بعثها لابن الشيخ احمد الخليفة :

★ الري : اصطلاح صوفي ، وهو اعلى درجة من حالتي الذوق والشرب .

ارانك ان شت الطلول الدوارسا
كأن لم تر فيها البدور الاوانسا
وهل هاج منك الدمع لما رايتها
تذكر ظبي كان من قبل مؤانسا
ثم رحل الاحباب منها واودعوا
جوى للحشا في كل وقت ملابسا
بكيت فلم تطف المدامع لوعتي
واصبحت من شوق من الصبر آيسا
وما كنت ادري البين حتى تحملوا
ولا كنت من قبل التفرق عابسا
ولما استقلوا ظاعنين وخيموا
تتابع اراني بعد ذلك ناكسا
كأني من شجو فقدت ابن ناصر
ولم ار شيخا شامخ المجد راتسا
تحالفت الاراء فينا مبينه
واصبح ذو التخمين في الجهل غاطسا
لقد زعموا انني حللت عقوده
وكنت لمكتوب المواثيق طالسا
واني لنا ان ننقض العهد بعده
ومن نوره في الناس اصبحت قابسا
تعالوا نبث السر فالحق واضح
ونذكر علما في الوقت دارسا
ونذكر احوال التقاة وما يرى
من الدر في الاصداف من كان غاطسا
امن غير كشف يسبح المرء في الصفا
ويقل قولا واهي الاصل يابسا
ومثل ابي العباس ان عن حادث
يكون بنوره الله يدفع هاجسا

القصيدة تنم عن لوعة ، لوعة محرقة تنزى في قلب هذه الحزن ولا سيما والشاعر متعلق بابن الشيخ اشد التعلق يقديه ببهجته وروحه ، اذ انه يرى فيه قبسا من النور الالهي الاقدس المبارك ينير له المسالك الوعرة المظلمة التي يتخبط في دوامتها ، ويعمه في لججها .

وتختطف المنية الشيخ الاكبر ابن ناصر فتشرئب اقلام الادباء راقمة القصائد الطوال في رثائه ، ويرسلون الزفرة على فقدانه ، ويطلقون الآهة تلو الاهة على حرمانهم من طلعته البهية وجبينه المشرق الوضاء ... ويصيح ...

يصيح شاعرنا التامناوتي صيحة من تردى في هاوية :

يا ليتني يا ليتني   نلت المنى من سيدي
وشربت من ورد الصفا   ولثمت كأس توددي
من لي بشيخ عارف   ذي همة وتعبد
هو هو ذا ان نلته   ظفرت يداك بعجد
وبشرت بالكنز الذي   يغني باقرب موعد
من اين يوجد في الورى   مثل الامام الاوحد
نجل ابن ناصر الذي   احيا طريقة احمد

ويبكي بكاء حارا على الفقيد فيشرع في تعداد ما كان يستمده منه من اسباب القوة والغاية المتمثلة في الانتماء الى العلي وغير الانتماء الى العلى :

فبه انسيت الى العلا   وشربت اعذب مورد
وبه احن الى الصفا   وازيد اهجر مرقدي
وبه اخاف وارتجي   وبه يكون تجلدي
وبه تفرج شدتي   وبه احول مقصدي
وبه اعز واقتني   وبه اجمل تكددي
وبه تقل راحتي   وبه انول قصدي
وبه الانام تزورني   ويروح بي او يغتدي
وبه اصول على العدا   ويخاف مني المعتدي

صيحات تتالى في نبرات محزنة قطية تشع من حرقتين (به) على فقيد التصوف الكبير ، اذ يبث في بحر مجزوء هو اقرب الى النثر منه الى الشعر ، وقيل عنه : انه (حمار الشعراء) ونشاته لا تلائم مقتضى الحال ، لكن شاعرنا لم يتصنع ويتكلف في اختيار الوزن الموائم فقد اطلق العنان لقلمه وسكب الانفعال المضطرب في بحر الرجز المجزوء من غير ان يفكر في انواع البحور .

* ■ *

وتتابع الايام دوراتها السريعة في محيط الزمن الهادر ، فيدق ناقوس الفراق دقات الفزع ، يزمع الشاعر رحيله ويودع الاهل والخلان لينطلق الى العالم الآخر ويرقد في جوف رمسه بين الصخور الصم بعد ان عاش شاعرا صداحا تعزف قيثارته اعذب الاغاريد ، مستغرقا في نشوة علوية يقتات من النفحات السرمدية ، ويتملى بمشاهدة موكب السنا والضياء فيحمل ذلك التعور الاسمى الى الكلمة والنغم كيما يتسحان عتات الشرايين المسرفة وذوبان القلب التامل .. ووفاته شهدتها ليلة الاربعاء فاتح رجب سنة 1127 هـ ، ونحي قرب روضة الشيخ عبد الله بن احمد خارج البرادعيين بمكناسة الزيتون ، وما يزال قبره قبلة الزوار وكعبة الرواد يرمز الى قيم الخير الخالدة المحملة باللفتات الابكار والخواطر اللاعبة ، خلف عقبا ببلاد زعير ، يدعون القادريين .

تطوان : محمد المنتصر الريسوني



يستطيع الباحث فى احوال اللغة العربية وتطوراتها فى ماضيها وحاضرها حين يلاحظ صمودها امام عاديات الزمن ان يؤمن بخلود هذه اللغة فى مغربنا الحبيب حاضرا ومستقبلا .

ومن حق كل متتبع لهذه الظاهرة ـ حين يلمسها ـ ان يتساءل عن سر هذا الخلود .

والحقيقة انه ليس هنالك سر واحد لهذا الخلود وانما هي اسرار مختلفة متماسكة متتابعة تتنوع مع العصور وفى كل قطر حسب اشكال التطور الكثيرة التي مرت بها الاقوام المؤمنة بالعربية نطقا وكتابة وانتاجا .

والذين كتبوا فى (الاعجاز) قديما وتحدثوا عن (اسراره) انما كانوا بعملهم ذلك يجيبون عن مثل هذا السؤال الذي تثيره ظاهرة (خلود) العربية فى هذا الزمان ، فلقد كانت كتاباتهم وتآليفهم فى عداد المصنفات الشيقة التي يمكن ان تصلح جوابا لمثل هذا السؤال ، ولكن الذي يؤسف له ان هذه التآليف اصبحت اليوم مقصورة على طائفة المتخصصين فى علوم العربية وبلاغتها وآدابها ، ثم تلا ذلك ضعف عام فى المستوى العربي لانساننا المغربي صارت معه هذه التآليف غريبة صعبة ، ويكاد يكون من المستحيل تناولها بالنظر والبحث والمحاكمة .

وعلى ذلك تغيرت (مقاييس) البلاغة فى بلادنا ، وتبدلت تلك (الاسرار) ، وغدا سر خلود العربية اليوم يماشي الظرف والزمان والمكان ، فلئن كان خلود العربية فى البلاد الاخرى يرجع احيانا الى صمود اهل تلك البلاد امام (اللغات الغازية) ، وتارة الى تشجيع الاجانب الحاكمين تحببا الى اهل البلاد وتقربا وتارة اخرى الى عوامل كثيرة ليس بنا من حاجة ـ هاهنا ـ الى احصائها وتعدادها ، فان من المفيد ان نبحث عن سر خلود هذه اللغة فى بلادنا الحبيبة ونتلمسه فى ماضيه وحاضره ومستقبله .

ويلاحظ منذ الوهلة الاولى ان سر خلود العربية فى مغربنا ليس راجعا الى صمود اهل البلاد فى وجه (اللغة الغازية) ، ذلك أن المستعمر قد سهل عليه ـ خلال وقت قصير من الزمن بعد انشاء المعاهد العصرية وفرض لغته فيها ـ ان يتفاهم مع أهل بلادنا بلغته هو لا بلغتنا نحن ، الامر الذي يشهد بعدم وجود مقاومة تذكر او صمود فعلي من (الاهالي) فى وجه اللغة الجديدة الغازية ، فلقد كان المستعمر جادا فى (تقرير) لغته من الناحية العملية والادارية ، واحس (الاهالي) من جهتهم بعدم جدوى المقاومة فى ميدان لا يملكون له سلاحا . ولقد تمركزت اللغة الغازية فى الحواضر اكثر منها فى البوادي اذ الملاحظ ان غالبية المستعمرين الذين يقطنون البوادي كانوا مضطرين فى تعاملهم مع اهل باديتنا البربرية الى التحدث بلغتنا العربية (الدارجة) . وهذا يشهد بنوع من (الصمود السلبي) للهجتنا العربية فى وجه لغة الاحتلال بتلك المناطق من وطننا .

وكان الحكام الاجانب بحكم استيلائهم على مقدرات البلاد ، وتحكمهم فى مصيرها ، وانتمائهم الى حضارة تخالف فى أصولها ومناهجها حضارتنا وثقافتنا يجدون انفسهم فى غنى عن التحدث الى الاهالي او التقرب منهم بتشجيع اللغة الوطنية ، وكانوا ـ على العكس من ذلك ـ جادين فى التمكين للغتهم الغازية فى البلاد بفتح المعاهد لها فى المدن والقرى مستعينين فى ذلك بالامكانيات المادية والمعنوية التي كانوا يملكونها فى هذه البلاد .

ومع ذلك فقد بقيت العربية خالدة صافية فى (القرويين) ، وفى (المدارس الحرة) ، وفى الكتاتيب (المسايد) ، وفى منازلنا الخاصة . اذ كان لابد لكل واحد منا ان يعلمه ابواه ـ فى البيت ـ العربية قراءة وكتابة وقرآنا .

كذلك اثبتت العربية خلودها بالامس القريب حين كانت كالفتى العربي – كما يقول ابو الطيب – غريبة الوجه واليد واللسان . اما اليوم فقد تبدلت الحال من عسر الى يسر ، وآمن كل من كتب له ان يومن بان المستقبل فى هذه البلاد للعربية ولاهل العربية فى التعليم وفى التجارة وفى الادارة وفى المعاملات الحياتية اليومية الخاصة منها والعامة . لكنه رغم هذا كله لم تستقم الطريق امام العربية لتسلكها يسيرة ممهدة نحو خلودها المكتوب .

فلا زالت تتلقى هجومات من انصارها وخصومها سواء بسواء . فهناك خصم جاهل لهذه اللغة جهلا لا معرفة له معه بأحكامها وقواعدها واصولها ثم يحاول أن يستر جهله لها باعلانها حربا لا مهادنة فيها على العربية واهل العربية . ان هذا الصنف من الناس هو شر الخصوم واقلهم شانا لانه يسقي بخصامه بذور انتعاش العربية ، ويحيي بجحوده عناصر حياتها وبقائها فى هذه البلاد . ذلك أن تحدي الشعور والعواطف والمقدسات والقوانين انما يقابل بتحد مثله او اكبر منه .

وهناك خصم عالم بالعربية وبغيرها من اللغات ولكنه يشك فى قدرتها على الحياة ، وينكر عليها حقها فى الحضارة وفى العلوم ، يهملها فى مخاطبته اذا تخاطب وفى معاملاته اذا تعامل وفى تجارته اذا تاجر وفى ادارته اذا كان من رجال الادارة ، وفى علمه اذا كان من اهل العلم . ان هذا الصنف من الناس خير الخصوم واكبرهم شانا ، هو خير الخصوم لانه يكفى الامة امر نفسه وذويه اذا قررت الامة يوما ما تعميم العربية فى سائر مرافق الحياة ، وهو اكبرهم شانا لان لخصامه – مع علمه بالعربية – معنى خطيرا « مشككا » فى صلاحية العربية وصلاحية المثقفين بها للحياة .

الى جانب هذين الطائفتين من الخصوم هناك طائفة ثالثة يمكننا ان ندعوها بطائفة « المهاجمين الاصدقاء » تخاصم العربية واهل العربية عن حسن نية دائما وبطريقة غير مباشرة ، وهؤلاء انفسهم هم فئة « الانصار الطبيعيين » للعربية الذين يحملهم تدينهم – عادة – الى هذا الصف ، وتدفعهم الحمية العربية الى هذا الجانب عزلا او مسلحين ؛ ولكنهم ينحرفون عن صفهم الطبيعي هذا ويتحولون الى جانب الخصوم ، وذلك عند ما يقدر الواحد منهم ان يحرر بالعربية الصافية كتابا او بحثا او مقالة او قصة ثم ياخذ منه الضعف ماخذه ويفشل فلا يفعل ، ويفضل حياة البرج الذهبي على حياة الجماعة فى حلقات المساجد والاسواق ، ويصطفي لنفسه كتابا يدرك فيه متعته العقلية ولذته الفكرية ، غير سائل عن عامة الناس وجماهيرهم الجاهلة من ابناء وطنه ؛ ويقبع فى ركن من اركان بيته وزاوية من زوايا مكتبته منكمشا على علمه ومعرفته متعاليا بهما فى برجه العاجي فلا يفيد منه المواطنون شيئا ويصبح – على علمه ومعرفته – عالما كالجاهل او عالما خير منه الجاهل المجتهد الذى يحاول ان يستفيد ويفيد ، وما يلبث علم هذا العالم حتى يضيع لعدم الممارسة والمذاكرة والصقل والعرض والتهذيب .

مثل هذا المناصر الطبيعي للعربية يستحيل عدوا طبيعيا اذا فضل حياة الخاصة على حياة العامة وآثر الراحة والعافية على الجد والمشاركة ، لان العلم فى هذه الايام عام بين الناس .

ليس امام العالم بالعربية اليوم الا ان ينفض عنه عوالق مخلفات الماضي السحيق ويطرح عنه ذلك الكسل العقلي جانبا ويسهم فى العلوم والآداب بكثرة انتاجه الجيد وتأليفه القيم غير هياب ولا وجل ، متجنبا فيه الصعوبة والتعقيد والتقعر حول الالفاظ متوخيا فيه السهولة والجزالة والابتكار والذوق والصفاء ، والسلامة من الاخطاء .

بين هذه الاصناف الثلاثة من الخصوم تتابع اللغة العربية الحياة فى بلادنا الحبيبة ، وفى هذا المحيط القاسي تشق طريقها ببطء مع ثبات نحو الاستمرار والخلود ، وسيلتها الى ذلك مناعتها الخاصة ودفاعها الذاتي عن النفس ، ومحافظتها على اصالتها العريقة الفاظا عربية صافية واسلوبا قويا آسرا وبيانا ساحرا مبينا .

كذلك تدافع العربية عن نفسها كلما عز المدافع او قل النصير ، لا يضيرها كيد الخصوم شيئا وان تضافرت جهودهم مجتمعة على النيل من استمرارها وبقائها ؛ ذلك سبيلها ابدا حين يقل انصارها ، ويكثر اعداؤها : دفاع ماجد عن النفس ، ومناعة ذاتية لغوية مكينة ، تعضدها ثقافة القرويين وتؤازرها جهود المدارس الحرة وخريجي الكتاتيب والمنازل الخاصة لتبقى العربية خالدة على الزمان .

فاذا سمحت الظروف وتبدلت الحال غير الحال بقلة الخصوم وكثرة الانصار رفعت اللغة العربية الراس عاليا فى هذا البلد وفرضت نفسها على اللغات الغازية فامتدت متماسكة وانتشرت بسرعة لتعم الالسن والاقلام .

سلا – عبد الله الكامل الكتاني

ضرورة مسايرة الأدب لتيار التطور

للأستاذ عبد اللطيف خالص

حتمية التطور أمر لا مفر منه وهي من سنن الكون ؛ وضرورة مسايرة الانسان لهذا التطور أمر محتم ولا يشذ عن عجلة التقدم ومسايرة التقلبات في العالم الا العاجزون الذين ارتضوا لانفسهم البقاء في مؤخرة القافلة والقانعون الراضون بما تمد له ايديهم من جذور الماضي الذين لا يستطيعون شيئا غير المحافظة عليه واجترار ذيوله والعض على الغابر الدارس بالنواجذ .

وتطور العالم يفرض على جميع من يوجد في هذا الكون ان يسايره في خطواته الوثابة الى الامام المتجهة نحو التقدم البناءة للمستقبل القريب والبعيد ؛ والتطور في مدلوله ومفعوله يشمل البلاد والعباد والحرث والنسل والكون والانسان ؛ ويشمل هذا التطور في مفعوله ومدلوله كذلك كل ما يتبع الانسان من عواطف ومشاعر وتعابير وكل ما يكون الانسان في معنوياته ومادياته ؛ لان كل المحسوسات والملموسات جزء من البشر تتطور بتطوره وتتأثر بتأثيراته ؛ وما الادب في مدلوله المادي والمعنوي الا احدى هذه المشاعر والعواطف والاعتقادات والتعابير التي تكون من الانسان بمثابة الروح للجسد تتأثر بالانسان كما تؤثر فيه وتتطور معه كما تدعو لتطوره ؟ وما الادب الا تعبير صادق عن حاجيات الانسان ينطلق في هينة ومهل وسرعة وعجلة كما ينساب في مد وجزر وعلو وانخفاض مسايرا لسير العصر ومطابقا لتطور الفكر البشري الذي لا يمكن ان يكون غير جزء من الفرد البشري نفسه .

والادب الذي يعد مجموعة من القيم الشعرية والقيم التعبيرية رهن بهذه القيم التي لاتعرف عجلة تطورها وقوفا ولا يدرك مصيرها حد ؛ ان تطور هذه القيم التعبيرية والشعرية متواصل وسيرها في التقدم والارتقاء مستمر ، اوليس الشعور حسا يملأ قلب الانسان كلما عاش فترة سعيدة او حقبة رهيبة ؟ اوليس التعبير اخراج هذا الشعور الى حيز الوجود بعدما كان يملأ قلب الانسان وحشو حشاه ؟ اوليس الانسان متعرضا في كل اطوار حياته الى ظروف خاصة ومفاجآت يعتريه فيها شعور قوي خفي أو ظاهر يرتسم في أسارير وجهه ويسري في شرايين جسمه فيفتح فاه أو يلجأ الى قلمه للتعبير عما يختلج في نفسه وما يخامره من الاحساسات والنزوات ؟ وما جميع هذه الاحساسات والاختلاجات الذاتية الا في تطور مستمر مع الانسان منذ خلق الله العالم الى اليوم ، فقد كان التعبير في فجر حياة الانسان بدائيا بسيطا لا يعدو حركات واشارات ، ولكنه ما عتم ان اصبح كلمات واضحة تخرج من اعماق الانسان وتترجمها اللسان باجمل لفظ واكمل بيان . وقديما قال الشاعر العربي زهير ابن ابي سلمى :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده
ولم يبق الا صورة اللحم والدم

وقالت الحكماء : لسان المرء من خدم الفؤاد .

واذا كان من البديهي ان يتطور شعور الانسان مع تطور هذا الاخير ، فمن البديهي كذلك ان يتطور التعبير مع تطور الشعور وان تطرا على التعبير تطورات كبيرة تجعله يستطيع ان يترجم عواطف الانسان واحساساته في مختلف مراحل تطوره ومدارج تقدمه ، وليس من المعقول في شيء ان تظل عواطف الانسان وشعوره منذ الخطيئة الاولى أو الاصلية الى النصف الثاني من القرن العشرين بعدما مر هذا الانسان في نموه وتطوره بمراحل كثيرة عرفها تاريخ البشرية وعاشتها شعوب العالم اجمع .

وبما ان الشعور والتعبير جزآن اساسيان بل اصليان في العمل الادبي ، وبما ان هذه القيم الشعورية والتعبيرية قد تطور تحسب تطور الانسان فمن اللازم ان يتطور العمل الادبي ويساير تيار هذه القيم .

ولعل هذا ما جعل الآداب الانسانية في مختلف الاعصار والامصار المرآة الصادقة التي تنعكس عليها تيارات العصر واتجاهات بني الانسان فيه ، وآلة الالتقاط التي تصور انفعالات البيئات والمجتمعات في مختلف الامكنة والازمنة ، وقد اضطرت الآداب الانسانية ان تعرف في حياتها تبعا لتطورات الانسان وتقلبات الزمان تطورات وتقلبات بقيت لنا خير ذخيرة، تقف بنا على هذه المراحل الحتمية التي مرت بها البشرية منذ عهد الاغريق والرومان ومنذ ما قبل التاريخ الى الآن ، فكل من تصفح تاريخ الآداب الانسانية وتدبر في المراحل التي مرت منها والخطوات التي عرفتها ادرك ان هذه الآداب جزء لا يتجزأ من تاريخ البشرية وانها تحمل في طياتها الكثيفة العميقة صورا خالصة واخبارا صادقة عن تطور الشعوب والمتاهات التي عبرتها الاجيال البشرية طوال تاريخها القديم والحديث .

والادب ملزم بمسايرة هذا التطور ومتابعة سير الاحداث والشعوب والا عد الادب اداة جامدة لا تعرف التكيف ولا تدرك التطور ، ونحن عندما نتكلم عن الادب فاننا نطلق هذا اللفظ العام على الادب كمادة ، كما نعني الادباء الذين يخلقون هذا الادب وينفخون فيه من روحهم ، ومن البديهي ان ما يهم الادب يهم اولا وبالذات الادباء لانهم المعبرون الحقيقيون عن هذا التطور والمترجمون للحركات الادبية في سائر ارجاء الدنيا ، واذا كان العلماء يترجمون تطورات العلم ومدى ما عرفته آفاقه من توسع وانتشار فان الادباء مترجمون لمشاعر البشرية واحساسات بني الانسان في مختلف جوانبها ووجوهها .

وما اجدرنا ان نقف طويلا في هذا المضمار لنحلل الآثار العالمية الخالدة التي اصبحت سجلا حافلا بالانفعالات الانسانية والاحساسات البشرية والمشاعر الفردية والعواطف المتأججة والدافئة التي اعترت بني الانسان في حياتهم منذ بدء الخليقة الى الآن ، ولكن القيام بهذا العمل امر لا يسمح به مثل هذا البحث الذي لايمكن ان يتعدى ظرفا معلوما وحيزا مضبوطا ؛ ولكن هذا لن يمنعنا ان نضرب امثلة حية من ادبنا العربي وغيره من الآداب الانسانية التي عمرت طويلا والتي واكبت التيارات الادبية الجارفة والامواج العلمية العارمة التي عرفت الوجود في تطوره وبرزت مع الكون في نموه وازدهاره .

وما الادب العربي الا مثال حي لكل ما ذكرنا ، فقد استطاع هذا الادب ان يعيش فترة الجاهلية ترجمانا معبرا خالصا عن احوال المجتمع العربي الجاهلي وحاجيات العرب في ذلك العهد السحيق ، ويتجلى امتزاج هذا الادب مع بيئته في المعلقات السبع او العشر التي يمكن ان تعتبر كل واحدة منها صورة صادقة عن العرب آنذاك ، فكل منها تصور مشاعر العرب في تلك الفترة وآمالهم وعواطفهم ، وكل منها تعبير حي عما كان يخالج المجتمع العربي من شعور وانفعالات من فخر وحماسة وبطولة وعصبية قبلية ووفاء سموالي وكرم حاتمي مع شطحات جدلية فلسفية واعتقادية واخلاقية وغزل مناسب لروح ذلك العهد .

ولما بزغ فجر الاسلام وانتشرت دعوته السمحة وآمن بها من آمن من العرب وغير العرب وحصل ما حصل للعرب والمسلمين من تطور في المعتقدات والمعيشة والمعاملات كان لابد للادب العربي في تلك الحقبة الجديدة ان يتطور مع المجتمع ، ذلك ان الدعوة الاسلامية قد نفخت في روح الادب الجديد واصبح هم المسلمين في مشارق الارض ومغاربها نشر هذه الدعوة والجهاد في سبيلها ، ذلك ان العرب اصبحوا ذوي رسالة مقدسة يتعين عليهم حملها الى العالم اجمع من اقصى الشرق الى اقصى الغرب ومن اقصى الشمال الى اقصى الجنوب فحصل بذلك تطور في المشاعر وظهر بهذا تحول في آمال العرب وما يخامر نفوسهم من انفعالات دينية ومؤثرات عقائدية لم يجد الادب بدا من التعبير عنها وتصويرها تصويرا صادقا خالصا يتجلى في اشعار حسان بن ثابت ، وحكم علي بن ابي طالب ، وخطب الخلفاء الراشدين جميعهم وسائر التراث الادبي الذي بقي لنا عن هذه الفترة الاسلامية المجيدة .

وجاء بعد ذلك العصر الاموي والعهد العباسي وما طرأ على المجتمع العربي اثناءهما من مؤثرات خارجية نظرا لاحتكاك العرب بالفرس والرومان وغيرهم من الشعوب الاجنبية ، خصوصا في عهد بني العباس ؛ فما كان على الادب العربي الا ان انسجم مع العهد الجديد ، فأخذ ما اخذ وأعطى ما اعطى ، وبقيت في ادبنا العربي ثروة هائلة تفصح عن التطور الذي طرأ على

العرب والمسلمين وتؤكد مسايرة ادبنا لهذا التطور ، وما ابو نواس وابن الرومي والبحتري وابو العتاهية الا امثلة حية على التيارات التي جرفت الادب العربي وفعلت مفعولها في نفوس شعرائه وكتابه وادبائه الذين لم يجدوا بدا من الانسياق في المسارب الجديدة والمجالي الواسعة والآفاق البعيدة التي تفتحت امامهم .

وليس اسلوب ابي حيان والجاحظ وطريقة عبد الحميد الكاتب هما اسلوب قس بن ساعدة الايادي او احد الكتاب في صدر الاسلام ، كما ان غزل عمر بن ابي ربيعة وجميل بثينة ليس بغزل عنترة بن شداد او امريء القيس رغم صدق عواطف هذين الاخيرين وحرارة شعورهما وشدة احساسهما ، فقد تطورت القيم الشعورية كما تطورت القيم التعبيرية وحصل تطور محسوس في المفاهيم الادبية النثرية منها والشعرية كما حصل تطور ملحوظ في الاتجاهات . وعرفت الامة العربية بعد ذلك هزات عنيفة وثورات شديدة البأس كان الادب العربي يسايرها في سموها وارتفاعها ويكبو معها في كبواتها ، وبين كل ذلك يتجلى لنا الادب العربي منفعلا مع بيئته ، مسايرا للتطورات التي يعرفها المجتمع العربي منسجما مع انفعالات العرب والمسلمين في كل زمان ومكان .

وقد عرف ادبنا العربي بنفسه هذه التطورات التي عاشها العالم العربي والتي كانت ترن في آذان الادباء المغاربة الذين كانوا يكثرون من الرحلات والتنقلات بين اجزاء العالم العربي والاسلامي وربوعه . فكان منهم من يغتنم فرصة الحج ليطوف على بلاد العرب ، وكان منهم من يشتاق الى رؤية اخوانه المسلمين فيفضل حياة التجوال على حياة الاستقرار، وكان من الطبيعي ان يقف هؤلاء المغاربة على احوال العرب والمسلمين ويعتبروا ما يجري من احداث في المجتمعات العربية والاسلامية ويساهموا فيها ، كما وقع لابن خلدون الذي شارك في كثير من المؤتمرات وتدخل في عديد من القضايا الخاصة بالاقطار التي وصل اليها في مطافه كما تولى مناصب عليا في كثير من الاحوال وكما حصل لابن بطوطة الذي اصبح في بلدان كثيرة صاحب الراي ومنفذ الحكم والقضاء ومدبر الامور .

وقطع ادبنا المغربي اشواطا كبيرة في هذا الميدان بين مد وجزر حتى اصاب المغرب ما اصابه من الاحتلال الاجنبي الذي ظل بمعزل عنه في كثير من الاحيان مفضلا الانزواء على نفسه ففتح المغرب وابناء المغرب عيونهم على العالم الجديد ووصلتهم اصداء النهضة الحديثة في الشرق العربي وما يقوم به روادها في مجالي النشر والتاليف ، كما فتح المغرب وابناء المغرب عيونهم على اوربا وما يجري فيها من صراع عقائدي وتنافس بين المدارس الادبية والتيارات الفكرية واطلعوا على الانتاج الاوربي في لغته الاصلية كما اطلعوا عليه بواسطة الترجمة ، فتغير التفكير المغربي وتطور وتحول العمل الادبي في بلادنا وتقدم وظهرت فيما قبل الاستقلال وبعد الاستقلال محاولات جريئة تنبيء باستعدادنا الفطري واستعداد ادبنا للتطور ومسايرة تياره وبرز في الوجود ادباء ومفكرون وكتاب ومؤرخون اعتمدوا على انفسهم للدخول باقلامهم الفتية وافكارهم المتركزة في المعركة الادبية والحركة الفكرية العالمية موجهين الشراع نحو السحب رغم كثافتها وشاقين دياجير الظلام الدامس الذي عاشت فيه بلادنا منذ قرون .

ومن الطبيعي أن يعرف ادبنا تطورا عظيما في هذه الفترة بعد ان تارجح طويلا بين مسايرة التيارات الحديثة والبقاء بمعزل عنها والتكيف مع الاجواء الجديدة والفرار منها ، وهكذا عرفت الثقافة المغربية المعاصرة كيف تطرق مواضيع حيوية كما عرف المغرب القصة في مدلولها الحديث والاقصوصة والبحث المتركز الشامل والمقالة المسايرة لروح العصر وحاجيات انسان القرن العشرين .

اننا لا ننكر انه لازال موجودا في بلادنا شعراء يسيرون على نهج ابن حبوس والجراوي شاعر الدولة الموحدية وعلماء يجترون اسلوب ابي العباس السبتي والقاضي عياض وابو جيدة ، ولكننا لن نستطيع ان ننكر وجود طائفة واعية من الشباب الذين تحرروا في تفكيرهم من تقليد الماضي واندفعوا في مسايرة التيارات الفكرية العارمة التي تعم العالم باسره كعبد المجيد بن جلون والمرحومين عبد الكريم بن ثابت والمعداوي وعبد الجبار السحيمي وعبد الكريم غلاب والدكتور الحبابي والخمار وحسن الطريبق ومحمد برادة ومحمد الصباغ ومحمد التازي وغيرهم رغم اختلاف اتجاهاتهم وتباين ميولهم .

والشيء الذي يتجلى من انتاج هؤلاء الشباب انهم لا يحنـون الى الماضي ولا يجتـرون رواسبـه ولا يتقيدون بما كان يتقيد به اسلافهم في مختلف المراحل التي قطعها تاريخ المغرب ولكنهم يعبرون عن آمـال مواطنيهم وينسجمون مع تيارات التطور التي تجـرف العالم في هذا النصف الثاني من القرن العشرين فمنهم من ارتضى الالتزام في كتابته وشعره ومنهم من فضـل الادب لانه ادب ومنهم من اتخـذ الرمزيـة غايتـه في التعبير ، ومنهم من تشم من كتاباته رائحة الحزن والالم والعجز الى غير ذلك من المدارس الادبيـة المعروفـة والمذاهب الفكرية والفلسفية التي لم تعرفها بلادنا قبل اليـوم .

ونلفت النظر الى ان كلامنا عـن الادب المغربـي لا يعني اننا فصلناه عن الادب العربي العام ؛ فالغاية من التعرض اليه هي الوقوف على التطورات التي عرفهـا هو ايضا والسبل التي سلكها في نطـاق حدود بيئتنـا المغربية ، والا فالادب المغربي جزء لا يتجـزأ من الادب العربي الذي لا فرق بين قيمه الشعورية والتعبيريـة لا في الشرق ولا في الغـرب .

يتبـع

الرباط : عبد اللطيف احمد خالص



الثغور الأسيرة

وجهاد المولى إسماعيل لتحريرها

للأستاذ عبد اللطيف الخطيب

نودي بمولاي اسماعيل سلطانا على البلاد في اليوم السادس عشر من شهر ذي الحجة الحرام لسنة اثنتين وثمانين والف ، الموافق للسابع والعشرين من شهر مارس عام اثنين وسبعين وستمائة والف وهو يبلغ من العمر ستة وعشرين عاما . واذا كانت رقعة المملكة تمتد آنذاك من رأس « اشقار » بطنجة في الشمال الى قلعة « ارغان » بالقرب من ساحل غينيا في الجنوب ، اي 17 درجة تعادل الفا وستمائة من الكيلومترات ، وكان اتساعها من الراس المذكور الى احواز تلمسان بالشرق ، اي 10 درجات تقارب الف كيلومتر ، فان اهم ثغورنا على البحر المتوسط والبوغاز والمحيط جميعا كانت في قبضة العدو . وكان مولاي اسماعيل يعتبر امتلاك النصارى لتلك المواقع الهامة من ارضنا خزيا وسبة وتحديا . وقد اخذ نفسه الكبيرة باتعاب جسمه القوي في تحقيق مرادها الذي هو تطهير المملكة فسار في ذلك السبيل شوطا بعيدا اردنا ان تقصر هذا البحث على ابراز جهاده المبرور في هذا الميدان .

لقد كانت البرتغال واسبانيا اسبق الممالك النصرانية الى الاعتداء على المغرب مسارعة منهما الى البرور بوصايا الكنيسة وحبرها الاكبر وبوصية « ايسابيل الكاثوليكية » ، التي دعت الى مواصلة حرب المسلمين بالانقضاض على شواطئهم واغتصاب ثغورها الهامة ولو قبل انقراض دولتهم بالاندلس أو بعد انقراضها بقليل . وهكذا سارعت البرتغال الى اغتصاب سبتة في السنة الخامسة عشرة من القرن الخامس عشر ، وبعد مضي اثنين وعشرين عاما احتلت البرتغال مدينة طنجة فتبعتها اسبانيا باغتصاب مليلية في السنة السابعة والتسعين من هذا القرن ، اي بعد سقوط مملكة غرناطة الاسلامية بخمسة أعوام . ثم توالت الاعتداءات على ثغورنا عند المحيط فوقعت اصيلا والعرائش والمهدية والجديدة وغيرها في قبضة العدو .

فاما مدينة سبتة فقد آلت الى حكم اسبانيا سنة 1052 هجرية عندما استقل البرتغال عنها في السنة الاربعين من القرن السابع عشر ، وتم الاتفاق بشأنها في اتفاق ابرم بلشبونة . واما طنجة فقد سلمها « الفونسو السادس » ملك البرتغال الى « تشارلز الثاني » ملك انجلترا في السنة الحادية والستين من هذا القرن باعتبارها من مهر اخته ، وقد ظلت طنجة تحت السيطرة البريطانية ثلاثة وعشرين عاما .

ولم يكد مولاي اسماعيل يقضي على الفتن الداخلية في الشمال والجنوب وغيرهما من أطراف القطر وينشر رداء الامن والاستقرار عليها جميعا حتى شرع يعد العدة لرفع العار عنها بتحرير الثغور الاسيرة . وما أن رأت الدول المعتدية ان مولاي اسماعيل قد اخذ الامور بيد الحزم حتى جعلت تبرم الاحلاف فيما بينها على مقاتلته . فقد تحالفت اسبانيا التي كانت تحتل مليلية وسبتة واصيلا والعرائش والمهدية بالاضافة الى حجرة النكور وحجرة بادس مع بريطانيا على مقاتلة المولى اسماعيل للدفاع عن طنجة ، واما اسبانيا والبرتغال فقد تحالفتا على منازلة المغرب بصفة مستمرة وانتهى الامر بهما تحت اشراف الفاتيكان الى تقسيم بلادنا الى منطقتين تبسط اسبانيا نفوذها على شرق البلاد ، وتنشر البرتغال سيطرتها على غربها .

بدا الجيش المغربي الذي كانت امارته بيد القائد عمر حدو هجومه على طنجة عام ثمانية وسبعين وستمائة والف ، فلم تسفر الاغارة الاولى الا على احتلال حصنين واسر عشرين جنديا ، واخذ مدفع نقشت عليه شارة « دون سيباستيان » ملك البرتغال . . . وقد قاوم الانجليز مقاومة عنيفة ضاعفت من باسها استماتتهم بالاسطول الذي كان يزودهم بالنجدات المتواصلة زيادة على اتقانهم لوسائل الحماية

العسكرية واساليب الحرب الحديثة وخدعها . ورغم ذلك فقد تحقق البريطانيون ان مصير طنجة محتوم ومن انها واقعة في قبضة الجيش المغربي لا محالة ، فاعلن حاكمها نية ملكه في ارسال سفير الى مولاي اسماعيل ليباشر مفاوضات الصلح بعد ان طلب اقرار الهدنة لاربعة شهور واجيب طلبه . وجمع السلطان الشرفاء وكبار القوم ليستشيرهم حول ما اذا كان من حقه ان يصالح الانجليز دون ان يكون في مصالحتهم مساس بتعاليم الدين ، فمال الى الاخذ براي القائد عمر حدو الحمامي ، وقاضي العاصمة اللذين اظهراه على مزايا ذلك الصلح ، فامر السلطان امير الجيش بان يمنح السفير جميع الضمانات الضرورية المطلوبة . وفي هذه الاثناء خرجت القوات الانجليزية ذات ليلة من الحصون الداخلية فقتلت عددا هاما من رجال جيشنا . ولما وصل القائد مصحوبا بالقوات المكلفة بحماية السفير القادم ، عقدت هدنة اخرى لستة اشهر يجب عليه خلالها ان يحل بمكناس ، حيث اقتبله السلطان وامضى الصلح لاربع سنين . وحدثت بعض المناوشات قبل استئناف القتال عند انصرام مدة الهدنة الثانية . وكان القتال مريرا حيث بث البريطانيون الالغام داخل الاسوار وفي الميدان المحيط بها ، ولم يستسلموا الا بعد ان هدموا معظم احياء المدينة وخربوا اسوارها وابراجها . وقد تم الاستسلام في شهر ربيع الاول للسنة الخامسة والتسعين من القرن الهجري الحادي عشر ، موافق يبراير سنة اربع وثمانين وستمائة والف . وقتل قائد الحامية الانجليزية اثناء الزحف الاخير على المدينة .

وما كان هذا القتال الشديد الطويل لافتكاك طنجة ليصرف السلطان العظيم عن مواصلة العمل الفعال لتحرير بقية الثغور الاسيرة ، فقد كانت المهدية قد وقعت في قبضة الاسبان سنة عشرين والف وظلت في قبضتهم الى السنة الثانية والتسعين من هذا القرن على ما اورد صاحب « الاستقصا » ، اي طيلة اثنين وسبعين عاما . وكانت المهدية احدى الموانىء المحصنة التي لاتزال بأيدي الاسبان عند البحر المحيط في اواخر هذا القرن . واذا نحن نظرنا في التاريخ الاسباني وجدنا ان قوات الملك « فيليبي الثالث » قد احتلت المهدية يوم ثالث اغسطس سنة اربع عشرة وستمائة والف ، وانه قد جرت محاولتان لاسترجاعها سنة خمس وعشرين ، على عهد « فيليبي الرابع » . الا ان تحرير هذه المدينة لم يكتب الا في السنة الحادية والثمانين من القرن السابع عشر بعد ان قضت سبعا وستين سنة تحت السيطرة الاسبانية . ونلاحظ انه يوجد خلاف حول مدة ثلاث سنوات ولو مع اعتبارنا للفارق بين التاريخ بالشهور الشمسية والشهور القمرية .

وجيش السلطان جيشا يقارب مجموع رجاله خمسة عشر الفا وعقد امارته للقائد عمر حدو لاسترداد المهدية ، وكان معظم المجاهدين من شمال القطر ومن اهل جبال الريف على الاخص لانهم كانوا يعتبرون نخبة الجيش المغربي بمصابرتهم المثالية في القتال . وقد استسلمت الحامية الاسبانية يوم الخميس رابع عشر ربيع الثاني من سنة اثنين وتسعين والف الموافق لثلاثين ابريل من السنة الحادية والثمانين من القرن الميلادي السابع عشر ، وقيل انها استسلمت في اليوم التالي . وقد روى بعض المؤرخين انه لم يجر قتال حول المدينة وانما اخذت بقطع الماء عنها . غير انه من المحقق ان عمرو حدو قد اجتاز في جيشه حواجز المدينة التي كانت تمتد الى نهر سبو . ثم أغار على حصنين من حصونها فاستسلمت الشرذمة المكلفة بالدفاع عنهما بعد قتال مرير . ولو كان قطع الماء عنها كافيا لارغام حاميتها على الاستسلام لما فشلت المحاولتان السابقتان لتحريرها . وقرر امير الجيش ان يترك الاسرى احرارا شريطة ان يذهبوا الى المدينة فيطلبوا من حاكمها تسليمها للسلطان الذي يلتزم بالابقاء على أرواحهم واحترام امتعتهم ان استجابوا ، والا امر بذبحهم اذا هم رفضوا وغلبوا على امرهم فيما بعد . وكان الجنود موقنين بهزيمتهم في النهاية فامسكوا عن القتال . وحضر مولاي اسماعيل هذا النصر فامن امير الجيش الاسباني واصحابه الاقربين بعد ان وقع في قبضة جيشنا ما يزيد على الالفين من الاسرى . واصدر السلطان امره الى قائد الحامية المستسلم بالذهاب الى العرائش ليدعو حاكمها الى الاستسلام ايضا . الا انه لم يكد يبلغ هذه المدينة حتى اعتقل بدعوى الخيانة وبعدم نهوضه بواجبه العسكري على النحو المطلوب .

وكانت العرائش اكثر اهمية من المهدية وتفوقها من جميع الاعتبارات ، فصح عزم اسماعيل الاكبر على تحريرها . ففي اواخر شهر شوال عام مائة والف الموافق لسنة تسع وثمانين وستمائة والف سار القائد ابو العباس احمد بن حدو البطوئي الى العرائش فحاصرها مدة لا تقل عن ثلاثة شهور ونصف ، وقيل ان الحصار قد استمر خمسة اشهر كاملة . وكان القتال شديدا عانى المغاربة فيه محنا كبرى قبل ان يجيء الفتح يوم الاربعاء 18 محرم من السنة الهجرية التالية . وبلغ عدد أفراد الحامية الاسبانية ثلاثة آلاف

وماتين اسير منهم الفان فسيقوا الى مكناس حيث استخدموا في بناء بعض القصور وترميم البعض الآخر. وقد كان افتكاك العرائش نصرا مبينا لمولاي اسماعيل وعملا باقيا من اعماله المجيدة .

وما كان هذا النصر العظيم باسترداد العرائش التي استولى عليها الاسبان على عهد المامون السعدي يوم 20 نونبر سنة عشر وستمائة والف بقيادة « الماركيس دي سان خيرمان » ليقعد بالسلطان عن مواصلة الجهاد لتحرير غيرها من الثغور المحتلة . فقد خضعت العرائش للاسبانيين مدة لا تقل عن تسعة وسبعين عاما . ولم يكد المجاهدون ينهون هذه المعركة حتى توجهوا الى اصيلا فحاصروها حولا كاملا قبل ان يملكوها في السنة الثانية من القرن الهجري الثاني عشر التي وافقت سنة احدى وتسعين وستمائة والف. ولم يتم تحرير هذه المدينة الا بعد ان قضت في قبضة الاسبان قرنا وسنتين ، اذ انها وقعت في أيديهم في السنة التاسعة والثمانين من القرن السادس عشر . وامر السلطان باسكان اهل الريف في هذه المدينة كما فعل من قبل في العرائش التي اكبر فتحها فنهى عن لبس النعال السود وامر باستبدالها بالنعال الصفر اشارة الى اهمية الفتح ، فقد جرى ايثار اللون الاسود في بعض الملبوسات لدى سكان بعض مدننا الشاطئية حزنا على ضياع الاندلس نظرا لاستقرار الكثيرين من النازحين عنها بتلك المدن . وكان البرتغال قد سبق الى احتلال اصيلا سنة احدى وسبعين واربعمائة والف ، اي في نفس السنة التي اغتصب فيها طنجة . ولم يغادرها البرتغاليون الا بعد هزيمتهم في وقعة وادي المخازن يوم رابع اغسطس عام ثمانية وسبعين وخمسمائة والف .

ولما توالت الانتصارات المغربية قامت الكنيسة في اسبانيا والبرتغال باستنفار مختلف الطبقات وترغيبها في المسارعة الى قتال المسلمين الذين يوشكون ان يعيدوا الكرة على شبه الجزيرة اذا ما استرسلت فتوحاتهم على هذا النحو . وفي هذا الوقت امر مولاي اسماعيل باعلان التجنيد العام في الشمال لافتكاك سبتة فقام على حصارها خمسة وعشرون الفا . وبدا الحصار الشديد في السنة الرابعة والتسعين من القرن السابع عشر فاستمر ثلاثين عاما الى أن مات القائد ابو الحسن علي بن عبد الله الريفي فولي مكانه ابنه ابو العباس احمد بن علي . كما قام جيش مولاي اسماعيل بمحاصرة مليلية حولين كاملين في اعقاب هذا القرن ايضا . الا ان متانة التحصينات التي اقامها البرتغاليون من قبل ونجاح الاسطول في ايصال الذخيرة والسلاح والجند والمؤونة بصورة مستمرة منتظمة وقيام بعض الفتن الداخلية قد حالت دون مولاي اسماعيل وتحقيق رغبته الملحة في تحرير هذه المدينة ذات الاهمية الموقعية الكبرى .

والى معظم هذه الاسباب نفسها يرجع نجاح الاسبانيين في مقاومة الحصار واحباط محاولات استرداد مليلية : الا ان جهود مولاي اسماعيل قد ارغمتهم على البقاء مطوقين داخل اسوارها وابراجها كما كان الشأن في سبتة ايضا . وكان الاسبانيون قد استولوا في الثالث والعشرين من شهر يوليوز لسنة 1508 على حجرة بادس بقيادة « بيدرو نافارو » ثم استرجعها المغاربة بعد اربعة عشر عاما . الا ان الاسبان عادوا الى اغتصابها في الثامن من شتنبر للسنة الرابعة والستين من هذا القرن ايضا . واحتل الاسبان حجرة النكور بعد هذا التاريخ بتسع سنوات ، اي في اليوم الثامن والعشرين من اغسطس 1673 ، وهي السنة التي تلت والتي بويع فيها المولى اسماعيل . ولم تباشر الحملات الجدية لاسترداد هاتين الصخرتين في هذا العهد ، فقد تاخرت المحاولة الجدية الى عهد مولاي محمد بن عبد الله عندما قام سنة 1774 بمحاصرة مليلية والاغارة عليهما دون ان تكلل تلك الجهود الموصولة بالنجاح المأمول .

وكانت الجديدة في قبضة البرتغال فحوصرت مرات متعددة دون ان يكتب فتحها في عهد المولى اسماعيل ، وانما حدث بعد قتال مرير سنة 1182 على عهد مولاي محمد بن عبد الله ، اي بعد مائة سنة من التاريخ الهجري على مبايعة أبي النصر . وكان البرتغاليون يكثرون من محاولات التوغل في داخل البلاد ويباغتون بهجماتهم الشديدة سكان الشواطيء والداخل على السواء . فقد خرجوا ذات ليلة من الجديدة وهاجموا مدينة ازمور التي تبعد عنها بمسافة خمسة عشر كيلومترا فخربوا بعض اسوارها التي كانت من بنائهم ابان احتلالهم لها وقتلوا عددا كبيرا من سكانها . وقد دام حكم البرتغاليين للجديدة مائتين وستين عاما تقريبا .

وقام مولاي اسماعيل ببناء ست وسبعين قصبة بمختلف انحاء القطر وجعل قسما هاما منها لحماية السواحل وتمكينها من وسائل صد الغارات الاجنبية عليها ، فقد كانت تلك الغارات سببا في الكثير من

المصائب الماضية والباقية التي تكبدها وطننا . كما قام مولاي اسماعيل على تعزيز الاسطول فزوده بمراكب جهادية عديدة حتى ذهب المؤرخون البرتغاليون والاسبانيون والفرنسيون الى التاكيد بان أوربا اللاتينية لم تكن في مامن على عهده ، اذ كان اسطوله يغير على موانئها الهامة ويقطع مواصلاتها التجارية ويحبط الكثير من برامج الغزو والتدويخ التي كانت تدبر بشبه الجزيرة على الاخص . . .

وقد توفي مولاي اسماعيل يوم السبت 28 رجب سنة تسع وثلاثين ومائة والف ودفن رحمه الله بضريح الشيخ المجذوب بمكناس بعد أن عمر ثلاثة وثمانين عاما قضى سبعة وخمسين منها سلطانا على البلاد . وقد وافقت سنة وفاته الهجرية العام السابع والعشرين من القرن الميلادي الثامن عشر . وعاصر مولاي اسماعيل كبار الملوك باوربا التي كانت لها صلة وثيقة بالمغرب آنذاك ، وفي مقدمتهم لويس الرابع عشر ملك فرنسا وجاك الثاني ملك انجلترا . اما من ملوك اسبانيا فقد عاصر « كارلوس الثاني » الذي حكم بلاده طيلة خمسة وثلاثين عاما وانتهى ملكه سنة سبعمائة والف .

واذا كانت اسبانيا قد استولت خلال السنة الثانية لولاية مولاي اسماعيل على « حجرة النكور » كما تقدم ذكرها قد فقدت المهدية والعرائش واصيلا وقاومت الهجوم الاسماعيلي الاول على سبتة سنة اربع وسبعين وستمائة والف ، ثم الهجوم الثاني بعد ستة اعوام قبل ان يضرب الحصار الطويل الذي ابتدا في السنة الرابعة والتسعين ودام ما يزيد على ثلاثة عقود . ووقع الهجوم على مليلية مرتين في عهد ابي النصر كان اولهما سنة سبع وثمانين وستمائة والف ، اما الهجوم الثاني فجرى بعد تسعة اعوام حيث استمر الحصار سنتين . كما عاصر الملك « فيليبي الخامس » اول ملوك اسرة « بوربون » التي حكمت اسبانيا من مطلع القرن الثامن عشر الى قيام الجمهورية في الرابع عشر من شهر ابريل للسنة الحادية والثلاثين من قرننا هذا اذا استثنينا فترة الجمهورية الاولى التي استمرت احد عشر شهرا في اوائل الثلث الاخير من القرن المنصرم . غير انه لم تقع احداث هامة تتعلق بالمغرب على عهد هذا الملك .

ولقد راينا في هذا العرض الموجز الشوط البعيد الذي قطعه مولاي اسماعيل في تحرير الثغور الاسيرة عند البحرين والبوغاز جميعا ، ووقفنا على مدى نصيبه الموفور من النجاح في ذلك المسعى الجليل .

الرباط — عبد اللطيف الخطيب



ديبلوماسية بسمارك

للمؤرخ : بيير رونفن
ترجمة الاستاذ : عبد الحق بنيس

(وهذا فصل آخر ننقله الى قراء العربية من كتاب ((أوج أوروبا)) الذي يكون الجزء السادس من سلسلة ((تاريخ العلاقات الدولية)) . ان هذه السلسلة التي ألف بعض أجزائها بنفسه المؤرخ العلامة بيير رونفن رئيس قسم التاريخ بجامعة السوربون والتي نشرت كلها تحت ادارته ، لمن الاهمية بمكان سواء بالنسبة لطلاب التاريخ او عشاق الثقافة العامة أو رواد العلوم السياسية . ونظرا لاهميتها هذه فاننا ـ كما سبق لمجلة ((دعوة الحق)) القراء ان اوردت في انبائها الثقافية ـ عاكفون بحول الله على نقل اجزاء هذه السلسلة الهامة الى لغة الضاد . والله ولي التوفيق) .

- 1 -

يشكل تطاحن العواطف القومية واصطدام التوسيعات الاستعمارية بعضها بالبعض الآخر ، النسيج الاساسي الذي ارتسمت عليه المصاعب السياسية في اوروبا ، ومع ذلك فلا ينبغي ان نبالغ في اهمية ((الازمات الديبلوماسية)) ، باعتبار ان الدول العظمى لم تكن راغبة في الحرب . الا ان الكل كان مقتنعا بامكانية حدوث نزاع عام ، وعليه كانت كل دولة تسعى في انشاء وضع خاص اما لتجنب النزاع او لمواجهته في احسن الظروف والاحوال . كان بسمارك وسط هذا الخضم من النشاط السياسي يمسك بزمام الموقف . وقد عرف كيف يستغل تناقض المصالح واختلافها لتظل السيادة في القارة مضمونة للدولة الالمانية. لكن كثيرا ما كان يزعجه هذا التناقض في المصالح ولا سيما في البلقان حيث النزاع على اشده بين روسيا ، والنمسا ـ هونغاريا .

فكيف استطاع المستشار الامبراطوري (الوزير الاول) أن يقود سفينته بنجاح الى ان غادر الحكم سنة 1890 (*) وكيف استطاع ان يجمع من حوله نظاما من تحالفات واتفاقات ضمنت له هيمنة المانيا ؟ ان العمل الديبلوماسي هنا لم يكن مجرد مساومة بل عبارة عن بناء ((جهاز)) ظل بقاؤه يحتل الدرجة الاولى في شواغل الحكومات والشعوب . ولذلك خصصنا له بحثا منفردا : اننا لو ضربنا صفحا عن هذا النشاط الديبلوماسي ، او على الاقل لو جهلنا خطوطه العامة لاصبح من المستحيل علينا ادراك المخاوف التي استولت على الاوساط السياسية وأوساط الراي العام سواء بسواء .

* * *

وضع مستشار الامبراطورية اول قطعة في ((جهازه)) خلال شهري مايو ويونيه 1873 ؛ ويتعلق

(*) ولد اتوفون بسمارك سنة 1815 ونشأ في وسط نبيل اذ كانت عائلته من طبقة نبيلة ولج اولا سلك الوظيفة ثم تخلى عنها ليعمل في ميدان الفلاحة . وبعدها انتخب عضوا في الجمعية التاسيسية سنة 1848 وظل يتقلب في وظائف سامية الى ان حانت سنة 1862 سنة تكليفه من طرف العاهل غيلوم الاول برئاسة الوزارة ، واهم شيء سجله له التاريخ هو تحقيقه للوحدة الالمانية الى جانب حذاقته في الحقل الديبلوماسي (المترجم)

الامر « بوفاق الاباطرة الثلاثة » . (※) يستند هـذا الحلف على نصين : الاول وهو عبارة عن اتفاق الماني ـ روسي وقع عليه في 6 مايو 1873 ، يقول هذا الاتفاق : « اذا هوجمت احدى الامبراطوريتين من دولة اوربية قدمت لها في اقرب اجل ممكن نجدة في حدود مائتي الف رجل من الجنود العاملين(※) . ليس هذا الاتفاق بمعاهدة من حيث الشكل ، وهو لا يحمل الا توقيع العاهلين ، ناهيكم عن انه ابرم الى اجل غير محدود . ولكن كان في الامكان فسخه بعد تقديم اعلام سابق بسنتين ؛ اذن فلهذا الاتفاق صبغة حلف دفاعي . والنص الثاني عبارة عن اتفاق نمساوي ـ روسي وقع عليه بتاريخ 6 يونيه 1873 . وليس هو بمعاهدة تحالف ، بل هو فقط وفاق شخصي بين الامبراطور فرانسوا جوزيف والقيصر الاسكندر ، اللذين تعاهدا على « التشاور » فيما بينهما كلما وقع خلاف بين دولهما المعنية او اصبح الامن مهددا « بعدوان آت من دولة ثالثة » . وقد انتسب الامبراطور الالماني الى هذا الاتفاق بواسطة ميثاق 22 اكتوبر 1873 .

ان تأويل السياسة الالمانية يبدو سهلا من اول وهلة . وهو أن بيسمارك ، باتفاق مع النمسا ـ هونغاريا ومع روسيا ، اراد ان يقيم حصنا منيعا في وجه التحول الذي وقع على الحكومة الفرنسية في 24 مايو 1873 : اعني سقوط تيير THIERS ومجيء ماكماهون MAC-MAHON الى الحكم . ان هذا الايضاح يتداعى امام تحري الوثائق ، لان ممهدات السياسة البيسماركية ترجع الى صيف 1872 وهي الفترة التي اظهر فيها تيير رغبته في دفع غرامة الحرب باسرع مما قررته معاهدة فرانكفورت (※) . وفي 8 و 9 شتنبر 1872 كان الاباطرة الثلاثة قد اجتمعوا في برلين لتبادل وجهات النظر الاولى التي تقدمت ابرام اتفاقات 1873 . ثم ان الاتفاق الالماني ـ الروسي قد وقع في 6 مايو 1873

اي قبل سقوط تيير بثلاثة اسابيع تقريبا ، وعليه ففي الوقت الذي كان يصرح بيسمارك بانه راض عن السياسة الفرنسية وانه مطمئن من التنفيذ « الحرفي » لمعاهدة فرانكفورث ، في هذا الوقت بالذات كان يعمل على عزل فرنسا . وبالفعل كانت سياسة الضمانات الدبلوماسية هذه ضرورية في نظر المستشار الالماني، بعد ما راى نجاح القرض « من اجل تحرير الارض الفرنسية » ،والتصويت على القانون العسكري ليونيه 1872 (※) . نعم راى في هذا وذاك دليلين على نهضة سريعة في فرنسا ، كما راى ان المانيا ستفقد بعد عهد قصير ذلك الامن الذي يضمنه لها وجود جيوش احتلالها فوق الارض الفرنسية .

بل ان بيسمارك كان يرمي من وراء لعبة هذه الاتفاقات الى « مراقبة » السياسة الروسية والسياسة النمساوية ـ الهنغارية ؛ كان يقول انني استطيع ان احتفظ بالجارين « مشدودين برباط واحد » . الا ان التسويات سكتت عن القضايا التي كانت اعوص ، القضايا التي من شانها ان تجعل مصالح روسيا والنمسا ـ هونغاريا في البلقان على طرفي نقيض . والواقع ان الحكومات الثلاث خضعت لعوامل متباينة، فالمانيا سعت في السند الروسي بقصد احباط كل محاولة فرنسية للاخذ بالثار (※) وروسيا لم توقع الاتفاق مع المانيا الا لتفادي كل تقارب وثيق بين الامبراطوريتين المركزيتين ، والنمسا ـ هونغاريا لم ترفي « وفاق الاباطرة الثلاثة » الا امتيازا خولته لبيسمارك لكي يعمل على اصلاح المستقبل . اذن « فالجهاز » ضعيف البنيان . ولم يلبث بيسمارك ان ادرك ذلك ، حيث ان الازمة التي اندلعت في سماء العلاقات الفرنسية الالمانية في ربيع 1875 كانت بمثابة امتحان للاتفاق الالماني ـ الروسي ؛ وقد اتى هذا الامتحان مخيبا لسياسة المستشار .

(※) هم امبراطور المانيا ، وقيصر روسيا ، وامبراطور النمسا ـ هونغاريا (المترجم)
(※) كتب النص الاصلي للاتفاق باللغة الفرنسية (المؤلف)
(※) هي المعاهدة التي وضعت حدا لحرب السبعين بين المانيا وفرنسا نابليون وكان من نتائجها فصل الالزاس واللورين عن فرنسا وضمها الى المانيا مع دفع غرامة الحرب على اقساط . (المترجم)
(※) جعل هذا القانون الخدمة العسكرية اجبارية وحددها بخمس سنوات (المترجم)
(※) الثار لهزيمة حرب السبعين (المترجم)

ان وفاق الاباطرة الثلاثة الـذي تضعضـع اولا « بفارة » 1875 (*) ، لم يستطع ان يصمد امام الازمة البلقانية التي وقعت سنتي 1877 و 1878 : ففـي نهاية سنة 1878 انهار « الجهاز » الـذي انشـأه بيسمارك سنة 1873 . بيد ان المستشار بعد قليـل سوف يحاول اعادة انشائه على اسس جديدة تقريبا . لا شك انه في سنة 1879 لو اضطر الى الاختيار بين روسيا والنمسا ـ هونغاريا لفضل هذه الاخيرة . ومع ذلك فقد نجح في اقامة علاقة من جديد مع روسيـا . فعل هذا في الوقت الذي استطاع ان يكتسب بواسطة التحالف مع ايطاليا وسيلة « لكبح جماع » فرنســا (1882) . ان اجزاء « الجهاز البيسماركي » الجديد هي **التحالف النمساوي ـ الالماني ومعاهدة الاباطـرة الثلاثة والتحالف الثلاثي .**

كانت الحكومة النمساوية ـ الهونغارية تأمل منذ سنة 1871 في تحالف مع المانيا . وعنـد مـا تبنـى بيسمارك هذه الرغبة في سنة 1879 كان قد اعطـى بطبيعة الحال لسياسته اتجاها « مناوئـا للروس » ، وهذا ما يطابق اهدافه العامة . فلماذا قرر اتخاذ هذه السياسة ؟ كان يخشى ان تعمد النمسـا ـ هونغاريـا لو ظلت منفردة الى اقامة تحالف مع فرنسا او بالحري الى السعي في اتفاق مع روسيا دون المانيا . ومنـذ شهر يونيه 1879 صرح لسفير فرنسا بقولـه ، « ان الصداقة مع النمسـا ـ هونغاريا ستصبح يوما بعد يوم اساسا للسياسة الالمانية » واما الحادث الذي طرأ في شهر غشت 1879 ـ رسالة وجهها القيصر الى غليوم الاول اشتكى فيها بلهجة شديدة من موقف بيسمارك، وبها اشارة الى « العواقب الخطيرة » التي قد تترتب عن ذلك ـ فلم يكن سوى فرصـة اغتنمها المستشـار لاتخاذ المبادرة التي ظل يحلم بها منذ شهور . ففـي 27 غشت 1879 اقترح على اندراسي (رئيس الوزراء في النمسا ـ هونغاريا) ابرام حلف دفاعي .

وقد قبل المبدا بسهولة الا ان صعوبات اعترضت طريقه حينما وضعت مسألة تحديـد **الجبهـة** التـي سيبرم الحلف ضدا عليها . قال بيسمارك انـه حلف عام . اما اندراسي فلم يقبل ان يسـاند المانيا في حالة ما اذا هوجمت من قبل فرنسا وانما كان يريد ان يوجه الحلف فقط ضد روسيا . وقبل بيسمارك ذلك الا انه اصطدم بمقاومة الامبراطور غليـوم الاول الـذي كان يعتقد ان النمسا ـ هونغاريا سوف لن تنسى حـرب 1866 (*) وانها بالتالي سوف لا تكون حليفا مخلصا ، ثم كان يرغب في الاخذ بخاطر روسيا التي على حـد تعبيره لا تكون « نوايا عدوانية » لالمانيا . وهكذا كتب الامبراطور في 10 شتنبر الى بيسمارك يقول له : «انني لا اسمـح لك بابرام اتفـاق او حلـف مـع النمسا ـ هونغاريا » . وعند ما هدد المستشار بتقديم استقالته لم يجد غليوم الاول بدا من اعطاء موافقته شريطـة ان لا يرد اسم روسيا في المعاهدة . وبما ان اندراسي لم يقبل هذا الشرط (لانه لم يكن يريد ان يوقع على نص قد يكون موجها ضد فرنسا او انجلترا) فقد تعـدى بيسمارك حدود التعليمات الرسميـة التـي اعطاهـا الامبراطور . وغضب غليوم الاول عند ما قدمت لـه صيغة المعاهدة وقد ذكرت فيها روسيا بوصفها الخصم الوحيد ثم قال : « من المستحيل على ان اصـادق على هذه المعاهدة لان ذلك مخالـف لعقيدتـي ولشيمتـي ولشرفي » . ولكن كان من الـلازم ان يوافـق عليهـا لان بيسمارك هدده باستقالةجماعية للوزراء ، فانتفخت اوداج الامبراطـور وقال : « ان الذين يرغمونـني على هذا القرار سيتحملون مسؤوليته امام البارىء الاعلى»

في 7 اكتوبـر 1879 ابرمـت معاهـدة التحالف النمساوية الالمانيـة . وتقـول هـذه المعاهـدة : اذا هوجمت احـدى الدولتين من قبـل روسيـا ، فـان الدولتين ستضعان كافة قواتهما ضدا على هذه الدولة

(*) في مارس 1875 صوتت الجمعيـة الوطنيـة الفرنسية على قانون اطارات الجيـش ، اي الزيادة في عدد الضباط وضباط الصف دون عـدد الجنود . وقد اقدمت فرنسا على هذه الخطوة لمعالجة ازمة الترقيات في الجيش ، بينما اعتبرت المانيا ذلك دليلا على ان فرنسا تنوي القيام بالحرب ،فصرحت للسفير الفرنسي انها سوف لا تتورع عن القيام بحرب وقائية ،فتازمت العلاقات بين البلدين واخذت صبغة دولية وتوجـه القيصر الروسي بنفسه الى برلين للتحادث في هذا الموضوع واعربت بريطانيـا العظمى عن قلقها ثم قالت المانيا انني لا انـوي القيام بالحرب الوقائية ، وعندها اطمأن بال الحكومة وهدأت العاصفة (المترجـم)

(*) في قضايا تخطيط الحدود بين دول البلقان (المؤلـف)

(*) الحرب التي خاضها بيسمـارك ضـد النمسـا لتحقيق الوحدة الالمانية (المترجم)

المهاجمة ، وفيما اذا وقع هجوم من قبل دولة اخرى فان الدولتين تتعاهدان فقط على الوقوف موقف « الحياد المشفوع بحسن الالتفات » .

اذن فقد القى بيسمارك فى الميزان بسلطته كلها لكي يفرض على الامبراطور الحلف النمساوي – الالماني الموجه ضد روسيا وبذلك يكون فيما يظهر قد عدل عن الفكرة التي استوحى منها سياسته فى سنة 1873 ومع ذلك ففي 14 شتنبر – اي فى نفس الوقت الذي وصلت فيه المفاوضات النمساوية – الالمانية الى المرحلة الحرجة – كان قد شرح فى رسالة له الى السفير الالماني فى فيينا المقصود من هدفه الجديد . قال له : ان روسيا فى اليوم الذي ستلاحظ فيه وجود حلف بين النمسا – هونغاريا والمانيا ستشعر بخطر عزلتها وستطلب من تلقاء نفسها اعادة اقامة « الجهاز القديم للاباطرة الثلاثة » ، وستكون المانيا مستعدة لتلبية هذا الطلب . وفى نظر المستشار ان ابرام المعاهدة النمساوية – الالمانية ينبغي ان يكون وسيلة للضغط على الحكومة القيصرية لحملها على الدوران فى الفلك البيسماركي . ليس من شك فى ان الامبراطورية الروسية سوف لا تستطيع ان تجد من جديد فى هذا الوفاق الجديد للاباطرة الثلاثة تلكم المكانة التي احتلتها سنة 1873 اعني انها سوف لن تكون الجزء الهام فى « الجهاز » ما دام بيسمارك قد التزم بتعهدات ازاء النمسا – هونغاريا . ولكن بما ان هذه التعهدات تكتسي فقط صبغة دفاعية فان روسيا تستطيع ان تعتمد ايضا على المانيا فى الوقوف موقف الحياد النبيل ، على شرط الا تقدم روسيا على مهاجمة النمسا – هونغاريا . فالمهم ان يتصرف المستشار بكيفية تجعل روسيا تقدر وتتمنى هذا الموقف النبيل . ولحمل القيصر على نسيان المرارة التي خلفتها فى نفسه حوادث البلقان كان من الكافي ولا شك اشعاره بخطر العزلة ، ذلكم كان موضوع المناورة . ولكن كان من اللازم كذلك تصور ما اذا لم ينجح هذا العمل ، وما يجب اتخاذه من احتياطات للوقوف فى وجه العداء الذي قد تعلنه الحكومة الروسية يوم تعلم بوجود التحالف النمساوي – الالماني .

ولعل الدور القصير الذي لعبته محادثات انجليزية – المانية كان يقصد منها الوصول الى هذا الهدف المزدوج . ففي 16 شتنبر – اي بعد مرور يومين فقط على الرسالة التي وجهها الى سفيره فى فيينا معبرا عن رغبته فى استئناف التفاوض مع روسيا – كلف بيسمارك سفيره فى لندن بان يستوضح نوايا بريطانيا العظمى فى حالة وقوع نزاع الماني – روسي . واجاب دزرائيلي (*) بان انجلترا فى حالة كهذه ، سوف تكون مستعدة تمام الاستعداد لابرام حلف مع المانيا موجه ضد روسيا . اما فيما يخص فرنسا فان الحكومة الانجليزية ستتكلف « بمراقبتها » واجبارها على « الوقوف موقف الحياد » فى حالة ما اذا ارادت ان تتدخل فى النزاع . واظهر بيسمارك خيبة امله . « مراقبة فرنسا فقط ؛ لا زائد على ذلك ! » . ثم اعطى لسفيره الامر بقطع المحادثة . هل كان المستشار عند ما قام بضربة السبر هذه ، يفكر حقا فى الحصول على سند من بريطانيا العظمى فى حالة حدوث قطيعة بينه وبين روسيا ؟ لعله كان يقصد من وراء ذلك الى هدف آخر : فقد كان يعلم ان مساعيه فى لندن سوف لا تظل – من غير شك – مجهولة من قبل الروس وانها سوف تثير فى نفوسهم بعض المخاوف . اذن حق له ان يفتخر بالنجاح لان الديبلوماسي الروسي سابوروف SABOUROF يأتي فى 29 شتنبر الى برلين ويطلب مقابلة . قال فى هذا الصدد : « انني كنت اعلم جيدا ان الروسي قد يأتينا من جديد بمجرد ما نصير مرتبطين بالنمساوي » . وبمجرد ما رأى بوادر نجاحه لم يعد يعلق ادنى اهمية على الاتصال ببريطانيا العظمى .

وستبتدىء عما قريب المحادثات الالمانية – الروسية . واعرب بيسمارك عن استعداده – دون التخلي بطبيعة الحال عن الاتفاق النمساوي – الالماني – لاعادة انشاء وفاق الاباطرة الثلاثة . وقبل القيصر بهذا الاحتمال لانه كان يأمل عن طريق اشتراكه فى الجهاز البيسماركي الجديد ان يضمن على الاقل حياد المانيا والنمسا – هونغاريا فى حالة حدوث نزاع انجليزي روسي . ولكن الذي عاق سير المفاوضة انما هو موقف النمسا – هونغاريا ، فمنذ حصولها على التحالف مع المانيا وهي تتمنى ان لا يعاد انشاء جهاز لم تكن لتقبله فى البدء الا على مضض : فما هي الفائدة التي ستجنيها من وراء التحالف مع روسيا بل ان التحالف معناه تحديد حرية عملها فى البلقان ؟ ولكن عبثا ظل هيميرلي (HAYMERLE) الذي خلف اندراسي ، يكثر من الاعتراضات ويماطل فى المحادثات . وادى الامر فى النهاية ببيسمارك الى وضع الحكومة النمساوية – الهونغارية فى مأزق . قال

(*) الوزير الاول البريطاني آنذاك (المترجم)

بيسمارك : « اذا رفضت النمسا ـ هونغاريا معاهدة مع روسيا فانها ستقسل ويجب عليها ان تقبل كذلك باخطار هذا العمل وشروره » . كان التهديد بافساد الحلف النمساوي ـ الالماني كافيا لحمل هيميرلي على الاستسلام .

ابرمت المعاهدة الجديدة للاباطرة الثلاثة فى 18 يونيه 1881 . فهل هي تحالف ؟ كلا ؛ انها ليست سوى « وفاق . فلم تتعاهد الدول الثلاث على اي عون مسلح ولكن على « حياد نبيل » فقط فى حالة « وجود احدى الدول المتعاقدة فى حرب مع دولة رابعة » أجل فى حالة وقوع حرب فرنسية ـ المانية فان روسيا تتعهد بالبقاء على الحياد ولو كانت المانيا هي المبادرة بالهجوم . وكذا الشأن فيما يرجع لالمانيا والنمسا ـ هونغاريا ، اذ على هاتين الدولتين ان تظلا على الحياد فى حالة حدوث حرب انجليزية ـ روسية ولو كانت روسيا هي المثيرة للحرب . الا ان الشرط الاساسي لدوام هذا الوفاق هو بطبيعة الحال تفادي استيقاظ المصاعب بالبلقان . ولذلك التزمت الدول الثلاث «باخذ مصالح كل واحدة منها فى البلقان بعين الاعتبار» كما تعهدت كل واحدة بان لا تقبل ـ الا عن طريق الاتفاق الجماعي ـ بأي تعديل ارضي قد يحدث على الخريطة القانونية للدولة العثمانية . وبواسطة بروتوكول منفصل سمح للنمسا ـ هونغاريا بالحاق البوسنة والهرسك فى اجل غير محدود ، وكانت تملك منذ سنة 1878 حق الادارة فى هاتين المقاطعتين . وبالمقابل اصبح بوسع روسيا ان تضم الرومالي الى بلغاريا . وابرمت المعاهدة من اجل ثلاث سنوات ، وكانت سرية .

والآن ما هي الفائدة التي جنتها من هذه المعاهدة كل دولة من الدول الثلاث ؟ لقد حصلت المانيا على وعد بحياد روسيا فى حالة حدوث حرب فرنسية ـ المانية واخذت روسيا ضمانة من الامبراطوريتين المركزيتين بعدم التدخل فى نزاع انجليزي ـ روسي وتلكم ضمانات هامة بالنسبة لالمانيا وروسيا . اما النمسا ـ هونغاريا ، فعلى العكس لم تكسب ما يرضيها لان معاهدة الاباطرة الثلاثة ، وان كانت لا تمس اطلاقا بالحلف الدفاعي المبرم سنة 1879 ، الا انها تلزم الحكومة النمساوية ـ الهونغارية باحترام مصالح الروس فى البلقان وبالتالي تحدد المنافع التي توختها من الحلف . وهذا بالضبط ما اراده بيسمارك : فقد غدا فى وسعه « ان يلجم » بواسطة معاهدة الاباطرة الثلاثة ، السياسة البلقانية التي تنهجها حليفته النمسا ـ هونغاريا ، ثم يصبح بعدها حكما فى الخلافات بين النمسا ـ هونغاريا وروسيا ثم متحكما فى الجارين « مشدودين برباط واحد » .

ومع ذلك لم تقف السياسة الالمانية عند هذا النجاح ، فقد اضافت الى التحالف مع النمسا ـ هونغاريا والى الوفاق مع روسيا حلفا مع ايطاليا (1882) .

اما وان الحكومة الايطالية ترغب فى الدخول الى « الجهاز البيسماركي » فهذا ما يبعث على الاندهاش. كانت ايطاليا بلادا ضعيفة ؛ وكانت بحاجة الى التأييدات الخارجية لتظهر بمظهر الدولة العظيمة . وقد فكرت حكومتها سنة 1873 ، فى تقارب من المانيا . وما كان من خيبة الامل التي منيت بها سنة 1881 فى المسالة التونسية الا ان قوت فى نفسها هذه الرغبة . لكن ، منذ ابرام التحالف مع النمسا ـ هونغاريا ، اصبحت الحكومة الايطالية ، فيما لو ارادت الحصول على اتفاق مع الامبراطورية الالمانية ، ملتزمة كذلك بالاتفاق مع النمسا ـ هونغاريا التي ما فتئت تملك اراضي يتكلم سكانها اللغة الايطالية . فهل ينبغي التضحية بالعواطف امام المصالح ؟ كان الملك ووزراؤه مقتنعين بذلك ، بل قد يجد التقارب مع النمسا ـ هونغاريا اصداء حميدة فى بعض الجهات فتتحسن بذلك الاحوال الداخلية للمملكة :

نعم كان من شان النزاع الذي ظل ناشئا بين الدولة الايطالية والكرسي المقدس ان يدفع بالبابا الى مغادرة روما بدعوى ان حريته اصبحت مقيدة ، وكان من شان هذا الحادث ان يثير فى الراي العام الايطالي اهتزازة عنيفة . وبما ان الحبر الاعظم (البابا) لا يستطيع ان يقدم على اتخاذ خطوة من هذا القبيل الا بعد ان يحصل بالطبع على موافقة الدولة العظيمة الوحيدة التي ظلت سلالتها كاثوليكية ، اعني النمسا ـ هونغاريا ، فان التحالف معها اصبح بالنسبة للحكومة الايطالية بمثابة تدبير لتفادي حدوث هذا الاحتمال .

لكن اي فائدة كانت للدولتين المركزيتين فى قبول تحالف مع ايطاليا ؟ لم يكن فى استطاعة النمسا ـ هونغاريا نسيان حوادث 1866 (*) ، وكانت تشعر

(*) كانت ايطاليا قبل هذا التاريخ تابعة سياسيا للامبراطورية النمساوية ولما انفصلت ايطاليا عنها ترك ذلك حزازة فى نفوس المسؤولين النمساويين (المترجم) .

ازاء ايطاليا بحقد وكراهية ، بيد انها كانت تريد اخماد الدعاية الاستراجاعية حتى لا تواجه خصمين في حالة حدوث نزاع اوروبي ، واعني بالخصمين روسيا وايطاليا

اما الحكومة الالمانية فلم تكن تنظر لايطاليا الا بعين الازدراء . وقد وصف بيسمارك الايطاليين سنة 1880 بقوله : « انهم يشبهون الغربان الذين يتعيشون من الميتة ويقفون وراء ميادين الوغى علهم يعثرون على شيء ياكلونه » . وكان يحترز ايضا من النظام السياسي للمملكة ـ كان يعتقد ان النظام البرلماني ليس بقادر على سرية التفاوض . بيد ان ايطاليا في امكانها ان تصبح حليفا ماليا على فرنسا ، فاذا ما حدثت حرب فرنسية ـ المانية فان المانيا لا تستطيع ان تعتمد على عون مسلح من النمسا ـ هونغاريا او من روسيا ، في حين ان التدخل الايطالي قد يجبر فرنسا على اقامة جبهة دفاعية في الالب الامر الذي من شأنه ان يضعف المقاومة المسلحة الفرنسية على الحدود الالمانية .بيد ان بيسمارك كان يهدف الى غاية مباشرة الا وهي اراحة النمسا ـ هونغاريا من الهموم التي تسببها لها الحركة الاسترجاعية الايطالية .

ان معاهدة 20 مايو لسنة 1882 هي التي اسست **الحلف الثلاثي** . لقد حددت هذه المعاهدة حالة العلاقات بين ايطاليا والدولتين المركزيتين بينما احتفظ بمعاهدة 1879 كأساس للعلاقات الالمانية ـ النمساوية . وقد ابرم هذا الحلف في الاساس من اجل خمس سنوات من تمديد الى تمديد استمر الى غاية شهر مايو لسنة 1915 .

والبند الاهم في الحلف الثلاثي هو ما ورد في المادة الثانية . تقول هذه المادة : « لو هوجمت ايطاليا ، لاي سبب كان ، من قبل فرنسا ، واذا لم تكن ايطاليا المهاجمة (بفتح الجيم) هي التي اثارت الهجوم بكيفية مباشرة ، فان الطرفين المتعاقدين الاخرين ملزمان بتقديم العون والمساعدة الى الطرف المهجوم عليه . ونفس الالتزام يقع على كاهل ايطاليا في حالة حدوث عدوان على المانيا من قبل فرنسا بشرط ان لا تكون المانيا هي المثيرة للعدوان » .

ولئن كانت الالتزامات التي ابرمت بين ايطاليا والمانيا قد بنيت على اساس من التماثل فالامر على خلاف ذلك بالنسبة للتعهدات المبرمة بين النمسا ـ هونغاريا وايطاليا : اذ بالرغم من ان الحكومة النمساوية ـ الهونغارية تعهدت بتقديم معونتها لايطاليا في حالة حدوث هجوم فرنسي عليها ، فان الحكومة الايطالية لم تتعهد بشيء من هذا القبيل في حالة ما اذا هاجمت روسيا النمسا ـ هونغاريا (*) .

ففي هذا التاريخ اكتست معاهدة الحلف الثلاثي التي كانت نصوصها سرية صبغة حلف **دفاعي** صرف. فما هي الفوائد التي ضمنتها هذه المعاهدة لكل واحدة من الدول الثلاث ؟ لقد حصلت ايطاليا على حماية المانيا والنمسا ـ هونغاريا فيما لو حدث هجوم عليها من فرنسا ، زد على ذلك انها اصبحت مرتاحة البال من حكومة فيينا التي كانت تخشاها لتقديم سند للبابا «المسالة الرومانية» . وبالمقابل اعطت ضمانة بتقديم العون المسلح الى المانيا دون النمسا ـ هونغاريا .

اما ايطاليا فبالرغم من انها هي التي طلبت ابرام الحلف فقد حصلت منه على فوائد جمة . بيد انها غدت ملزمة بالعدول عن الدعاية « الاسترجاعية » وبالتالي اصبح عليها ان تنفض يدها ، ما دام الحلف ساري المفعول ، من الايطاليين الذين ظلوا رعايا للنمسا ـ هونغاريا . وحصلت المانيا على سند حليف في حالة حدوث حرب اثارتها فرنسا ـ وهذه الحالة لم تتعرض لها المعاهدة النمساوية ـ الالمانية لسنة 1879 . يضاف الى ذلك ان المانيا عززت حالة شريكتها النمسا ـ هونغاريا : كان بيسمارك يعتقد : « ان ايطاليا والنمسا ـ هونغاريا لا يمكنهما الا ان يكونا حليفين او متعاديين » .

واخيرا فان النمسا ـ هونغاريا لم يعد لها ما تخشاه في حالة ما اذا دخلت في حرب مع روسيا أعني ان تاتي ايطاليا « وتطعنها من الخلف » . فقد تعهدت ايطاليا صراحة طبقا للمادة الرابعة بان تبقى على الحياد في حالة كهذه .

وهنا اصبح بيسمارك راضيا عن نفسه ، فبعدما اصابه سنة 1879 ما اصابه من نوبات عصبية اضحى الآن اكثر هدوءا . قال بهذا الصدد : ان الآلة من كثرة ما احكمت « اصبحت تسير من تلقاء نفسها » . الا ان الصعوبات سوف لا تلبث ان تعود الى الظهور عما قريب .

(يتبع)

مكناس : عبد الحق بنيس

(*) لقد نصت المادة الثالثة ، مع ذلك ، على انه يجب على ايطاليا ان تقدم عونا مسلحا للنمسا ـ هونغاريا اذا هوجمت هذه من قبل روسيا وفرنسا . ولا يمكن تصور هذا التدخل الفرنسي الا في حالة حدوث حرب تشترك فيها المانيا ـ وهذا ما يعود بنا الى المادة الثانية (المؤلف) .

ديوان دعوة الحق



ذكرت احبتي وبني واهلي … ففاضت ادمعي واهتاج قلبي

وآلمني التذكر ، والحنايا … يؤججها البعاد بكل كرب

ابنائي ذكرتكمو بعيدا … فحنت اضلعي وثترت غربي

ولم اك قبل بعدكمو أعاني … عذابات الحنين ولا التصبي

فقد كنتم لقلبي ظل أمن … ووارف جنة تنسيني كربي

وكنتم عدتي عند الرزايا … وكنتم جنتي في كل حرب

احلامي ذكرتك مستهاما … وناجيت ابتسامك في غيوبي

لقد كانت تحاياك لقلبي … صلاة خففت عني ذنوبي

وكان عناقك الميمون برءا … لأسقامي والآمي وكربي

وامجد لو رايت دموع عيني … تفيض غزيرة ملأت دروبي

لقد كانت تحاياك لقلبي … فاضناني اليك حنين قلبي

واشهد لو شهدت حنين نفسي … الى لقياك يا من كنت حبي

ادغدغ فيك ضحكات الاماني … واذكر فيك آمالي وصحبي

وازهد يا دنى املي المندى … باحلام الحياة وما تخبي

ينسيني ابتسامك ما اقاسي … وينعشني اقترابك لي وقربي

ارى فيك الحياة وما ارجي … وارقب فيك آمالي واربي

اذكر اذ عناقك لي حلم … تشهاه الفؤاد وكان يسبي

ام اذكر دغدغات منك هزت … حنايا اضلعي بلذيذ حب

ام اذكر غضبة هدت كياني ... واذكتني لهيبا بات دابي
ام اذكر قهقهات منك سكرى ... اذابت مهجتي بغروب هدبي
اغالب فيك اشجاني ولكن ... تحطمني الشجون وحب قلبي
وارغد مهجتي وشغاف قلبي ... ارقت على هواك اليوم غربي
هويتك ماجنا نزقا ضحوكا ... تهز مشاعري وتثير دربي
ذكرتكمو الغداة فهجت شوقا ... انساني ادكاركم سهوبي
ازاهر جنة الفردوس انتم ... وريحان الخلود لكل صب
احبابي هفوت الى جناكم ... وطاف بربعكم طيفي وقلبي
اناديكم ولي شغف اليكم ... ترى ارواحكم هتفت لما بي
ابنائي وانتم كل شاني ... من الدنيا وانتم كل صحبي
لقد امست طيوفكم رجائي ... وامسى قربكم املي فى دربي
ابيت الليل اجتر الاماني ... وارتقب الصباح رجاء ربي
الى احضانكم فردوس قلبي ... وجنة مهجتي وخلود حوبي
وتمضي بي سويعات واخرى ... اردد فى ابتهال عهد قربي
ابنائي وانتم لي ابتسام ... يضيء لي الطريق لمهدي ربي
اناغيكم فالمس فى نشيدي ... لذاذات الرضى من كل صوب
واذكركم فانعم في ادكاري ... بامال تبدد كل خطب
ملاتم بالمنى جنبات صدري ... وعطرتم بها اكواب نخبي
فكنتم جنتي وظلال قدسي ... بكم ازهوا وابدي كل عجب

فـاس : **عبد الكريم التواتي**





للشاعر : المدني الحمراوي

يا اليف الامس يا حلم الغد   لم لا تذكر عهد الرغد ؟
هل نسيت الحب ؟ اني ذاكر   كيف كنا مهجة فى جسد
كيف كنا فى هوانا قوة   لا ترى غير الهوى من احد
نتساقى اكؤسا مترعة   من رحيق ازلي سرمدي

* * *

يا اليف الامس يا حلم الغد   لم لا تذكر ذاك الزمنا ؟
حين كنا نغمة تائهة   فى ظلال الحب في جو المنى
نقطف المتعة من ثغر الهوى   قبلا تعصر قلبينا ضنى
فسكرنا سكرة من اجلها   لم نعد تبصر الا حبنا

* * *

يا اليف الامس يا حلم الغد   ما بك اليوم ؟ وما هذا الجفاء ؟
استمع للحب يدعونا معا   افلا تسمع مثلي النداء ؟
هو ذا الماضي تراآى مشرقا   زاهي الالوان خلاب الرواء
هي ذي روضتنا حنت الى   عهدنا فيها وتاقت للقاء

* * *

يا اليف الامس يا حلم الغد   هل نسيت اليوم ذاك المعهدا ؟
حيث كانت لعشايانا به   متعة طال بنا فيها المدى
نتناجى و « جليز » حولنا   رابض يرقب ذاك المشهدا
وخرير النهر لحن منعش   وعذارى النخل رددن الصدى

* * *

يا اليف الامس يا حلم الغد   هل نسيت اليوم حلو المرقد
في حنايا « العش » اذ كنا معا   كحمامين اليفي معهد
بنشيد الحب غنينا معا   ثم جافيت عهود المعبد
في « رباط الفتح » خيبت الرجا   وتناسيت مواثيق اليد

* * *

يا اليف الامس يا حلم الغد   فالى « مراكش » هيا بنا
لنعيد العهد في تلك الربى   حيث نحي اليوم ذكرى حبنا
هذه روضتنا قد صوحت   وغدت محزونة من بعدنا
فتعالى اليوم تروي عشبها   مثلما كنا بها في امسنا

* * *

ها انا وحدي اناديك هنا   طائرا مثل الغريب المفرد
يا اليف الامس يا حلم الغد

الرباط : المدني الحمراوي

أنا منسي

للشاعر: ابن دفعة محمد

بين آلامي وامسي ،
انا منسي .
رغم اشواقي وبؤسي ،
رغم همسي ...
وصراخي ،
لم تحسي .

* * *

كان عمري ،
قبلما جفنك يغري ،
كان وردا ...
نضرا ،
اذكى من الحلم ،
واندى .
مات وردي ،
الآن ،
اذ خلفت وعدي ،
مات وجدا ...
مات ...
لم تأسفي ، لا ...
لا .. لم تحسي

* * *

ضيعتني ...
مقلتي ،
اذ غمرتني ،
منك ، حسنا
ونما ...
حسنك بي ،
اذ انا افنى
وبقلبي ،
امسي ..
والصبر ..
مع اليأس ،
بحرب ،
من احنا ،
مهما ترقص ..
ذكرى ،
فى اشباح امسي ..

* * *

لا تمسي ..
ذكرياتي ، لا تمسي ..
لم تعد ..
تعرف اعصابي شذاها ،
وسناها ،
لم يعد يرتج ،
فى صدري ،
صداها ..
لم يعد قلبي الاها
والهوى ..
النار التي عاثت ..
بامسي ،
لم يعد ،
بين ضلوعي ،
حطب يذكي اظاها ..
لم اعد عبدا ..
لامس ،
بعد أن صار رمادا ،
لهب قوض امسي
فاطمئني ..
جلدي ،
مني محنتي ،
برقا ، مني بحر غدي ،
اشلاء ترسي .

القنيطرة — ابن دفعة محمد

قصة العدد

عيون الاتهام

للأستاذ : أحمد عبد السلام البقالي

طرق الجيلالي باب البيت الكبير بنقارة الحديد الثقيلة ، فترددت اصداء الطرقة داخل ابهائه وصيلانه الفسيحة .. ووقف ينتظر فى قلق وهو ينظر الى الحائط المقابل وظهره الى الباب .

وبعد لحظة سمع قرقعة الزكروم الكبير ، ثم انفتح الباب قليلا ، وظهر من خلف الشقة الدقيقة عين تحملق فيه من ظلام الدهليز .. وتنحنح هو ونظر الى الارض وقال :

— سيدي عبد الرزاق موجود ؟

وجاءه من خلف الباب صوت نسوي حاد آمر :

— لما ذا تريده ؟

— اريده لعمل اداري يخصه ..

— ما هو هذا العمل ؟

وتردد الرجل ، ووقع فى حرج .. ثم قال وهو يهم بمغادرة المكان :

— اذا لم يكن هنا ، فسأذهب اليه فى الادارة في وقت آخر ...

وهنا تحركت العين وراء الباب ، وصاحت المراة:

— لا تذهب .. انه هنا .. كنت اريد ان اقول له لماذا تريده فقط .. انتظر ..

واقفلت الباب بعنف ثم سمع صوت قباقبها على رخام وسط الدار .. وسمع صوتها الحاد ينادي :

— بابا ... بابا ...

واجاب صوت عميق بعيد :

— آنعم .. ما تريدين ؟

وجاءه صوتها واضحا :

— الجيلالي ، ذلك الاصفر المشموط ، يقول انه يريدك ..

وعاد الصوت العميق يسال :

— لما ذا .. ؟

— مسلول العنق لا يريد ان يقول .. يريد الكلام معك انت ..

وبعد لحظة سمع صوت حذاء ثقيل ينزل السلم فى بطء ، تصاحبه التنحنحات والسعلات ..

السي عبد الرزاق معروف فى المدينة (باسم مهنته : العادل) وله مكتب فى المحكمة الشرعية مع زميله سي عباس القلعي .. وله دار كبيرة وعائلة كثيرة العدد .. وليس له مورد عيش آخر غير مهنته كعادل .. ولكن مظهره دائما محترم .. ومجلسه دائما عامر ..

وانفتح الباب اخيرا فاسرع الجيلالي الى الرجل المهيب ذي اللحية البيضاء فانحنى عليه وقبل يده ، ووقف ينظر الى الارض ..

— ايه آسي الجيلالي .. ما ذا اتى بك ؟

وبدأ الجيلالي يقص عليه مشكلته : بالامس قرر ان يطلق زوجته .. وله معها بنت صغيرة ستاخذها شرعا معها .. الا انه يعتقد ان هناك حلا يعرفه العدول .. انه لا يريد ان يفارق ابنته وفلذة كبده .. لذلك على الفقيه الجليل ان يدبر له مخرجا ..

وتنحنح السي عبد الرزاق واظهر الحرج :

— اسمع ياولدي .. اريدك ان تقص علي القصة كاملة بدون ان تخفي عني شيئا .. لما ذا ستطلقها ؟

— لقد خرجت عارية الى الشارع .. وبذلك حرمت علي ..

— هذا سبب وجيه .. ولكن لما ذا ؟

واحنى الجيلالي راسه وسكت .. فقال السي عبد الرزاق :

— لا .. لا .. لابد من ذكر جميع التفاصيل اذا اردتني ان اساعدك .. فقال الجيلالي متبرما :

— لقد كنت غاضبا بالامس .. وتناقشنا عن الحليب الذي اشتراه اخي واشترته هي بينما كان المفروض ان يشتريه هو وحده ونقتسمه .. وكنت اقطع الخبز بسكين ، وحين بدات اصرخ عاليا والسكين في يدي ذعرت وخرجت من البيت بدون حجاب .. انت تعرف .. الجيران كلهم سمعوا الشجار ... وكلهم خرجوا يتفرجون عليها عريانة في الحومة .. لقد حرمت علي .. لا استطيع ارجاعها الآن ..

وتنحنح الفقيه الجليل ثم نظر اليه :

— اعرف ان زوجتك من (بنات برة) .. من البادية .. والخروج بدون لثام عندهم عادة لا عيب فيهما ..

— ولكننا لسنا في البادية .. هذه المدينة .. انني لن ارجعها .. لقد فضحتني في الحومة ، الجميع تفرجوا علينا ..

— لا حاجة بك الى رفع صوتك .. هدىء اعصابك .. سنرى لك مخرجا من هذا .. الآن ، انت مصر على طلاقها ..

— بدون رجعة ..

— انت تعرف ان القضية ضدك اذا تبعنا المسطرة حرفيا ..

— اعرف ذلك ..

— ولكن ...

— ما تقوله انت افعله انا ..

وتنهد الفقيه وفي عينيه بريق النصر :

— ارجع اذن بعد الظهر .. ساقابل صاحبي الفقيه القلعي واتحدث معه في الموضوع ، ثم نراجع ابواب الشريعة لنرى بابا نخرجك منها .

* * *

ووقع القاضي وثيقة طلاق يعطي فيها الاب الحق في حضانة بنته لان زوجته عديمة المروءة تخرج عارية في الشوارع ، وبذلك يحرمها الشرع من تربية بنتها ...

واقتسم الفقيه عبد الرزاق المبلغ الاضافي للشهادة مع زميله الذي يوافقه على كل ما يجلب الرزق ..

ووقفت المراة المطلقة على باب المحكمة زائغة البصر من مفاجاة التهم الشنيعة القذرة التي الصقت بها بدون حق من اجل ان تخطف منها ابنتها ..

ورغم حيائها الفطري فقد انفجرت في وجه الفقيه عبد الرزاق داعية لاعنة موكلة الله عليه ، وهو يحك لحيته ، وقد احتقن وجهه محاولا تجنبها وسط الجمهور الذي اجتمع عليهما .

وحين دخل بيته كان صوتها ما يزال يرن في اذنه صافيا : « يا شاهد الزور ، ما ذا تقول لله غدا يوم القيامة ؟ ولكني لن انتظر القيامة .. ستصيبك مصيبة في هذه الدنيا .. الله يعاقب في الدنيا قبل الآخرة ... »

واحس بقشعريرة في بدنه .. انه لم يشعر مثل هذا الشعور منذ شهد اول زور في حياته .. وقد مرت مئات الحالات منذ ذلك الحين ، ومات ضميره في هذا الميدان .. ان الله لا يعاقب .. لانه غير موجود .. استغفر الله .. استغفر الله .. وذهب الى غرفته يتمتم بكلمات لا معنى لها .

وفي تلك الليلة طافت به احلام مزعجة فاستيقظ واشعل النور وجلس في فراشه يجفف عرقه ويلهث في تعب .. وبعد ان تأكد ان الذي عاشه كان مجرد حلم .. وان المحشر الهائل والسياط الجهنمية على ظهره وقفاه ، وصراخ الالم ، وانفجار الدم والصديد من جسمه كان كابوسا ذهب مع النوم ، قرر الا ينام حتى لا يعود الى العذاب الذي خرج منه ..

وعادت الفكرة تلح عليه مـرة اخـرى .. الله لا يعاقب .. لانه غير موجود ..

وفجاة وقف امامه شبح ابنته « العوراء » كـان جميع اهل البلد ينادونها العوراء عمدا لانهـا كانـت شريرة كالشيطان .. كانت لعنة على كل من حولها .. وكانت هي تعرف ذلك وتتمادى فيه .. لانهـا كـانت تتمتع به .. كانت سادية تجد لـذة عظيمة فى تعذيب الآخـريـن ..

فى احد الايام وجدها ابوها قد ربطت « الطراح » الى سياج الدرج ونزلت فيه ضربـا وقرصـا وغـرزا بالابرة وصراخه يملأ البيت والجميع يستعطفها لتتركه وهي لا تريد .. كانت تغرز فيه الابرة وتامره الا يصرخ فاذا صرخ غرزت فيه اخرى فى مكان اكثر ايلامـا .. وحين دخل ابوها كانت تستعد للرقم الاخير ، وهـو موضع سفود احمر ملتهب على فخذه .. وقد امرهـا ان تطلق سراحه فى الحال ، ففعلت على مضض وخرج « الطراح » ناجيا بجلده وقد اقسم ان يهجر المدينة ..

كان ذلك « الطراح » من امرح صبيان ذلك الفران المجاور .. وكان كريما بوقته ومجهوده ، ولكن العوراء جعلت تعاونها معه مستحيلا .. كانت تناديه وهو مار بالحومة ينادي هل هناك خبز يوصلها للفرن ، فحين يدخل تقفل خلفه الباب وتامره باخذ اناءيـن كبيريـن مليئين بالماء الى برميل السـطح .. ويعيد ذلك مرارا حتى يمتلىء البرميل والطريق الى السـطح سلم كثيـر الدرجات والانزلاقات .. فاذا حدث ان زل وذلق بعض الماء على الارض كان ذلك يومه الاسود .. وكانـت هي تجد سرورا كبيرا فى رؤيته يتالـم .. ان فـرص عمله قليلة اذا بقي هناك طول النهار .. و « معلمـه » يضربه حين يعود متاخرا ، ونساء الحومة يشتكين من عدم مجيئه لاخذ الخبز التي خمرت حتى سقطـت اطرافا ... كانت تمتع نفسها بغيظه وحسرته والمه..

وفى النهاية قاطع بيت عبد الرزاق فصار لا يمر الا على اطراف بنانه ، ولا يصيح صيحته المعتـادة .. عا الخبز ... آخمرت الخبز ..

وحين لم يعد الطراح يمر بالباب بدات تترصد له .. وبعد اسـبوع ضبطته مارا من امام البيت فشقـت باب الدار ونادته بصوت غير صوتها " الطراح .. تعال تاكل بعض الكسكس بقي من البارح .

ولما كان جائعا ، والصوت ناعم فقد دفعه ضعفه الى مد يده الى يد الخير .. وما كان يضع رجـله على عتبة الباب حتى انفتح الباب واخرجت العوراء يديها معا فامسكت بتلابيبه وادخلته الى اسطـوان الـدار واغلقت الباب بالزكروم خلفه ..

كان ذلك هو اليوم الذي وجدها ابوها تعذبه وهو مربوط الى سياج الدرج الحديدي .. وحرك الفقيـه راسـه : اليس هذا عقابا من الله فى الدنيـا ؟ ان تكـون لك بنت كهذه ؟

وجال بعينيه على جميع اولاده .. لا خير فيهم جميعا .. اكبرهم ما يزال يرجى منه الخير .. لانـه يبدي الاستقامة وحسن الخلق .. اما الثـاني فهـو متعاط مدمن على الحشيش والافيون ، يقضي معظـم وقته مع العواهر .. وقد اصيب اخيرا بالسـل فـي رئتيه معا ، وقعد فى ركن البيـت ، والصغيـر صـار اضحوكة البلد لكثرة اكاذيبه المفضوحة .. اما الاصغر فقد صارت اخلاقه المنحطة مضرب الامثال .

وحرك راسه بخيبة امل : من قال ان الله لايعاقب، وانه ليس موجودا ؟ .

وترددت مرة اخرى تلك الدعوات فى اذنه وتلك المراة الخجولة تبكي فى اسى وقهر وحاول ان يقفل عينيه وينسى .. وينسى .. كيف ينسى ؟

❊ ❊ ❊

بقي صاحيا حتى الصباح ، كان يخشى ان تعاوده تلك الاحلام مرة اخرى ، واذن الفجر فخرج يصـلي ، وعاد فافطر وذهب الى المحكمة .

وفى فترة ما بين الظهرين حضر ابنه الكبير الـى المحكمة ، وانحنى على ابيه يهمس شيئا فى اذنه ، فقام هذا وعلامة ذعر واضحة على وجهه .. ورفع شريكه الفقيه القلعي عينيه متسائلا :

— لا باس ، الفقيه ؟

فلم يجبه هذا ، وخرج ...

وبدا ابنه يحكي له بسرعة فى الطريق :

— الفتاة فى حالة يرثى لها .. اذا لم تمت فنحن محظوظون ... وتساءل الفقيه :

— وما ذا اصابها ؟

— لقد صبت عليها « العوراء فريدة » ابريـق مـاء غليـان .

— ماء غليان ! يا حفيظ ، يا لطيف ، لما ذا ؟

— قالت انها جعلت الريح يشتت الحناء فى السطح .

— تلك المجرمة ، اذا لم يزهق روحها احد فسوف تزهق ارواحنا جميعا ..

— المهم ان « الشرقي » خال الفتاة ، وصله الخبر .

— وصله الخبر !

— وقد كلم صديقه « المراقب » فى الموضوع ، وربما لقينا البوليس فى الدار ..

وفعلا وجدوا جماعة من جنود « الارمادا » ببنادقهم على اكتافهم ومعهم جماعة من البوليس وهم يبعدون الجمهور الغفير الذي التف حول باب الدار حين سمع بالماساة .. اغلبهم من الجيران الذين سمعوا صراخ الصبية العالي واستغاثاتها اليائسة ، والماء الغليان يسلق جلدها ويحفر فى لحمها ...

كانت الفتاة بنت اخت « سي محمد الشرقي » احد اغنياء الحرب الذين اثروا فى فترة قصيرة ، وكسبوا صداقة السلطات بالسخاء الكبير الذي يعاملونهم به ، والهدايا الدسمة التي يقدمونها لهم .

كانت سياراته الخاصة تمر بجمرك طنجة دون توقف ولا تفتيش .. كان جميع الجنود يقفون للتحية ويرفعون الحواجز .. اما سبب ابقائه بنت خالته الصغيرة معهم فهي انهم عائلة نبيلة شريفة ، وسوف تتعلم هناك حسن الخلق ، وتتطبع بطبائع الاشراف .. فقد كان مؤمنا شديد الايمان بالاولياء والصالحين ، ويكرم العلم والعلماء بدعوتهم من حين لآخر ، وتقديم المآدب الفنية التي تتركهم يلهجون بالثناء عليه والدعاء له مددا طويلة .. وذلك كان يشرح قلبه اكثر من اي شيء آخر .

ودخل الفقيه العادل وولده الاكبر الى الدار فاذا جماعة من المفتشين وطبيبان وعدد من المساعدين ...

وتقدم نحوه رئيس بوليس البلدة ، وقدم له الامر بالقبض عليه وعائلته جميعا .. وظهر الفزع على وجه الفقيه الذي لم يواجه مثل هذا الموقف من قبل ..

وقال له رئيس البوليس بصفاقة :

— خذ ما تحتاجون اليه .. لانكم ستبيتون الليلة فى السجن .

وبدا البكاء والعويل فى البيت .. لقد سمع النساء الكلمة .. ودخل البوليس والجنود ليخرجوا السجناء .. وتلحف النسوة وتجمعن بساحة الدار ، وحضر جميع الاولاد الذكور بعضهم يلبس النظارات حتى لا ينظر الناس الى عينيه ، وبعضهم يدلي القب على وجهه ، وخرجوا من الدار ..

وسمعت زغردة عالية تصحبها قهقهات الشامتين والحاقدين من الذين تسبب لهم الفقيه عبد الرزاق فى تعاسات سابقة ...

وفى الطريق بين دروب المدينة صار الموكب محروسا بالجنود والبوليس وخلفه وامامه جمهرة من المتفرجين ..

وفى احدى الشوارع رفع الفقيه عينيه وكأنه يريد ان يدعو الله ان يخرجه من هذه الورطة وهذه الفضيحة ، فاذا عيناه تلتقيان بعيني المراة المطلقة من الجيلالي .. كانت تتفرج من فوق سطح من بين جماعة من النسوة ... كشفت عن وجهها وزغردت حتى احمر وجهها ثم رفعت يدها الى السماء وقالت :

« الحمد لله .. الحمد لله .. آلعزيز آسيدي ربي .. آلحبيب آسيدي ربي ...

وجهت كلامها اليه : آلفقيه .. آسيدي العادل .. الم اقلها لك ؟ فى الدنيا قبل الآخرة ! ساداتنا قالوا : الله يحفظك من دعوة المظلوم ...

وبقيت تزغرد وتدعو الله حتى غاب عنها الموكب ...

وحين وصلوا الى باب الحبس كان الجمهور قد اصبح كثيفا ، والقصة تسري بينه سريان الهواء في الفراغ ...

* * *

وفى ذلك المساء اجتمعت جماعة من الفقهاء وحفظة القرآن من الذين يعرفون اثرهم على « سي محمد الشرقي » وذهبوا الى بيته ليتشفعوا فى زميلهم الفقيه العادل الذي نزلت به اكبر كارثة منذ مقتل الخلخالي ..

واجتمعوا حول باب بيته ثم استاذنوا فى الدخول ، خرج اليهم الشرقي بنفسه فرحب بهم وادخلهم ، وامر بالشاي و « الشفنج » فشرع في عمله فى الحال ..

وفى الغرفة الكبيرة المطلة على البحر جلس الجماعة بجلابيبهم البيضاء ، ولحاهم الموشحة بالشيب ينظر بعضهم الى بعض وينتظرون المناسبة لافتتاح الحديث ..

وحضر الشاي فشربوا ، وتحدثوا فى مواضيع مختلفة ثم سكتوا .. وبان التوتر والحرج فى جو الغرفة .. واخيرا انقذ الموقف السيد « ابو مغيث » الذي يعطي نفسه نقابة « الطلبة » ...

وسمع « الشرقي » كلامه كله ثم رفع راسه اليه ، وبدا يتكلم باحترام ، يذكرهم بمبلغ حبه واكرامه لهم ، وانه لا يستطيع ان يرد لهم سؤالا .. ولكن هذا الموضوع ، لا يريدهم ان يذكروا له شيئا عنه .. لانه مفروغ عنه .. لابد ان تأخذ فيه العدالة مجراها ..

وبدا الاخذ والرد ، و « الدخيل والعار » والشرقي « موتر رجليه فى الحائط » لا يريد التنازل عن عقاب المجرمين ... وقال السيد ابو مغيث :

— الا تعرف يا سيدي محمد ان مجرد مشهد هذا الصباح ، مشهد الموكب الذي مر بجميع شوارع المدينة وصيحات التشفي والزغاريد .. كل ذلك اليس كافيا ليجعل عائلة العادل تراجع تصرفاتها وتفرض رقابتها على العوراء المجرمة ؟ انه ذلك اهانة ما بعده اهانة .. لايتمناها احد حتى لاعدى اعدائه...

ورغم ذلك فقد اصر « سي محمد الشرقي » على رفض التشفع .. وحول الحديث الى سؤالهم عن طلباتهم الاخرى غير هذه .. ولكنهم راوا ذلك اعلانا بقفل الموضوع ، ففتح السيد « ابو مغيث » نقيب الطلبة « ذكر الختام » الذي يتمشى مع المناسبة ، وتبعه الجميع .. رفعوا ايديهم وبداوا يترنمون بنغمات حزينة رهيبة بالابيات :

تشفع يا رسول الله فينا

فلا نرجو الشفاعة من سواكا

واسرع فى اغاثتنا فانا

نرى المولى يسارع في رضاكا

كانت الاصوات الفخمة تجلجل فى فضاء الصالة الكبيرة فتحدث دويا هائلا ، واللحن يحدث مفعولا نفسيا عجيبا ... وحين وصلوا البيت :

احب الصالحين ولست منهم

لاني منهم ارجو الشفاعة

وضعوا ايديهم على صدورهم ووقفوا اكراما للنبي .. فاذا الشرقي الذي كان الدعاء قد هيجه وبعث الرعب فى قلبه يرتمي على الارض ويتدحرج يمينا ويسارا فى جلبابه الابيض ويصيح ويستغيث :

— انا ف « عاركم » آسيادي المطالب .. انا فى حمى الله وحماكم آرجال الله ..

بقي كذلك يستغيث خائفا مذعورا ان تنزل عليه لعنة « الطلبة » فى الحال ... وخصوصا عقب ذلك الذكر الكبير ..

وفوجيء الجميع الا السي ابو مغيث .. فقد راى هذه الظواهر تحدث من قبل .. وقد جرب ذلك عمدا .. وحينئذ طلبوا منه ان يذهبوا جميعا الى المراقب لاخراج عائلة الفقيه العادل من السجن ...

❊ ❊ ❊

وقضت العوراء اسابيع عديدة تتحدث عن « دار العريفة » ومباهجها ، وكيف كانت المعاملة حسنة ، والاكل جيدا ، ولا غسل للاطباق او تنظيف للارض ، لان كل ذلك تقوم به المستخدمون بدلا منا . جعلت من ايام الحبس اعيادا مجيدة يشتهيها كل انسان ..

وقضى الفقيه وجميع اولاده وبناته الآخرين اياما من الخجل لا يستطيعون فيها الخروج الى الشوارع ومواجهة الناس ...

فى تلك الفترة كانت مطلقة الجيلالي تستعد لمغادرة المدينة الى اهلها فى الجبل .. وقد تاكدت من ان صفقتها لم يعد هناك امل فى كسبها ... وبينما هي تحزم امتعتها القليلة فى صباح يوم اذ طرقت بابها طفلة صغيرة .. وحين فتحت الباب بادرتها الطفلة بقولها :

— ابي يريدك عندنا الآن فى البيت ...

— ومن هو أبوك ؟

— الفقيه الانجري ...

— الفقيه الانجري العادل ؟

وحركت الطفلة راسها ، فادخلتها هذه الى الدار لتنتظرها حتى تلتحف وتخرجان معا .

وجلست السيدة امام الفقيه بعينيها الى الارض في خشوع ورهبة .. وتكلم الفقيه بلهجة المعرفة والحنان :

— اسمعي يابنتي ، انني سمعت عن موضوعك كل شيء .. وانا اعرف افاعيل عبد الرزاق والتلعي في المحكمة .. وقد سألت عن قضيتك فوجدت المتظلومة .. والآن ، اعتقد ان هناك حلا لكسب القضية ...

وانبسطت اسارير السيدة ونظرت الى الرجل الاشيب نظرة امل وتوسل .. فاضاف :

— كل ما ستفعلينه هو تقديم هذه الشكوى لجنة التفتيش العدلي .. انها اليوم تزور المدينة في جولة عمل .. سوف تأتين الى مكتبي بالمحكمة غدا على الساعة الحادية عشرة .. وسوف اوجهك الى مكتب الجماعة بنفسي ...

وارتمت السيدة على يد الرجل تقبلها وهو يسحبها منها ويطبطب على ظهرها مشجعا ومصبرا .

وحين امسك رئيس اللجنة بالتقرير طلب من السيدة الجلوس وبدأ يقرؤه بعناية ..

كان تقريرا مفصلا عن ملابسات القضية وطريق الحكم فيها ، مع اشارات الى بنود القانون وارقامها ..

وحين انتهى الرجل من قراءة التقرير كان الغضب واضحا على وجهه .. طلب من السيدة الانتظار بالخارج وقرأ التقرير على زملائه ، ثم نادى الشاوش وامره باحضار العدلين المطلوبين ..

ودخل سي عبد الرزاق الفقيه العادل الى غرفة المفتشين بقلب ثقيل ، بعد ان رأى المرأة جالسة على كرسي الانتظار ..

وسمعت هي بسرور عميق صياح الرئيس في وجه الفقهين المزورين ، ثم جاءت الكلمة الحاسمة :

— « انتما مفصولان من جميع محاكم العدل المغربية ، لقد برهنتما بدناءة اعمالكما ، وقذارة نفوسكما على انكما لا تستحقان ثقة العدالة ... »

الى غير ذلك من الكلام الذي لم تكن تفهمه بعقلها ولكنها تجد لذة كبيرة له في قلبها ..

وفي ذلك المساء كانت المرأة تحمل طفلتها الصغيرة خارجة بها من المحكمة وابتسامة الرضا والشكر لله بادية على وجهها ... لقد كانت طفلتها سلواها الوحيدة في الوجود .

وخرج الفقيه العدل من باب المحكمة للمرة الاخيرة ليرى المرأة ترضع طفلتها على عتبة الضريح المجاور ، وتكلمها في حبور وبهجة دون ان تنظر اليه والهزيمة على وجهه ، تضاعف سنه وتدفعه الى حافة القبـــــر ...

وبدأ يفكر .. الله يعاقب في الدنيا ، لانه موجـــود ...

واشنطون : احمد عبد السلام البقالي







ما زالت الحركة العصرية للفنون في البلاد العربية فتية ناشئة ، واغلب المتحمس لها يتفهمونها حتى الآن من خلال تفكير شبه خيالي ، معتقدين ان الفنان سواء أكان رساما او نحاتا او موسيقيا ، كائن مبهم يشبه اللغز ، وارتباطه بالحياة شبه غامض ، اما انتاجه .. فهو عبقريات التأمل المجرد الخالد .. واشعاعات الالهام غير المحدد بزمان او مكان .

ان تفكيرا كهذا ينتزع الفنان من الواقع المحيط به ويغرقه في عالم ضبابي غيبي منفصل عن تطورات الاحداث .

وتسود هذه النظرة على الخصوص في الاوساط المترفة العالية ، المثقفة التي بدأت في بلادنا تتفتح لتذوق الفن وتريده للمتعة والبهجة الناعمة ، جاعلة من الفنان الذي قد تشجعه ، بطلا مؤلها اسطوريا يثير الخيال . وتتأثر احيانا حتى الفئات المتوسطة ومثقفو الطبقات الصغيرة بهذه النظرة الرومانتيكية عن الفنان .

لقد ظل هذا الاتجاه سائدا وما زال يسود ، واقنع حتى بعض الفنانين المحظوظين ، اجتماعيا الذين صدقوا الاوهام المشاعة عنهم ، وعلى الخصوص من تعايش منهم مع الاوساط الاجتماعية (الراقية) .

وانعكاس هذا التدليل الاجتماعي في نفس الفنان وشخصيته يظهر في غرور يصيبه ، وثقة مبالغة بالنفس تجاوز الحد المعقول ، ونوع من التعالي على الناس البسطاء والاعتقاد بان الفنان من طينة غير طينة البشر العاديين ، بل من صنف الموهوبين الذين هم كنوز الحياة ، والذين هم مركز .. والعالم من حولهم يدور .

ان هذه العقلية تقود الفنان في نهاية الامر الى الابتعاد عن فهم علاقاته بالحياة والتأثير المتبادل بينهما ، وارتباط الروح الجمالية التي يريد التعبير عنها .. بالثقافة العامة السائدة والتفكير المتداول بين الناس . انها تجعله يتجاهل تأثير سائر العوامل المتداخلة في تكوينه من سمات المرحلة التاريخية السائدة والمناخ السياسي المحيط به ، وطريقته الشخصية في الحياة اليومية ومعاملته للناس . يتجاهل كل هذه العوامل .. ويعتقد ببساطة متناهية ان الفن الهام .. وان الالهام من وحي الكون الميتافيزكي والفراغ المبهم ، والزمن المطلق .

واذا كانت ثقافتنا العربية الآن تتجه الى تعاطي النظريات الواقعية لتحليل وتبيين ارتباط الفنانين ونوعية انتاجهم ، بالحياة العادية التي يعيشونها مع الغير وتفكيرهم السياسي ومواقفهم الطبقية ، فان عددا وافرا منهم ولا سيما من يمثلون طليعة ما زالت اقلية نادرة في بلاد لا تتوفر على مجموعات كبيرة منهم ، هؤلاء لا يريدون التنازل لتقبل النظريات الواقعية ، لان القبول بها معناه التخلي عن الغرور وعن الشعور المركب بالعظمة والوحدانية . ان ربط نتاجهم بالارض التي اوجدته هو بالنسبة اليهم كتحقير له وانزال من قيمته .. فالفن كما يتوهمون .. شيء مكانه آفاق السمو . اما الارض فللدهماء ، ولكل ما هو متخلف وبعيد عن الجماليات الاصيلة .

هذه الظاهرة تكاد تندثر الآن في البلدان المتقدمة ذات الثقافة العصرية المتطورة . وان كانت هناك محاولات لاحيائها من جديد في البلدان الرأسمالية ، لربط الفن وتقاليده بميتافيزيكية حديثة ، وقوقعة الفنان ضمن مفاهيم تجريدية بعيدة عن حياة المجتمع واحتياجاته .

اما في بلادنا العربية ، فالعديد من الفنانين يمارسون هذه الشخصية الميتافيزيكية التقليدية القديمة ، التي كانت سائدة في اوربا في عهود ولادة ثقافتها وقبل ان يعرف العقل العلمي الواقعي سلطانه الحالي .

ونحن نريد من هذه المقدمة ، تهييء ذهن القارىء حسب للفكرة الاساسية التي ستدور حولها هذه الدراسة الصغيرة، وهي ان الفنان مهما ظن نفسه مؤلها متعاليا فهو ابن الارض وابن البيئة والزمن . وانتاجه الفني ما هو سوى ترجمة

امينة لحياته الشخصية والاجتماعية ومعتقداته في الحياة وعواطفه ازاء الناس الذين يتعامل معهم والطبقات التي يخدم مصالحها .

واذا كان انتاجه ذا نوعية رديئة .. ومحدودا وضيق الافق ، فليس معنى ذلك ان الالهام الغيبي يخونه بقدر ما يكون السبب حياته نفسها التي تتسم بالرداءة وضيق الافق ، ويمكن ذلك .. ان كان يريد لانتاجه التطور والعمق والاصالة الجمالية .. فليجهد اولا لتحقيق هذه الصفات في ثقافته وتكوينه وعلاقته بالحياة وارتباطه بالآخرين ، اما اذا انتظر في الفراغ والبرج العاجي معتقدا ان الالهام المجرد سيمنحه هذه الصفات يوما ، فلينتظر اذن السنوات الطوال بلا فائدة او جدوى .

وسنقدم فيما يلي نماذج واقعية من حياة بعض الفنانين نربط فيها بين نوعية انتاجهم ونوعية حياتهم لنبين ما بينهما من صلات ، وبالتالي لنلقي الضوء على الموارد الفعلية للالهام الفني سواء من ناحية العقم او الخصب ، مما يؤكد سطحية النظريات التي تربط الفنان بعالم بعيد عن الارض وما يجري عليها .

سنقدم هنا ملحنا للاغاني ورساما ، هذان النموذجان ليسا من وحي التخيل ، بل هما يعيشان فعلا بيننا في كل بلد عربي ، ويمكن ان نصادفهما ونجتمع بهما او نسمع عنهما ، انهما مثال عن واقع نعيشه ونمارسه .

قصة ملحن اغاني مع محاولة لتلحين اغنية :

الاستاذ (ف) يعرفه الناس على انه ملحن لاغان عاطفية ويقال انها (شعبية) ، وقد يتذوق بعضهم الحانه ، ولكن اصحاب الذوق السليم والثقافة الفنية يتذمرون من موسيقاه ويتهمونه بالابتذال والعقم والسطحية ، وان الحانه عابرة لا تمثل اية ثقافة ، ولا ترتبط باي تراث اصيل والملحن(المعروف) .. يميل لتصديق من يتملقونه ويستفيدون من شهرته ، ويتجاهل آراء المخلصين للفن .

والاستاذ (ف) كما تحدث المجلات ، منغمر الآن في اغنية ، كما هي العادة ، عن حبيب مهجور .. اخلص في حبه .. لكن حبيبه خانه .. وعلنجرا .. وهو ينتظر الساعة التي سيهبط فيها الالهام على دماغه .

يقوم صباحا من النوم ويظل في سريره وسط صالة مذهبة وفخمة .. ينظر للسقف .. ساعة او ساعتين ، والالهام لم يهبط ، وعند الظهر يذهب بسيارته الى شاطىء البحر ويتفرج على الافق وما يعلوه والغيوم والسابحات الرشيقات ، ويشرب بعض زجاجات الخمر العتيق ، مع هذا فالالهام ظل مستعصيا عليه .

بعد الظهر يتنزه بسيارته في الشوارع ويزور بعض الاصدقاء ويتحدث عن الحياة ، ويشتم الحياة الزوجية والعائلية ويسخر من العواطف الانسانية ، ويقول بان الفنان خلق ليكون حرا من سائر الالتزامات .

ويأتي المساء .. والالهام هارب فتلتوي تجاعيد وجهه عن حزن الفنان الحائر ويذهب لينسى همومه في البارات الليلية وسط ضجيج الانغام الاوربية الصاخبة المجنونة ، والفنون الراقصة المبتذلة وضحكات المجون ، وقد يرقص ويعرض عواطفه على عابرة سبيل ، ويعود بعدها للمنزل حيث يدخن سجائره على شرفة منزله العالية ويشاهد القمر والنجوم كالثور التعب ، وتمر الايام عليه .. دون ان يقرأ كتابا او يسمع لحنا كلاسيكيا لعباقرة الموسيقى كبتهوفن او براهمز او يحاول التعرف على فنون واغاني الفلاحين في القرى .. حيث صفاء اللحن واصالته الوطنية ، انه فقط يشرب الخمر ويشكو همه على بارات المراقص .. حتى يعصر نفسه عصرا ويتوصل بعد عملية الهام (تاريخية) الى تلحين الاغنية ، ويسمع الناس الاغنية الجديدة وربما تشتهر ، وفي اوساط الاصدقاء يصرح (الفنان) بان الوحي هبط عليه بصعوبة .

ونحن من طرفنا لن نوافق الملحن على اوهامه اذ نعرف ان اللحن الذي وضعه هو كالحانه السابقة ، مبتذل عقيم محتوى وشكلا ، وهو خلاصة موسيقية لاجواء البارات والخمر والمجون والحياة السطحية الخالية من اية معاناة انسانية . .

نعم .. ان الحياة الفارغة من اي هدف نبيل .. هي التي كونت هذا اللحن ، ان الصخب الذي يصوره نسخة عن صخب الحانات التي تردد عليها ، والملل الذي يرافقه نسخة عن الحياة الشخصية المملة للملحن نفسه ، والميوعة التي ينساب فيها نسخة عن ميوعة مشاعر الملحن وضياع رجولته ، وعدم التناغم في موسيقاه نسخة عن تناقضات شخصية الملحن وافكاره المتخبطة التي لا تعبر عن اي اتجاه فكري واضح بقدر ما تعبر عن فوضى ذهنية ، ان عدم اتصاف اللحن الذي وضعه بالروح الشعبية وانعزاله عنها وفقدانه لاساليبها ، والتصاقه بالفئات البرجوازية والتردد على موائدها واجوائها ، فاي الهام هذا ، الذي هبط على صاحبنا كما يتوهم ويزعم ، من آفاق الخيال وعالم الانغام ؟؟ ان الطبيعة لم تمنحه فكرة اللحن مجاناً ، فالطبيعة نقية صافية لا تلهم الدجل والسخافات .

ولكن كما يعيش الملحن ، يلحن ، وموسيقاه صدى لواقعه وشخصية الطبقة الاجتماعية التي تحيطه وتشجع الحانه وتنشرها وتفسد ذوق الناس بها .

قصة رسام مع لوحة :

انه رسام طيب القلب فعلا ، اقام عدة معارض وكتبت عنه الصحف ، وله معجبون من الاوساط الاجتماعية العالية وكذلك يهتم به المثقفون .. لكنه بدأ يعاني ازمة .. فهو يشعر بان انتاجه واسلوبه لم ياتيا بجديد في الفن ، وما زال يسير في الخط الذي رسمه الرسامون الكلاسيكيون القدماء دون ان يطور تراثهم او يغنيه او يعمقه ، وحاول مرة ان يغير طريقته وبعد الجهد لم يصل الى تقليد الآخرين ، من انطباعيي وتعبيريي باريز .. ثم تراجع عن تقليدهم ، وهو لا يحب ايضا ان يرمي نفسه في التجريد الفوضوي ، فما زال يمالك هذا الاتزان .. وهو شيء يحمد عليه .

يريد ان يرسم لوحة يتصف اسلوبها بخصائص ثورية في الفن ، ثورية واقعية مفهومة للناس .

ويجلس في مرسمه مع الوانه يقضي الساعات في الرسم ، ثم يغضب ويثور ويزيل ما رسمه ويمسحه ليرسم غيره، ويدخن سجائره بعصبية ثم يهجر الوانه في حالة نفور ، انه بعيد عن زمنه ، يعيشه يحسه ولكنه متخلف عنه برسومه ، ولا يدري كيف يزيل هذا التناقض .

لا ننكر ان نية الرسام صادقة في رغبته في التجديد الثوري لاسلوبه ، وهو في النهاية يعتقد ان القضية قضية الهام لابد من انتظاره ، واذا كان هذا الالهام يخونه اليوم فهو سيأتي في يوم من الايام .

ونترك الرسام لنعود اليه بعد شهر .. فنجده ما زال ينتظر الالهام ويعاني مشكلة اضطهاده .

ولماذا لا نحاول التسلل الى حياته الشخصية والاجتماعية لنطلع على جوانب منها ؟ قد يخرج الرسام من منزله ويزور بعض الاصدقاء ، ويدور الحديث في السياسة ، فاذا به يحبذ الانظمة السياسية البالية الفردية ويدافع عنها ، وليست لديه اية فكرة عن ديموقراطية سليمة او عما يسمى بحقوق الفلاحين والعمال ، ويسخر من الاحزاب الديموقراطية وكل نشاط سياسي ، وكل هذا في رايه مضيعة للوقت وتسلية للدهماء .

واذا عاد الى منزله ، صرخ في زوجته لماذا لم تهيء له الطعام ، فاذا اسرعت اليه كلمها بلهجة آمرة وكأنها خادمة لديه وساعية ، كذلك فانه يستمر في صراخه متسائلا عن سبب غياب تلك القروية الصغيرة الفقيرة التي تساعد زوجته في المنزل ، واذ يعلم بانها في زيارة لوالدتها المريض ، يتهم الفلاحين عموما بالكذب واللؤم والنفاق ، ويقسم بانها انتحلت هذا العذر لرؤية صاحب لها .. ثم يسخر من الحب والشباب .. والشباب وعواطف الجيل .

ومرة تقوده الصدفة ليعرج قريبا من حي شعبي حيث الواح الفقراء والعاطلين عن العمل والاطفال المرضى المتسكعين، لكنه يسرع ليتخلص من هذا الجو ، انه يتألم بلا شك لحالهم، ويفر حتى لا يتألم اكثر من اللازم .

واخيرا يقضي امسيته في ناد محترم يضم كرام القوم .. يدخن ويتحدث عن الفن والثقافة ويشتم كالعادة بعض زملائه من الفنانين مؤكدا انهم دونه في الموهبة (ويسلخ جلد واحد منهم) لانه يهتم برسم الفقراء وبيوتهم واحيائهم القذرة بالوان هائجة وخطوط عنيفة ، فهذا ليس بفن ، الفن جمال ونعومة ومتعة ، ثم يعلن انه في سبيل اقامة معرض عما قريب سيبيع به جميع فنانى البلد .

ويخرج من سهرة النادي راضيا عن نفسه ، فقد كان يصغي اليه اكثر من اثنتي عشرة شخصية اجتماعية مهمة .

وفي الطريق يشاهد الناس خارجين من السينما وبينهم سيدة ذات شعر فوضوي وعيون كعيون القطة المتوحشة .. فيندهش ويهتف لنفسه : هذا هو الجمال الثوري ؟

ويظل صاحبنا الرسام اسبوعا واثنين وهو لم يتوصل بعد الى هذا الاسلوب الثوري، وما زال يجتر اسلوبه الكلاسيكي الممل .. وينقل الحياة في رسومه كما يراها .. خاليا من اي تعديل عليها او تنظيم وتحليل .

انه ما زال حزينا لان الالهام لم يهبط عليه بهذا الاسلوب الذي يحلم به آناء الليل واطراف النهار ، ونحن نعتقد انه لن يهبط عليه ، للاسف ، فان زميلنا الرسام لا يعي مشكلته ، فمن خلال حياته الشخصية والاجتماعية والفكرية والسياسية ومواقفه نفسها ، نرى انه غارق في الماضي الرجعي حتى اخمص قدميه ، انه ملتصق به ، وليست لديه اية فكرة عن حياة جديدة يمكن ان تحل محل الحياة الاجتماعية الحالية لبلاده ، انه راض عن الواقع ، يريد ان يظل كل شيء في مكانه ، انه ابن الطبقة التي ينتمي اليها وينسى دون ان يعلم ايديولوجيتها المعادية لاي تجديد .

ان موقفه الحياتي يترجم نفسه في رسومه واسلوبه والوانه ، هو كلاسيكي محنط في عقليته .. وهكذا فهو كلاسيكي ايضا في رسومه ، ينقل الواقع بجبن وخضوع دون ان يجرؤ على تحليله وتجديده كما يخضع للعادات الاجتماعية التي يعيشها ولم يخطر في باله ان يحطمها يوما .

حياته كانسان خالية من اي موقف ثوري ، فكيف سيتوصل اذن الى اسلوب ثوري في رسومه ؟ وقبل ان يتوصل الى الفن الثوري يجب ان يعيش الشخصية الثورية ويمارسها ويعي التجديدات التي تحتاج اليها الحياة .

إن حياته الشخصية تحتاج الى انقلاب .. وبدونه لن يتوصل الى اسلوب ثوري .. ولو انتظر الالهام مئة عام .

وهو يعتقد بسذاجة ميتافيزيكية .. ان القضية قضية الهام سيهبط يوما خلال تدخين سيجارة وشرب فنجان قهوة .

وما درى انها قضية معاناة وجرأة على التحديد وتغيير المفاهيم ونهل الروح الثورية من منابعها الاجتماعية الحقيقية ، عندها سيجد ان رسومه اتسمت بالطابع الثوري دون ان يتعمد ذلك .

■ ★ ■

لقد قدمنا نموذجين في دراستنا هذه ، لكن حياتنا حافلة بالذات من النماذج التي تؤمن بالالهام الغيبي وعلاقاته الضبابية .

وما زال الاعتقاد بمثل هذا الالهام سائدا للاسف في اوساط واسعة من المثقفين مما يجعلهم يعتقدون ان الفنان يستمد افكاره وانتاجه من منبع خفي اسطوري .. وما زال الوعي الواقعي لعلاقة الفنان بالحياة يسوده الغموض .

لا ينكر الانسان ان تمثل الفنان للحياة المحيطة به وعكسها بعد ذلك في انتاجه بصورة مبتكرة ، عملية ليست بهذه البساطة وهي معقدة الى حد ما ، وعودة الحياة من خلال مشاعر الفنان باخذطابع تحرفخيالي هو نتيجةلتراكم ما توصل مراحل النضوج وعندما تتفجر ياخذ اشكالا شبيهة بحالات الالهام ، ولكنها بعيدة كل البعد عن معناه الاسطوري والخيالي السائد .

ان نظرية الالهام الميتافيزيكي اصبحت من مخلفات المناحي الفكرية .. اسوة .. بمفاهيم الاقوام القديمة حول الشمس ومظاهر الطبيعة .

ان الالهام الحقيقي هو الواقع الحياتي الملموس الذي يمارسه الفنان ، هو تركيب عقليته ومفاهيمه ومواقفه الناتجة عن هذه الممارسة، فالواقع الرديء المقفل يلهم .. انتاجا رديئا مقفلا .. والواقع المفتوح الانساني يلهم فنا انسانيا اصيلا ، فكما يعيش ينتج وانتاجه هو صورة وترجمة لحياته والعوامل المحيطة بها والمؤثرة فيها .



اصداء الثقافة والفكر

اعداد : الأستاذ محمد برادة

جائزة نوبل تزور اليونان

مرة كل عام تتطلع الانظار الى ستوكهلم لتعلم من هو الاديب الذي سيحظى بجائزة نوبل ذات المقياس العالمي .. ومعظم الذين احرزوا عليها يمثلون مستوى ابداعيا انسانيا ، ويتوفرون على قدرة الخروج بنتاجهم من النطاق الاقليمي الى الصعيد الشمولي ، في اطار مستوحى من الايمان بالانسان وبقيم السلام والتضامن. الا ان اختيارات المجمع السويدي كثيرا ما تعرضت للانتقادات ، ووصفت بالتحيز وادخال بعض الاعتبارات السياسية . ولعل نفس الانتقادات توجه من جديد الى المجمع السويدي لانه حرم جان بول سارتر من الجائزة واعطاها لشاعر يوناني هو « جورج سيفرس » Georges Séferis وقد لايتسع هنا المجال لمناقشة المقاييس التي يعتمد عليها في اعطاء الجائزة ، ولكننا نرى ان سارتر كان احق بها من الشاعر اليوناني لعدة اعتبارات فكرية وادبية ونضالية .. فسارتر يعتبر صاحب مذهب فلسفي مستمد من ملابسات وظروف المجتمع الحديث ، ويعتبر رائدا لجيله في اختيار طريق المسؤولية الملتزمة ازاء المشاكل التي تعترض الانسان المضطهد اينما كان .. وظل دائما شجاعا في فضح اخطار الاستعمار ، وفي التنديد بالمؤامرات التي تحاك لخنق حرية الفكر ، وتعرقل الترقية البشرية .. وليس معنى هذا ان قيمة نتاج سارتر تكمن فقط في منظوماته الايديولوجية ، بل ان مسرحياته ورواياته انتزعت الاعجاب بدقتها الفنية ، ورحابة مضمونها ...

على كل ، فان الجوائز لم تكن قط شهادة قاطعة على اصالة الفنان وقدرته في الخلق والابداع . فلنحاول ان نتعرف على بعض ملامح جورج سيفرس ، محظوظ هذه السنة ... (1)

ولد سنة 1900 وتعلم باثينا ثم سافر الى باريس حيث درس الحقوق التي خولته الالتحاق بالسلك الديبلوماسي منذ سنة 1926 . وخلال الحرب العالمية الثانية ساند الحكومة اليونانية التي كانت مستقرة بالشرق الاوسط ، وبعد التحرير عين مستشارا بسفارة انقرة ، ثم بلندن . وفي سنة 1952 اصبح سفيرا بلبنان فانجلترا ..

ان هذه الحياة المتنقلة بين العواصم ، اكسبت « جورج سيفرس » شعورا بالنفي والاجتثات Déracinement وجعلته يرتفع الى افق شمولي يطل منه على عوالم المصائر المتداعية ، والحيوات الانسانية المتوحدة .. يقول في احدى قصائده :

هذا الرجل يسير وهو يبكي
لا احد يعرف لماذا .
بعضهم يظن انه يبكي على حب ضائع
يشبه الصبوات التي كثيرا ما تلاحقنا
في الصيف ونحن بجانب البحر نستمع الى الحاكي
وآخرون يفكرون في اعمالهم اليومية
اوراق تنتظر النهاية .. واطفال يكبرون
ونساء يشخن بصعوبة
اما هو فيملك عينين تشبهان الخشخاش
خشخاشا قطف في الربيع ...
ومن جانبيهما يسيل نبعان صغيران
انه يهيم في الدروب .. ولا ينام ابدا
ويذرع مربعات صغيرة على ظهر الارض
آلة تعيش الما بدون حد
سرعان ما يغدو الما بدون اهمية ...
وبعضهم سمعوه يتكلم
وحيدا ، وهو يستعرض
مرايا مهشمة منذ سنين

---

1) اعتمدنا في هذا الموضوع على ما نشرته جريدة لوموند والاكسبريس .

ووجوها تكسرت في قعر المرايا

ولا احد يقدر على ترميمها ...

* * *

ظل الشعر اليوناني يعيش خلال الخمسين سنة الاخيرة باحثا عن طريقه سواء فيما يتصل بالتراث الذي يستمد منه غذاءه ، او فيما يرجع الى اللغة التي يتوسل بها للتعبير .. ذلك ان اليونان من الاقطار التي تمتلك لغتين : لغة شعبية ، واخرى « صافية » وعندما اصدر جورج سيفرس ديوانه الاول سنة 1931 لقي ردود فعل حارة ... وكلها اجمعت على ان سيفرس يعزف نغمة جديدة في محراب الشعر .. نغمة متدثرة بلغة شفافة ، سهلة ومقبولة ، وقد كتب ناقد يقول في هذا الصدد :

« على عكس بقية الشعراء الذين عودونا لغة متحذلقة ، صعبة ، منحوتة من الفاظ غريبة تثير الانتباه ، وتقطع الجريان الطبيعي للغة ، فان جورج سيفرس قد فاجانا باكتشاف شاعر يعبر — لاول مرة — بلغة لاتختلف كثيرا عن اللغة التي نتحدث بها كل يوم » .

عنصر آخر يميز شعر سيفرس ، هو قدرته على مزج المشاكل الحاضرة بظلال تراث الماضي من تاريخ واساطير ، وشخصيات خرافية .. كلها تنتصب حية متدفقة لتنقل الينا شاعرية اليونان الخالدة .

وهو في هذا المنحى يلتقي مع اساطين الشعر الانساني المعاصر الذين يلقون تجاربهم الآنية بمستوحيات اسطورية ..

امثال : اليوت ، وجون بيرس ، وابولينير .

ان تطواف « سيفرس » في ارجاء العالم ، واتصاله الوثيق بالتراث الفكري الانساني وارتفاعه الى قمة التعبير الشعبي العميق ، هي التي جعلت منه « شاهدا » اصيلا على جانب من جوانب ماساة الانسان المعاصر .. فقد لازمه الشعور بالنفي والغربة .. وجرى دوما وراء الاضواء المتلاشية محاولا امساكها .. ولكنه كان يعود كل مرة — مثل « اليس » — من رحلته ليحكي بصوت هاديء عن فزعه « من رؤية رفقائه وقد حاصرتهم الامواج ، وهم يتناثرون واحدا واحدا .. »

القنبلة الذرية ومستقبل الانسان

محموما ، انطلق الانسان الحديث يصارع المجهول والمعرفة التقريبية ، ليخضع الكون الى سيطرته ، ويثبت ارادته قوة نافذة المفعول .. وتوالت الاكتشافات تحمل في طياتها تغييرات بعيدة الغور في الظروف المعيشية . وكانت الطاقة الذرية ضمن هذه الاكتشافات .. الا انها سخرت للدمار فاصبحت سلاحا فتاكا يهدد الكيان الحضاري باجمعه . ولعل المفكرين الذين سجلوا التفاوت الشاسع بين التطور المادي والتخلف العقلي كانوا محقين الى ابعد حد .. تشهد على ذلك ماساة هيروشيما ، وهذا الخوف المستمر المصلت فوق رؤوسنا من ان ينفتح القمقم ، او من ان يدق الجرس الاحمر او الابيض في موسكو وواشنطن .

ووعي هذا العنصر الاساسي في ماساة البشرية . اوجد ردود فعل كثيرة عبرت عنها منظمات السلام ، واقلام المفكرين ، والفلاسفة ، والشعراء .. وكانت صيحة اينشتاين ناقوسا قويا ما تزال اصداؤه في كل اذن ، اذ قال :

« انني لا اعرف الاسلحة التي ستستعمل في الحرب القادمة .. ولكنني اعرف جيدا الاسلحة التي ستستعمل فيما بعد تلك الحرب : انها الاقواس والنبال » .

ومن آثار هذا الوعي ، وجد فيلسوف مثل برتراند راسل ينذر حياته وكفاحه للتنديد بالحرب وتركيز رسالة السلام .. وكذلك الفيلسوف الالماني « كارل ياسبير » الذي اصدر اخيرا كتابا بعنوان « القنبلة الذرية ومستقبل الانسان » ، ولاهمية آراء الكتاب ، وخطورة الموضوع ، ساحاول ان أورد مقتطفات من مقدمته الرائعة :

« ان القنبلة الذرية قد اوجدت وضعا جديدا كلية . فاما ان تختفي البشرية جمعاء ، واما أن يتحول الانسان في وضعه السياسي والاخلاقي ، ان هذا البديل — الذي يبدو بعيدا عن الواقعية — هو مايعمل كتابي على توضيح معالمه .

« .. لم يكن الجنرالات او رجال سياسة هم الذين سارعوا في صراحة الى رفض الوضع الجديد للاحداث ، بل الذين فعلوا ذلك هم العلماء والتقنيون ، فمن طريقهم اصبح متيسرا لكل واحد اليوم معرفة

ما يهيا . انهم لم يشاركوا فى عملية تغطية الحقائق .. وكانوا بدورهم خائفين الى ابعد حد . وقد افضى بهم تكوينهم العقلي البسيط المستقيم الذي لم يرتبط اثناء البحث بمسلمات مطلقة ، الى نتائج عجيبة ، وجعلهم يستشعرون مسؤولية تحتم اطلاع العالم على ما وصلوا اليه . اننا مدينون لهم ، هؤلاء العلماء الذين استهدفوا الخير ، بعد ان تملكهم الرعب امام نتائج علمهم ، تنصت اليهم الانسانية باعتبارهم حكما على الحقيقة .

« .. وفى الرسالة التي وجهها اينشتاين سنة 1950 الى العلماء الايطاليين بين لهم ان تحطيم الحياة فوق الارض امر ممكن تقنيا ، ثم اشار الى الامكانية الوحيدة للخلاص : « ان الطاقة الجبارة للذرة قد غيرت كل شيء باستثناء طريقتنا فى التفكير .. نحن محتاجون الى طريقة تفكيرية جديدة فى جوهرها اذا كنا نريد للانسانية ان تستمر فى الحياة ... يجب ان يغير الناس علاقاتهم فيما بينهم تغييرا جذريا ، وان يعدلوا عن المفهوم الذي كونوه عن المستقبل » .

ولكن اين يكمن هذا التحول ؟

يجيب اينشتاين : « يتحتم الا تظل القوة وسيلة سياسية » اي انه يجب حذف الحرب .

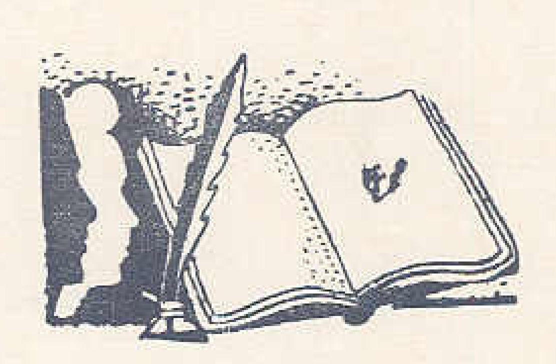
« ... وبدون رجوع الى هذا التفكير ، فلا يوجد افق آخر سوى النهاية . وطريق العقل هذا الذي عثر عليه الانسان منذ البدء وافلته عدة مرات ، يجب الآن ان يتذكره ليحتضنه كاملا . اذ ليس هناك من مخرج امامه غير الاعتماد على اصله المتعالي الذي يرتبط به خلاصه كانسان ، ويرتبط به ايضا انقاذ الحياة المادية للبشرية .

« اننا لن نوفق الى ابعاد خطر الفناء عن طريق اتخاذ اجراءات تتعلق فقط بالقنبلة الذرية او بمنع الحروب الممكنة .. لان المطلوب هو حماية مجموع الحياة البشرية التي تنبع منها الاعمال ، والمشاريع والخطط والاتفاقات والتعاليم ذات الصبغة الخاصة ..

ان النجاح لن يتحقق الا اذا التزمت سياسة جميع الدول بنهج اتجاه آخر . وهذا لن يكون ممكنا الا بتحويل مفاهيم الاخلاق وروح التضحية تحت ضوء العقل » .

حقا لقد اقام كارل ياسبير بكتابه هذا الدليل الملموس على مفهومه لرسالة الفلسفة .. ذلك المفهوم الذي يدعو الى ان تخرج الفلسفة من برجها العاجي ، وأن تتعدى نطاق الارستقراطية المنعزلة ، لتصبح أداة فعالة للحوار والتواصل .

الرباط : محمد برادة



دعوة الحق بين الشيوخ والشباب

بقلم : الأستاذ عباس الجراري

لست ادري اذا كان سيرضى عن هذا الحديث او سيضيق به ، فهو شاب متفتح الذهن مرهف الاحساس هادىء الاعصاب محب للحق والخير ، عرفته منذ زمن بعيد ايام سني الدراسة الثانوية حيث كنا لا نلتقي الا لنقرأ في كتاب او لنتجاذب اطراف الحديث في موضوع نكون قد استجمعنا اطرافه وتقصينا مراجعه. ثم شاءت الاقدار ان اسافر للدراسة ثم للعمل بعد ذلك ، فلم تنقطع مراسلتنا بل ظلت مجالا واسعا لتبادل الافكار ووجهات النظر في مختلف ميادين الادب والثقافة .

ومنذ ايام بعث الي رسالة قال في مقدمتها : ان المجاملة لم تعد ذات جدوى وانه سيكون صريحا ولو مرة واحدة ، وانه يرجو الا اقلق لحديثه . وكنت اود ان انشر الرسالة بكامل نصها لولا انه طويل ولولا ان الكاتب مزج حديثه بمسائل شخصية قد لا تهم القارىء في شيء .

واهم ما جاء في هذه الرسالة ان دعوة الحق « مجلة رجعية بمعنى انها تحت سيطرة جماعة من الكتاب الشيوخ الذين لا يسايرون حياة العصر وما تتطلب من نهوض ثقافي يهز كيان اوضاعنا العلمية والادبية ذلك النهوض الذي لن يكون الا على يد الادباء الشباب .. ومع ذلك فانت تكتب فيها بل انك بدلا من ان تكتب ـ كما عهدتك ـ في موضوعات ادبية هامة اخذت تكتب اشياء لا اظنها ذات قيمة ؛ وهذا ما لاحظت حين قرأت مقالاتك عن الفولكلور ، فما لنا وللفولكلور ، وما ذا عسى يجدينا الحديث عنه .. »

وقبل ان ارد على هذه الملاحظة التي شاء الصديق المرسل الا ان يكون صريحا في ابدائها تعبيرا عن وجهة نظره ، اود ان اذكر ان كثيرا من قراء هذه المجلة الاصدقاء حاولوا في عدة مناسبات ان يثيروا معي مثل هذا الموضوع ؛ ولكن في اشارة خفية بعيدة عن النقد الصريح الذي من شأنه ان ينير السبيل ويكشف الحقائق ، اذا ما حسنت الظنون وصفت النيات .

والصديق في ملاحظته تناول خمس نقط :

اولا : ان المجلة في قبضة كتاب شيوخ
ثانيا : ان هؤلاء الكتاب غير قادرين على النهوض
ثالثا : ان الباب مغلق في وجه الادباء الشباب
رابعا : ان المغرب في حاجة الى نهوض ثقافي

خامسا : ان دراسة الفولكلور غير ذات اهمية او قيمة .

اما عن النقطة الاولى فلست ادري اذا كان المقصود بالشيوخ كتاب الجيل الماضي وما قبله ممن تقدمت بهم السن فاصبحوا بشير حق في عداد الضالين المضلين ، او المقصود بهم علماء الدين الذين تنشر كتاباتهم في القسم الاول من المجلة الخاص بالدراسات الاسلامية . وسواء كان هذا او ذاك فالمجلة كما اعرفها قارئا وكاتبا ، محايدة في سلوكها ومنهجها ، بعيدة عن ان تتأثر او تخضع لهؤلاء او لغيرهما من طبقات الكتاب شيوخا وشبابا . وهذه لا شك ميزة قل ان تتوفر لغيرها من المجلات سواء في المغرب او غيره حيث اجهزة النشر والاعلام على مختلف اشكالها والوانها تعمل لحساب جماعة دون اخرى من الناس . وقد كانت هذه الميزة دافعا لي ولغيري ممن يضيقون بالتبعيات ان ينشروا فيها غير مقيدين ولا مرتبطين . وليس هذا فحسب ، فالمجلة في حد ذاتها وبالقياس الى غيرها ورغم عيوبها مجلة ممتازة الى حد لا يسمح

بانتقاص قدرها والطعن فى كتابها بدون سبب او حق . ولا ينبغي ان يغيب عن ذهن الصديق ان هؤلاء الكتاب - واقصد الشيوخ منهم - يسدون بانتاجهم فراغا كبيرا كان من الواجب ان يسده كتاب شباب ؛ والاسف شديد ان هذا الشباب غارق فى بحر من التمتع والانحلال والضياع ولا يسمع مثل هذا الكلام ، واذا ما سمعه فليس ليعيه او يتدبره وانما ليهزأ به ويسخر من قائله . كذلك لا ينبغي للصديق ان ينسى ان المجلة تصدر عن هيئة دينية وانه من الطبيعي ان يكون لهذه الهيئة اثر ما فى طابع المجلة . ولعله يذكر كيف انتقلت هذه المجة من مرحلة الطابع الديني الخالص الى مرحلة الطابع الفكري والثقافي عامة . ولن يضير الشباب - كتابا وقراء - ان تخصص المجلة قسما للدراسات الاسلامية لا سيما ونحن فى امس الحاجة الى المزيد من هذا اللون وغيره من الدراسات . هنا اود الاشارة الى عيب من اهم عيوب المجلة ، ربما كان عيبها الوحيد ، وهو الحشو الذي يبدو احيانا فى هذا القسم وما اغناها عنه . ولا اريد ان اذكر اسماء او ان اعين كتابات ، وكل ما اريد هو ان تعار هذه الملاحظة بعض الاهتمام والاعتبار ، فالمسالة اوضح من ان يفصل فيها القول .

واما ان هؤلاء الكتاب غير قادرين على النهوض بالاعباء الثقافية التي يتطلبها العصر وان هذه المسؤولية لن يستطيع تحملها غير الادباء الشباب ، فملاحظة ذات شقين كلاهما فى حاجة الى بعض النقاش . حقا ان التطوير والتجديد لا يكونان ابدا الا على يد الشباب وان كل جيل مسؤول وحده عن تحمل الاعباء التي تفرضها عليه حياته وظروفه ، وان هذه الحياة والظروف تختلف من جيل الى جيل وان هذه الاعباء تختلف بدورها ، وانه غير طبيعي ان يتحمل الجيل السابق وما قبله مسؤوليات الجيل الحالي ، ومع ذلك فلا زلنا نحن ابناء هذا الجيل عالة فى اكثر من شيء على ابائنا واجدادنا رغما عن طبيعة الاشياء وما تفرض من تباين واختلاف . وسيقول قائل ان الشباب قابض على زمام الادارة لدرجة لا تدخل وزارة من الوزارات او مصلحة من المصالح الا وتجد القائمين عليها من الشباب ، هذا صحيح ولكن هناك ميادين اخرى - اهمها ميدان الفكر والثقافة - ظل الشباب بعيدا عنها - ولا اريد ان اقول عاجزا عن الخوض فيها - لما تحتاجه من كفاح وتضحية وصبر ومثابرة . فلا عجب والحالة هذه ان نرى غير اقراننا يساعدوننا فى نهضتنا الثقافية الحاضرة ويضيفون الى كفاحهم المرير الطويل كفاحا آخر قد لا يكون فى نفس قوة كفاحهم السابق ، ولكن يكفي انه يملأ بعض الفراغ ، ولا اقول اكثر حتى لا ارمي بالتحيز وعدم الانصاف ومن المؤسف ان يعرض كبار كتابنا لاتهامات هم منها براء وفى وقت هم بحاجة الى التكريم سواء من طرف الدولة او الافراد تشجيعا لهم على ان يواصلوا السعي والجهد ، واعترافا بما بذلوا من جهود مضنية فى نشر اللغة والثقافة العربيتين رغم عراقل الاستعمار وقلة الامكانيات وضعف التجارب وفردية الجهود . وليتأكد الصديق بعد هذا انه متى كبر الابناء واصبحوا قادرين على تحمل المسؤولية كاملة وفى ثقة تامة بانفسهم وقدراتهم ، خلى الاباء لهم الطريق وفسحوا لهم مجال العمل فى حرية وانطلاق سيرا مع طبيعة الامور وحقيقة الحياة ، وهذا ما لم نصل له نحن بعد .

ثم نقف عند النقطة الثالثة فى ملاحظة الصديق لاستسمحه فى الرد بان المجلة لا تقفل الباب فى وجه الادباء الشباب وان الذي اعرف عن تجربة وملاحظة انها تشجعهم وتفسح المجال امامهم فى غير شدة او تضيق لدرجة تسمح بنشر انتاج لادباء ناشئين هو دون المستوى المطلوب . ولولا انها تفتح ذراعيها للادباء الشباب لما نشرت لي ولغيري كتابات هي ابعد ما تكون عن الرجعية او غيرها من الالفاظ المصطنعة فى هذا الباب . اكثر من هذا ان ادارة المجلة تطلب من غير واحد من الشباب ان يشاركوا فى تحريرها ، ويبدو ان اعراضهم عنها يضطرها الى ان تمد يدها لغير ابناء الوطن ، والاسف شديد ان نرى بعض هؤلاء يتصدون - دون علم او فهم - للكتابة عن تاريخنا وادبنا سدا لفراغ نحن وحدنا ملزمون بسده ، فليس غيرنا يستطيع ان يبحث فى ماضينا او يكتب عن حاضرنا او يخطط مستقبلنا . ومرة اخرى أؤكد

للصديق ان المجلة لا تغلق الباب فى وجه احد وانها لو كانت كما يزعم لتعثرت فى اول الطريق ولما استطاعت ان تسير ست سنوات كاملة ولا تزال .

ونصل بعد ذلك النقطة التالية لارجىء الحديث عنها الى مقال خاص ، فموضـوع النهضـة الثقافيـة يحتاج الى تفصيل لا يسمح به مجال هذا الـرد . ولا اريد ان يخطر ببال الصديق ان هذا نـوع من التخلص والهروب ، فانا اوافقه على ملاحظته القيمة واضـم صوتي الى صوته عـسى ان يصل صـداه الى المثقفين والمسـؤولين ، فقد آن الاوان لتقوم ثورة ثقافية تقضي على الجهل وتنشر الثقافة وتعممها فى مختلف اوساط الشعب وبشتى الوسائل والامكانيات . وقد آن الاوان كذلك ليتجاوب المثقفون مع مقتضيات الحياة وينفضوا عنهم غبار الخمول والانعزال ويتخلصـوا من معـاول الهدم والتحطيم ويخوضوا المعركة فى تعاون وصـدق وبكل ما لديهم من طاقات وخبرات .

اما عن النقطة الخامسـة والاخيـرة فليسمـح الصديق ان اطلب منه اعادة قراءة المقالات التي كتبت عن الفولكلور ليكتشف خطاه بنفسـه ويدرك ان دراسة مثل هذا الموضوع لا تقل اهمية وقيمة عن غيرهـا من الدراسات ، وقد سبق ان قلت فى اول هـذه المقالات ان الغرض من دراسـة الفولكلور هـو الكشـف عـن خصائص الشعوب وظواهرها والتعرف على شخصيتها وعبقريتها وقيـاس مستواهـا الفنـي والحضـاري والثقافي ومقارنتها بغيرها من الامم والشعوب لاثبات عراقتها فى هذا المضمار . ومع ذلك فسأعود الى تناول الموضوع بما يزيد فى توضيحه ويزيل عنه كل لبس او غموض اذا ما احتاج الامر الى ذلك .

وحتى لقاء آخـر اشكـر الصديـق على هـذه الملاحظة التي ابى الا ان يكون صريحا فى ابدائها والتي ارجو الا اكون اغضبته بنشرها والا يكون فى ردي عليها ما يثير ضيقه او قلقه .

القاهرة : عباس الجراري



الأنباء الثقافية

❊ تفضل جلالة الملك الحسن الثاني وهو في باماكو بتقديم عدد من المصاحف هدية للمسجد الاعظم فى داكار الذي سيدشن قريبا .

❊ ارسل المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي فى الرباط ، لجامعة الدول العربية تصميما لمجلة « اللسان العربي » التي يعتزم المكتب المذكور اصدارها مرتين فى السنة بمعونة الكتاب والعلماء والنقاد والادباء العرب .

❊ عاد الى المغرب اخيرا الاستاذ محمد الفاسي عميد الجامعة المغربية ، بعد ان قام بتمثيل المغرب فى عدة مؤتمرات ادبية وثقافية فى مختلف عواصم افريقيا واوربا وامريكا .

❊ احتفل اتحاد كتاب المغرب العربي بذكرى غاندي فى دار « الفكر » تكلم فيها عدد من الكتاب وسفير الهند بالرباط ، كما اقيم معرض لغاندي في نفس الاحتفال .

❊ يصدر قريبا للاستاذ عبد العزيز بن عبد الله كتاب يبحث دور المراة المغربية السياسي والعلمي والادبي فى التاريخ .

❊ **صدر عن دار منشورات مكتبة الوحدة العربية بالدار البيضاء كتاب «النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين» من تاليف الاستاذ ابراهيم حركات ، وهو محاولة جدية قيمة للتعريف بتاريخنا وحضارتنا. نهنيء الزميل الكريم ونتمنى له المزيد من التوفيق .**

❊ كان من المقرر اجراء مهرجان الشعر الخامس فى بغداد ، ومن المنتظر ان يجري فى الجزائر .

❊ زار تونس مؤخرا الشاعر السوري الكبير بدوى الجبل الذي نزل ضيفا على حكومة الجمهورية التونسية .

❊ « تونس فى مواكب الحضارات والعصور » كتاب يؤرخ للحركات السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي مرت بها تونس ، ويقع فى ثلاثة اجزاء، وقد صدر اخيرا لمؤلفه الاستاذ محمد الهادي الساوي

❊ اصدر القاص الليبي السيد عبد الله القويري مجموعة من المسرحيات القصيرة بعنوان « المعاناة من اجل لا شيء » .

❊ جاذبية صدقي تؤلف اول كتاب لها عن المسرح تناولت الكاتبة فيه خمسين مسرحية بالدراسة والتحليل .

❊ « أدب المراة العربية » كتاب يتناول بالدراسة الكاتبات العربيات ، والمؤلفات التي كتبتها المراة العربية .

❊ صدر فى القاهرة كتاب « الفن المصري القديم» للدكتور انور شكري .

❊ « شيء لا يهم » رواية صدرت لاحسان عبد القدوس .

❊ « الاسلامية والمذاهب الادبية » كتاب صدر مؤخرا بالقاهرة للدكتور نجيب الكيلاني .

❊ القابة » كتاب يضم مجموعة من الدراسات حول افريقيا لصاحبه الدكتور مصطفى محمود ، صدر فى القاهرة فى هذه الايام .

❊ اعتزم مجلس الفنون بالقاهرة ترجمة 9 مسرحيات وقصص الى اللغتين الانجليزية والفرنسية وهي : « ليزيس » ، و « يا طالع الشجرة » لتوفيق الحكيم ، و « مصرع كيلوباترا » لاحمد شوقي ، و « شجرة الدر » لعزيز اباظة ، و « زقاق المدق » لنجيب محفوظ ، و « جمهورية فرحات » ليوسف ادريس ، و « سر الحاكم بامر الله » لاحمد باكثير ، و « ماساة جميلة » لعبد الرحمن الشرقاوي ، و « حواء » لمحمود تيمور .

* « التربية الاسلامية » عنوان الكتاب الذي انتهت من تأليفه الدكتورة حكمت ابو زيد .

* شكلت لجنة مشتركة تحت اشراف الدكتور دبوا واعضاء من اكاديمية العلوم فى حكومة غانا ، لتخطيط مشروع لاصدار دائرة معارف افريقية ، يشترك فى اعداد موادها عدد من كبار الافريقيين ، او الذين درسوا الحياة والحضارة الافريقية ، وستتصل اللجنة بجميع البلاد الافريقية ، وبالجامعات ، والمعاهد ، والدوائر العلمية فى القارة الافريقية للتعاون فى اصدار هذه الدائرة .

* افتتح فى مدينة المونستير بتونس أول مسجد شيدته الحكومة منذ حصول البلاد على استقلالها .

* « الشعر الشعبي فى السودان » كتاب يقوم باعداده الدكتور محمود ذهني المدرس بجامعة القاهرة .

* اصدر الدكتور عبد الكريم اليافي الاستاذ بكلية الادب بجامعة دمشق كتابا بعنوان « دراسات فنية فى الادب العربي » ، يقع الكتاب فى اكثر من 500 صفحة .

* تعقد الجماعة الاسلامية فى باكستان مؤتمرها السنوي الاول وذلك ابتداء من 25 حتى 28 اكتوبر 1963 ، وسيلقي الاستاذ ابو الاعلى المودودي امير الجماعة عدة محاضرات يتناول فيها اوضاع البلاد الراهنة والتيارات الفلسفية التي تعمل عملها في باكستان ، كما يبين للعاملين للحركة الاسلامية الخطط التي يجب أن يركزوا عليها نشاطهم .

* تترجم قصة «اللص والكلاب» لنجيب محفوظ الى اللغة الانجليزية .

* قامت الدكتورة عائشة عبد الرحمن بتحقيق معجم « المحكم » لابن سيدة ، وسيصدر قريبا عن الادارة الثقافية بالجامعة العربية بالقاهرة .

* يقوم الاستاذ لؤي طه بترجمة مسرحية توفيق الحكيم « ايزيس » الى اللغة الالمانية .

* قام الاستاذ ابراهيم حمادة بتحقيق كتاب « خيال الظل » لابن دينال ، وسيصدر فى هذا الشهر فى القاهرة بعد ما راجعه الدكتور محمد القصاص .

* تم بالقاهرة طبع ديوان شاعر الاسكندرية عبد الحميد السنوسي الذي قام بجمعه وتحقيقه محمد مفيد الشوباشي ، ومصطفى السحري .

* سيقدم الزميل انور الجندي الى الطبع بالقاهرة موسوعته « معالم الادب العربي المعاصر » .

* قبل انتهاء هذه السنة سيعقد مؤتمر لخبراء الانباء العرب لدراسة وسائل الدعاية الصهيونية والاستعمارية المناوئة للعرب وتنظيم دعاية مضادة .

* افتتح فى بيروت فى الاسبوع الاخير من الشهر الماضي المهرجان السينمائي الدولي الثالث شاركت فيه عشرون دولة ، من بينها المغرب وتونس ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وروسيا ، وايطاليا والجمهورية العربية المتحدة .

* عقد بين الحادي عشر والثالث والعشرين من نوفمبر مؤتمر عالمي بحثت فيه مشاكل التعليم في البلدان العربية ، كما بحثت فيه توحيد احصائيات التعليم وكيفية تطبيقها بافضل وسيلة بواسطة تحسين الاجهزة التعليمية ، وقد شارك المغرب بوفد فى هذا المؤتمر .

* منحت جائزة سعيد عقل الادبية فى لبنان عن شهر يوليو الى الرئيس البرازيلي جوسلينوكو بتشك تقديرا لمحاضرته الرائعة عن الانتشار اللبناني واثره فى نمو البرازيل وازدهار الاميركات الثلاث .

* سينشيء الشاعر اللبناني سعيد عقل متحفا فى « وادي الفن » بزحلة .

* صدر فى بيروت « مختارات سلامة موسى » مقالات وبحوث فى الادب والفكر السياسي والاشتراكي

* تعاقد السيد احمد عويدات صاحب دار عويدات للنشر ببيروت مع عدة دور للنشر بباريس على ترجمة بعض الروائع الادبية الفرنسية الى العربية.

* اعيدت طبع بعض مؤلفات امين الريحانـــي بمناسبة ذكراه التي احتفل بها مؤخرا فى لبنان .

* نعى لبنان الشاعر فكتـور خـوري ، رئيـس تحرير جريدة « صدى الشمال » فى طرابلس الشرق.

* فى اوائل هذا الشهر صدر الجزء الثاني مـن كتاب « المرجع » للعلامة الشيخ عبد الله العلايلي .

* صدرت فى بيروت طبعـة جديـدة لكتـــاب « ظلمات واشعة » للكاتبة الراحلة مي زيادة .

* « وجوه من بلادي » كتـاب صـدر فى لبنـان لمؤلفه جورج قزي .

* اقيم احتفال كبير تخليدا لذكر نابغة لبنـان جبران خليل جبران ، كما اقيم ايضا احتفال آخــر تكريما لذكرى امين الريحاني وذلك فى شهر شتمبـر الماضـــــي .

* قام بزيارة الى حلـب المستشـرق الدكتـور جيمس ميلامي الاستاذ المساعد للغة العربية فى جامعة ميشيغن بالولايات المتحدة قصد تحقيق كتاب «مكارم الاخلاق لابن ابي الدنيا » .

* « سامراء » اسم مجلـة فى بغـداد صاحبهـا ورئيس تحريها الحاج يونس الشيخ ابراهيم الســامرائي

* صدرت فى العراق مجلة جديدة باسم «المناهل» لصاحبها عبد الرزاق بستانة .

* « مرفا الذكريات » و « أضواء على الشعــر الحديث فى اليمن » اسم لكتابيـن سيصـدران قريبـا لصاحبهما هلال ناجي .

* بدات دار المعارف بالقاهرة فى طبـع ديـوان « انفاس الـسحر » للشاعرة العراقية عاتكة الخزرجي.

* أول شاعرة سعودية أصدرت ديوانا هي السيدة ثريا محمد قابل ، واسم ديوانها هو « الاوزان الباكية»

* « رابطة العالم الاسلامي » أسم لمجلة صدرت باللغتين العربية والانجليزيـة مشتملـة على بحـوث اسلامية قيمة ومواضيع ثقافية وادبية .

* « تاريخ مدينة جدة » كتـاب صـدر حديثـا لصاحبه عبد القدوس الانصاري .

* قررت حكومة اندونيسيا توجيه دعوة لعقـد مؤتمر اسلامي فى اندونيسيا فى السنة القادمة ، ومن جملة المواضيع التي ستطرح للدراسة قضية فلسطين

* بمناسبة مرور اربعين عاما على وفاة فرانـز كافكا ، تستعد دور النشر التشيكية لاصدار طبعات جديدة لروايتي « القضيـة » و « القصر » وقد نشرتا لاول مرة بعد وفاته ، خلافا لرغبته فى عدم نشر اعماله.

* توصل العالم اللغوي الحلبي قاسم احمد الى معرفة كيفية نشوء اوزان الفعل الثلاثي وجمع المذكر السالم والمؤنث السـالم وذلك بعد 15 سنة قضاها فى مقارنة اللغات الهنداوروبية باللغات السامية .

* « المدخل الى الثقافة العلمية » كتاب سيصدره الاديب الســوري سمير عبده ، وهو يشتمل عن بحوث فيما يتعلق بمفهوم الثقافة العلمية .

* انتهى الاديب السـوري نهاد رضا من تنقيـح روايته « اشمونيون فى باريس » وهي رواية اجتماعية فلسفية معظم ابطالها من بلاد وهمية حقيقية اسمهـــا « أشمونيـــا » .

* يقوم آخر رئيـس لوزراء روسيا كيرنسكــي قبل الثورة عام 1917 بتاليف كتاب جديد يروى فيه ظروف روسيا أثناء قيام الثورة .

* « الديبلوماسية العربية فى اسبانيـا » كتـاب الفه السـيد عبد الكريم محمود القائم بأعمال السفـارة العراقية سابقا فى مدريد ، واستنـد فى تاليـف هـذا الكتاب الى مراجع ومخطوطات نادرة محفوظة فى مكتبة الاسكوريال .

* قصة « بلاتيرو وانا » الشعرية التي كتبهـا الشـاعر الاسباني الكبير خوان رامون خيمنث الحائـز على جائزة نوبل للاداب 1956 ستعرض فى المسرح .

* احتفلت المحافل الادبية في العالم بالذكرى المئوية لوفاة الأديب الفريد فيني الذي كانت وفاته في 17 شتمبر 1863 .

* صدر في باريس الجزء الرابع من موسوعة تاريخ الفلسفة وهو من تاليف البير ريفو الذي توفي قبل ان ينتهي من كتابة هذا المشروع الضخم ، ويتناول هذا الجزء الفلسفة الفرنسية والانجليزية .

* نقل اخيرا من مقره العتيق الى مباني حديثة متحف اكس لاشابل الدولي الذي يعتبر من اقدم متاحف الصحف في العالم ، وقد أسس هذا المتحف عام 1899 وهو يضم وثائق عديدة ذات قيمة تاريخية وثقافية عظيمة وجرائد حررت في اكثر من ثلاثين لغة وطبعت في عصور مختلفة ، كما يضم هذا المتحف اكبر واصغر واقدم جريدة في العالم .

* فجعت الاوساط الادبية الفرنسية بوفاة الشاعر الفرنسي الكبير جان كوكتو عن عمر يناهز 74 سنة .

ظهر كوكتو على مسرح الاداب عند ما كان في السادسة عشرة من عمره وكتب عدة مؤلفات في الشعر والمسرح ، والقصة ، والرواية ، كما كانت له ايضا مشاركة في الرسم والديكور ، انتخب سنة 1955 عضوا في الاكاديمية الفرنسية ، وفي السنة التالية منح شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة اكسفورد ، وقد بدات صحة كوكتو تتدهور منذ شهر ابريل من هذه السنة على اثر نوبة قلبية ، وقد اعلن عن وفاة كوكتو بعد ساعات قليلة من وفاة المغنية اديث بيان .

* سيصدر للكاتب الاردني عيسى الناعوري ترجمة لرواية « البير » للكاتب الايطالي جوزيبي توماسي دي لامبيدوزا التي لاقت نجاحا كبيرا .

* صدر في لندن كتاب في مجلدين كبيرين عن مؤسسة القرن العشرين عنوانه « افريقيا الاستوائية » وهو من تاليف الدكتور جورج هيوبرت .

* احرز على جائزة نوبل للطب لسنة 1963 ثلاثة اطباء بريطانيين هم : جون كريوا كلس ، وآلن لورد هوكينك ، واندريو فلوتينك اوكسليب ، ويبلغ قدر الجائزة 30 مليون فرنك .

* عقد في الاسبوع الاخير من الشهر الماضي بنيويورك المؤتمر التاسع للغات والآداب الغربية .

* اكتشف علماء الآثار الصينيون بقايا متحجرة للفك الأسفل للانسان الاول يرجع تاريخها الى العصر الجليدي منذ 70 مليون عام : سيحتفظ بالفك في متاحف الآثار بهونج كونج : حيث سيقوم العلماء بدراسته

* اشترك 13 بلدا بتخليد الذكرى المئوية لمؤتمر البريد الدولي . ويعود انشاء اتحاد البريد العالمي الى سنة 1863 . وبهذه المناسبة دشن معرض هام للطوابع البريدية في باريس .

* وافق المجلس التنفيذي لمنظمة اليونيسكو على عقد مؤتمر في سنة 1964 في ميدان علم المياه .

* نشر سومرست موم مؤخرا كتابه « نظرة الى الماضي » تحدث فيه بصراحة عن زواجه المشؤوم بزوجته سيري . وتطلق الاوساط الغربية الآن على سومرست موم بعد هذا الكتاب « العجوز المجنون » .

* ادى زلزال سكوبجي في يوغسلافيا الى فقدان بعض المخطوطات العربية الثمينة التي تعتبر وثائق اسلامية نادرة . وتقوم حاليا في عواصم البلاد العربية حملة من العلماء والباحثين لحث الاوساط الثقافية المسؤولة على تصدير الوثائق الاسلامية والعربية الموجودة في دار الكتب الوطنية بباريس ، والمتحف البريطاني والمكتبة الوطنية بلندن ، ومكتبة الاسكوريال بمدريد وجامعة بريستون ، وجامعة الزيتونة ، وجامع القرويين بالمغرب .

* عقدت الامانة العامة لمجمع البحوث الاسلامية مؤتمرها الاول في جامعة الازهر ، اشترك فيه كبار العلماء من جميع انحاء العالم ، وتباحثوا فيه حول مشكلات العالم الاسلامي الحديث ، والملاءمة بين احكام الفقه ، وبين الاحداث الجارية في كل مجتمع من المجتمعات الاسلامية ، وبيان الراي فيما جد في حياة المسلمين من مسائل تحتاج الى حكم الاسلام فيها .

* قررت لجنة جائزة نوبل منح جائزتها في الآداب في هذه السنة الى الشاعر اليوناني جيورج سيفرياديس

✻ اعلنت جامعة الدول العربية عن جائزة تمنح لافضل مقال حول مساهمة العالم العربي في الحضارة العالميــــة .

✻ اهديت جائزة الذرة من اجل السلام التـــي تمنحها الولايات المتحدة سنويا الى اثنين من كبـــار الفيزياء ، احدهما روسي ، والآخر امريكي ، فقد فاز بالجائزة الامريكية للمرة الاولى العالـم السوفييتـــي الدكتور فلاديمير فكلسر ، مدير مختبر الطاقة العالمية في المعهد الروسي المشترك للابحاث النووية . والفائز الامريكي هو الدكتور اودين مكميـلان مديـر مختبـر لورنس للاشعاع في كاليفورنيا الذي نال جائزة نوبـل في الكيمياء عام 1951 . وقد تسلـم كـل من الدكتور فكسلر ، والدكتور مكميلان ميدالية ذهبيـة وتقاسمـا مبلغ 75000 دولار نقدا ، وفقا لنصوص جائزة الذرة من اجل السلام التي وزعت لاول مرة عام 1957 .

✻ اكتشف علماء الآثار السوفييت قبر القيصر المعروف باسم « ايفان الرهيب » .

✻ انتهى الدكتور رشـاد رشـدي مـن تأليـف مسرحيته الجديدة « رحلة خارج الاسوار » .

✻ يقام في القاهرة في العام القادم مهرجان للقصة يجتمع فيه كتاب القصة في البلاد العربية . ويتضمن البرنامج دراسات عن فن القصة وتاريخها وتطورها .

✻ يصدر قريبا الدكتـور محمد مندور كتابا عن النقاد المعاصرين مشتملا على دراسات نقدية عـن : عبد الرحمن شكري ، والمازني ، والعقـاد ، ولويـس عوض ، ويحيى حقي .

✻ بمناسبة الاحتفال في 18 فبراير القادم بمرور 400 سنة على وفاة ميجيل انجلو ، تقوم ايطاليا بتصميم عابرة محيط ضخمة تحمل اسم الفنان الكبير .

✻ يصدر الدكتور زكرياء ابراهيم أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة سلسلة من الكتب بعنوان « عبقريات فلسفية » والكتاب الاول منها سيصدر عن الفيلسوف « كانـت » .

✻ وافقت منظمة اليونيسكـو على بنـاء معهـد للمعلمين بصنعاء

✻ اصدر معهد شؤون الشعوب الآسيوية التابع للاكاديمية العلوم السوفييتية في موسكو ترجمة جديدة لمعاني القرآن الكريم . وقد قام بالترجمة المستشـرق السوفييتي انجيابي كراشكو بالتعاون مع بعض اعضاء المعهـــد .

✻ كتاب جديد عن « العبقري في حياته الخاصة » اصدره جون فولكنر عن اخيه الكاتب الامريكـي وليام فولكنـر .

وفـاة العلامـة الفقيـه المختار السوسي

استأثرت رحمة الله بالفقيه العلامة المختار السوسي وزيـر التاج ، وقد تأثرت لوفاته مختلف الاوساط العلمية والوطنية وذلك لما كان يتمتع به الفقيد من كفاءة ومقدرة علميتين وتاريخ حافل طويل في الوطنية ، وقد أشرف على تشييع جنازته بأمر من صاحب الجلالة معالي وزير الاوقاف الحاج أحمد بركاش في موكب رهيب حضره عدد كبير من الوزراء والشخصيات الرسمية والشعبية

واسرة دعوة الحق تدعو الله أن يتغمد الفقيد بواسع رحمته وأن يهب أسرته واصدقاءه ومحبيه جميل الصبر والسلوان .

فهرس العدد الثاني من السنة السابعة

دراسات اسلامية :

ابحاث ومقالات :

ديوان دعوة الحق :

قصة العدد :

آفاق فنية :